فلسفة

ليف تولستوي



عن الحياة

بحث في طبيعة الحياة ومغزاها

ترجمه عن الروسية
يوسف نبيل




mohamed khatab


عن الحياة
بحث في طبيعة الحياة ومغزاها

عن الحياة

بحث في طبيعة الحياة ومغزاها

ليف تولستوي

ترجمه عن الروسيّة: يوسف نبيل

العنوان بالروسيّة:

О жизни

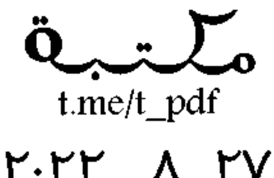
ترجمة عنوان الكتاب بالانكليزية:

On life

By Leo Tolstoy

Translated by Youssef Nabil

الطبعة الأولى: يناير - كانون الثاني، 2022 (1000 نسخة)





بغداد - العراق / شارع المتنبي عمارة الكاهجي

تلفون: 9647714440520+ / 9647811005860+

www.daralrafidain.com
info@daralrafidain.com
daralrafidain@yahoo.com
Dar ALRafidain دار الرافدين
daralrafidain
dar.alrafidain
dar_alrafidain
daralrafidain دار الرافدين

ISBN: 978 - 9922 - 643 - 76 - 2

ليف تولستوي

مكتبة | سُر مَن قرأ

عن الحياة

بحث في طبيعة الحياة ومغزاها

#937

ترجمه عن الروسيّة
يوسف نبيل



www.daralrafidain.com

الإنسان ليس سوى قصبة، وهي أضعف ما في الطبيعة، لكنه قصبة مفكرة. لا يحتاج الكون إلى أن يتسلح كاملًا ليسحقه؛ فنفثة بخار، أو قطرة ماء تكفي لقتله. ولكن عندما يسحقه الكون، يكون الإنسان أنبل من قاتله، لأنه يعلم أنه يحتضر، بينما لا يعرف الكون شيئًا عن الميزة التي يتفوق بها عليه. جدارتنا إذن كلها في الفكر. ومن ثَم هذا ما يتعين علينا النهوض به. لذلك دعونا نفكر مليًّا: هذا هو مبدأ الأخلاق.

باسكال

ثمة شيئان كلما تأملت فيهما وانشغلت بهما امتلأ وجداني بإعجاب ورهبة على نحو جديد ومتزايد: السماء المرصعة بالنجوم فوقي، والقانون الأخلاقي في داخلي. الأولى تبدأ بالمكان الذي أشغله في عالم الحواس الخارجي، ثم تتوسع الروابط التي تربطني حتى تصل إلى حجم لا يُحد، يضم عوالم فوق عوالم، ونظمًا فوق نظم، وتوسّعها حركتها الدورية أيضًا في بدايتها واستمرارها، وتصل بها إلى زمن غير محدود. الثاني يبدأ من ذاتي غير المرئية؛ من شخصيتي، ويضعني في عالم هو حقًا لا نهائي، لا يُحاط إلا بالعقل، أتعرّف فيه على نفسي، ليس عن طريق المصادفة البحتة، بل عبر الرابطة العامة والضرورية.

نقد العقل العملي. كانط

«وَصِيَّةً جَدِيدَةً أَنَا أُعْطِيكُمْ: أَنْ تُحِبُّوا بَعْضُكُمْ بَعْضًا» (يوحنا 13: 34)



الفهرس

مقدمة

دعونا نتخيل إنسانًا ليس لديه مصدر رزق آخر سوى مطحنة. هذا الإنسان ابنٌ وحفيدٌ لطحَّان، وهو يعرف جيدًا بالمعرفة المتوارثة عن أسلافه كيف يتعامل مع كافة أجزاء المطحنة لتطحن جيدًا. يجهل هذا الإنسان علم الميكانيكا، لكنه ضَبط كافة أجزاء المطحنة بقدر ما استطاع، لتكون عملية الطحن جيدة وفعَّالة، واستطاع أن يكسب عيشه ويستمر.

لكن حدث أن أمعن هذا الرجل التفكير يومًا في طريقة عمل المطحنة، وترامت إليه كلمات من هنا وهناك عن علم الميكانيكا، وبدأ يراقب أي جزء يدير الجزء الآخر.

من القادوس[1] إلى حجر الرحى، ومن حجر الرحى إلى عمود المحرك، ومن عمود المحرك إلى العجلة، ومن العجلة إلى السد والمياه، وانتهى به الأمر إلى أن أدرك بوضوح أن الأمر برمته يعتمد على السد والنهر. سُرَّ هذا الإنسان بذلك الاكتشاف، وبدلًا من أن ينشغل ـ كما كان في الماضي ـ بخفض ورفْع حجر الرحى وطَرْقه، وشد ورخي السير، بدأ يدرس النهر، واضطرب عمل المطحنة تمامًا. صاروا يقولون للطحَّان إن الأمر لا يجب أن يسير بهذه الطريقة، لكنه جادلهم وظل يدرس النهر. ظل يدرس الأمر

(1) وعاء قمعي الشكل لتلقيم الطاحون بالقمح.

طويلًا بكل حمية، وتجادل كثيرًا مع من كشفوا له عدم صحة تفكيره، حتى صار على قناعة في نهاية الأمر بأن النهر هو المطحنة.

سوف يجيب هذا الطحَّان عن كافة الأدلة التي يقدمونها له على عدم صحة أفكاره قائلًا: «لا يمكن لمطحنة أن تطحن دون ماء، ومن ثَم إذا أردنا أن نعرف المطحنة جيدًا يجب أن نعرف كيفية جريان الماء، وأن نعرف قوة حركته، ومصدره... باختصار؛ إذا أردنا أن نعرف المطحنة علينا أن نعرف النهر».

من الناحية المنطقية تبدو أفكار الطحَّان غير قابلة للدحض. الوسيلة الوحيدة لتخليصه من هذا الخداع تتمثل في أن نكشف له أن الأمر لا يتعلق بأهمية كل فكرة في حد ذاتها بقدر أهمية الموضع الذي تشغله هذه الفكرة. يعني ذلك أننا إذا أردنا أن نفكر بطريقة مثمرة، من الضروري أن نعرف ما الذي علينا أن نفكر فيه أولًا، وما الذي نفكر فيه بعد ذلك، حيث إن الفرق الوحيد بين النشاط العاقل والمجنون هو أن الأول يُرتِّب أفكاره بحسب أهميتها؛ فيتوصل إلى أي فكرة يجب أن تكون أولًا، ثم الفكرة الثانية والثالثة والعاشرة... إلخ. أما النشاط المجنون فيتمثل في أفكار تجري دون نظام. علينا أن نكشف له إذن عن أن تعريف هذا النظام الفكري لم يأتِ عرضًا، بل إنه يعتمد على الهدف الذي تخدمه هذه الأفكار.

يؤدي هدف كافة الأفكار إلى وضع نظام تنتظم عليه الأفكار المنفصلة حتى تصير معقولة.

التفكير غير المرتبط بالهدف العام للأفكار برمتها هو تفكير مجنون، مهما كان منطقيًا في حد ذاته.

يهدف الطحَّان إلى أن يؤدي عملية طحن جيدة، وإذا لم يُغفل هدفه

فلا بد أن يصنع هذا الهدفُ نظامًا وتسلسلًا لأفكاره، يتعلق بحجر الرحى والعجلة والسد والنهر.

في غياب هذه العلاقة التي تربط بين الأفكار والهدف منها ستصير أفكار الطحَّان خاطئة، بل وبليدة أيضًا، مهما كانت في حد ذاتها جميلة ومنطقية. سوف تصير أفكاره شبيهة بأفكار كيفا موكيفيتش[1] عن مقدار الكثافة المطلوبة لقشرة بيضة الفيل، لو كانت الأفيال تبيض، لا تلد. في رأيي أن هذا هو الحال مع أفكار علمنا المعاصر عن الحياة.

الحياة هي المطحنة التي يريد أن يبحث الإنسان في أمرها. الحاجة إلى المطحنة مرهونة بأن تطحن جيدًا، كما أن الحاجة إلى الحياة مرهونة بأن تكون حياة جيدة. لا يمكن للإنسان أن يُنحِّي عنه هذا الهدف ولو للحظة واحدة دون أن يخشى عقابًا. إذا أهمل هذا الهدف فستفقد أفكاره لا محالة موضعها، وتصير شبيهة بأفكار كيفا موكيفيتش عن مقدار البارود المطلوب لتفجير بيض الأفيال.

لا يبحث الإنسان في أمر الحياة إلا ليجعلها أفضل. هكذا كان الأمر مع من درسوا الحياة وتقدموا بالإنسانية في طريق المعرفة. لكن بالإضافة إلى هؤلاء المعلمين الحقيقيين والمحسنين إلى البشرية كان هناك دائمًا ـ وما زالوا موجودين إلى الآن ـ مفكرون تركوا هدف التفكير، وبدلًا منه طرحوا سؤالًا عن مصدر الحياة، وما الذي يُدير المطحنة. يؤكد البعض أن المصدر هو المياه، بينما يؤكد آخرون أنه النظام. يحتدم الجدال، ويظل هدف التفكير يبتعد أكثر فأكثر، وتُستبدل به موضوعات غريبة تمامًا.

---

(1) إحدى شخصيات رواية «الأنفس الميتة» لجوجول.

هناك مزحة قديمة عن جدال دار بين يهودي ومسيحي. يُحكى أن المسيحي في إجابته عن التفصيلات المعقدة التي طرحها اليهودي ضربه بكفه على صلعته فتعالت طرقعة، وسأله: «ما سبب هذه الطرقعة؟ أهو كفي أم صلعتك؟»، وهنا استُبدلت بالجدال بشأن الإيمان أسئلة جديدة لا فكاك منها.

منذ أقدم الأزمنة وشيء مشابه يحدث جنبًا إلى جنب مع المعرفة الحقيقية للناس حيال مسألة الحياة.

منذ أقدم الأزمنة وهناك أفكار شهيرة عن مصدر الحياة، وما إذا كان المصدر غير مادي أم مزيجًا من مواد مختلفة. تستمر هذه الأفكار إلى يومنا هذا، ولا يبدو أن ثمة نهاية لها، وذلك لسبب محدد يتمثل في أن هدف كافة هذه الأفكار قد تمت تنحيته بعيدًا، وهم يفكرون في الحياة بمعزل عن هدف التفكير؛ باختصار إنهم لا يفكرون في الحياة ذاتها، بل في مصدرها أو ما يقترن بها.

عند التحدث عن الحياة الآن، لا في الكتب العلمية وحسب، بل حتى في المناقشات، لا يتحدثون عن الحياة التي نعرفها؛ الحياة المقترنة بصنوف المعاناة التي أخشاها وأكرهها، والمقترنة أيضًا بصنوف المسرات والمتع التي أرغب فيها، بل يتحدثون عن شيء آخر قد يكون نتج عن لعبة عشوائية وفقًا لبعض القوانين الفيزيائية، أو نتج عن سبب سري.

تُنسب كلمة «الحياة» الآن لشيء مثير للجدل، لا يتضمن السمات الأساسية للحياة، مثل الوعي بصنوف المعاناة والمتعة والسعي إلى الخير.

«الحياة هي مجموعة من الوظائف تقاوم الموت. الحياة هي مجموعة

من الظواهر تقترن بعضها ببعض خلال فترة محدودة داخل كائن حي»[1].
«الحياة عملية ثنائية مستمرة من التحلل والاندماج العام. الحياة هي تركيبة خاصة من تغيرات مختلفة تحدث بصورة متتابعة. الحياة هي كائن حي عامل. الحياة هي نشاط خاص لمادة عضوية. الحياة هي تكيُّف العلاقات الداخلية مع الخارجية».

بغض النظر عن المواضع غير الدقيقة والمتكررة التي تمتلئ بها هذه التعريفات، لكن جوهرها واحد، من حيث إنها جميعًا لا ترتكز على ما يفهمه الناس جميعًا بلا جدال بكلمة «الحياة»، بل على عمليات مقترنة بالحياة وظواهر أخرى.

تقترب معظم هذه التعريفات من عملية تشكُّل البلور، حيث يتخمر بعضه وينحل البعض الآخر، كما أن جميع هذه التعريفات تلائم كل خلية مفردة في جسدي، حيث إنه ليس ثمة خير أو شر بالنسبة لهذه الخلايا. تُطلَق على بعض العمليات التي تحدث في البلور والبروتوبلازما ونواة البروتوبلازما وخلايا جسدي وخلايا أخرى، هذه التسمية التي ترتبط في داخلي ارتباطًا وثيقًا بالسعي إلى خيري.

التفكير في بعض شروط الحياة باعتبارها الحياة ذاتها يماثل أن نفكر في النهر باعتباره هو المطحنة ذاتها. قد تكون مثل هذه الأفكار ضرورية جدًّا لهدف ما، لكنها لا تتعلق بالموضوع المراد مناقشته، لذلك فإن كافة الاستنتاجات عن الحياة المُستمَدة من هذه الأفكار لا يمكن ألا تكون زائفة.

كلمة «الحياة» قصيرة للغاية وناصعة الوضوح، وجميعنا يفهم المقصود

(1) بالفرنسية في الأصل.

بها، لكن لهذا السبب تحديدًا؛ أي لأن الجميع يفهمون المقصود بها، يتوجب علينا أن نستخدمها دائمًا بهذا المعنى المفهوم للجميع. إن سبب فهم الجميع لهذه الكلمة لا يتعلق بأنها تُعرَّف بكلمات ومفاهيم أخرى دقيقة، بل على النقيض، لأن هذه الكلمة تعني مفهومًا أساسيًّا تخرج منه مفاهيم أخرى كثيرة؛ إن لم تكن جميعها. لذلك إذا أردنا أن نستمد بعض الاستنتاجات من هذا المفهوم، يتوجب علينا قبل أي شيء آخر أن نُسلِّم بهذا المفهوم بمعناه الرئيس الذي لا جدال فيه بالنسبة للجميع. يبدو لي أن ذلك قد تم التغاضي عنه من الأطراف المتجادلة حول مفهوم الحياة. ما حدث هو أن مفهوم الحياة الرئيس الذي لم يؤخذ من البداية بمعناه الأساسي، صار يبتعد أكثر فأكثر عن معناه الأساسي المعترف به من الجميع بفعل المجادلات، حتى فقد في النهاية معناه الرئيس واكتسب معنىً آخر لا يتسق مع معناه. ما حدث إذن هو أن المركز الذي يستندون إليه في وصف الأشكال قد تُرِك وانتقل إلى نقطة جديدة.

إنهم يتجادلون بشأن ما إذا كانت هناك حياة في الخلية أو في البروتوبلازما، أو فيما هو أدنى مثل المادة غير العضوية. لكن قبل أن يتجادلوا بشأن ذلك عليهم أن يسألوا أنفسهم: ألدينا الحق في أن ننسب مفهوم الحياة للخلية؟

نقول مثلًا إن ثمة حياة في الخلية وإن الخلية كائن حي في الوقت الذي يُعتبر فيه المفهوم الأساسي للحياة الإنسانية، ومفهوم تلك الحياة الموجودة في الخلية، مفهومَين ليسا مختلفين تمامًا وحسب، بل لا يمكن حتى الجمع بينهما. الواحد منهما يستبعد الآخر. أكتشف أن جسدي برمته يتألف من خلايا. يقولون لي إن هذه الخلايا تتسم بسمة الحياة

كما هو الأمر معي، وإنها في حد ذاتها تُعتبر كائنات حية مثلي. لكني لا أعترف بنفسي كائنًا حيًّا إلا لأنني أدرك نفسي بكافة الخلايا التي أتألف منها كائنًا واحدًا غير منقسم. يقولون لي إني أتألف برمتي من خلايا حية. لمن أنسب إذن سمة الحياة؛ للخلية أم لنفسي؟ إذا افترضت أن للكائنات حياة في حد ذاتها، فسيتوجب عليَّ أن أتخلى إذن عن فكرة أن السمة الرئيسة لحياتي هي وعيي بنفسي ككائن حي واحد، وإذا افترضت أني أتسم بالحياة ككائن منفصل، فسيكون من الواضح حينها أني لا أستطيع أبدًا أن أنسب هذه السمة إلى الخلايا التي يتألف منها جسدي كله، ووعيها الذي لا أعرف عنه شيئًا.

إما إني حي وفي داخلي أجزاء غير حية تُسمى «خلايا»، أو أن هناك مجموعة من الخلايا الحية، ووعيي بالحياة ليس حياة بل مجرد وهم.

إننا لا نقول هنا إن الخلية تتضمن شيئًا نسميه «كذا»، بل نقول إنها تتضمن «حياة». نقول «حياة» لأننا لا نفهم من تلك الكلمة مجرد عنصر ما، بل نفهم منها أمرًا محددًا تمامًا نعرفه جميعًا معرفة واحدة، كما أننا نعرفه من تلقاء أنفسنا كوعي المرء بوحدة جسده الذي لا ينقسم عنه، ولذلك لا ينطبق هذا المفهوم على الخلايا التي يتألف منها جسدي.

مهما انشغل الإنسان بأبحاث وملاحظات، يتوجب عليه حتى يُعبِّر عن ملاحظاته أن يستخدم كلمة يفهمها بالطريقة ذاتها التي يفهمها الناس جميعًا بلا أي جدال، ولا يستخدم مفهومًا ضروريًّا له لكنه لا يتفق تمامًا مع المفهوم الأساسي المعروف للجميع. إذا استخدم كلمة «الحياة» ليشير إلى طبيعة الكيان كله، وفي الآن ذاته يشير بها إلى سمات أخرى تمامًا لكافة الأجزاء التي يتألف منها كيانه، كما هو الحال مع الخلية والحيوان الذي

يتألف من هذه الخلايا، يمكن حينها أن نستخدم كلمات أخرى أيضًا، مثل أن نقول إنه نظرًا لأن كافة الأفكار تتألف من كلمات، والكلمات من حروف، والحروف من خطوط، فهذا يعني إذن أن رسم الخطوط هو أعقد الأفكار، ولذلك يمكننا أن نسمي الخطوط أفكارًا.

على سبيل المثال الظاهرة الأكثر شيوعًا في العالم العلمي هي سماع وقراءة الأفكار المتعلقة بنشأة الحياة عن ألعاب فيزيائية وقوى ميكانيكية.

نعم... يمكننا أن نقول إن أغلب العلماء تقريبًا يتمسكون بهذا الـ... يصعب أن أجد تسمية لذلك... إن الرأي ليس رأيًا، والتناقض ليس تناقضًا، بل بالأحرى دعابات أو ألغاز. يتم تأكيد أن الحياة تنتج من ألعاب فيزيائية وقوى ميكانيكية؛ إنها تلك القوى الفيزيائية التي لا نسميها فيزيائية وميكانيكية إلا بما يناقض مفهوم الحياة.

من الواضح أن الاقتران غير الصحيح لكلمة «الحياة» بمفهوم غريب عنها، يجعلها تزداد ابتعادًا عن معناها الرئيس ومركزها، إلى حد أننا صرنا نفترض وجود كلمة الحياة في موضع هي ليست فيه بحسب رأينا. يماثل ذلك تأكيد وجود كرة أو دائرة مركزها خارج محيطها.

في واقع الأمر، الحياة التي لا يمكنني أن أتصورها إلا كابتعاد عن الشر وتَوجُّه صوب الخير، تجري في ذلك المجال الذي لا أستطيع أن أرى فيه خيرًا أو شرًا. من الواضح أن مركز مفهوم الحياة قد تغير تمامًا. علاوة على ذلك، بتتبعي للأبحاث التي تُجرى بشأن ما يسمونه حياة، أرى أن هذه الأبحاث لا ترتبط تقريبًا بأي مفاهيم معروفة لي. أرى مجموعة كاملة من المفاهيم والكلمات الجديدة التي لها معناها الشرطي في اللغة العلمية، لكن ليس هناك أي شيء عام يربط بينها وبين المفاهيم القائمة.

هذا المفهوم الذي يطرحونه عن الحياة لا يُفهم بالصورة التي يفهم بها الناس جميعًا الحياة، ومن ثَم فإن كل ما يُستنتج منه لا يتفق كذلك مع المفاهيم العادية، بل هي استنتاجات جديدة شرطية تنال مسميات مختلقة تتسق معها.

تبتعد اللغة الإنسانية أكثر فأكثر عن مجال الأبحاث العلمية، وبدلًا من أن تصير الكلمة أداة للتعبير عن أشياء ومفاهيم موجودة، تسود لغة علمية فولابيكية[1] لا تختلف عن اللغة الفولابيكية السائدة إلا باختلاف واحد؛ ألا وهو أن الأخيرة تُعبِّر عن أشياء ومفاهيم حقيقية بمصطلحات عامة، بينما العلمية تُعبِّر بكلمات غير موجودة عن مفاهيم غير موجودة أيضًا.

الكلمة هي الوسيلة الوحيدة للتواصل الفكري، وإذا أردنا أن نحقق هذا التواصل يجب أن نستخدم الكلمة، بحيث يفهم الجميع من كل كلمة المفاهيم ذاتها بصورة دقيقة. إذا أمكن أن يستخدم المرء كل كلمة كما يحلو له، فسيكون من الأفضل حينها لنا ألا نتكلم، ونستخدم لغة الإشارات.

أنا موافق على أن تحديد قوانين العالم، من استنتاجات العقل وحدها دون الاستعانة بالتجربة والملاحظة، هو طريق زائف وغير علمي؛ أي أنه لا يستطيع أن يُقدِّم لنا معنى حقيقيًّا، ولكن ألن يكون الأمر أسوأ إذا درسنا ظواهر العالم بالتجربة والملاحظات، وفي الآن ذاته استرشدنا في هذه التجارب والملاحظات بمفاهيم غير أساسية وعامة للجميع، بل وشرطية أيضًا، تصف نتائج هذه التجارب بكلمات يمكن فهمها بطرق مختلفة؟

---

(1) لغة اخترعها يوهان مارتن شلاير بين عامي 1879 ـ 1880، وهو كاهن كاثوليكي في بادن قال إن الله أخبره في حلم أن يخلق لغة عالمية جديدة.

يمكن حتى لأفضل صيدلية أن تجلب أعظم ضرر إذا لم تكن الملصقات الموجودة على صفوف الأدوية المرصوصة قد تمت بحسب المحتوى بل بما يلائم الصيدلي.

لكن سيُقال لي: لا يحمل العلم على عاتقه مهمة استكشاف الحياة برمتها، بما تتضمنه من إرادة ورغبة في الخير والعالم الروحي، بل يكتفي بالتوصل إلى استنتاجات بشأن الظواهر التي يمكن للبحث فيها أن يخضع للتجربة.

لو كان الأمر هكذا لكان رائعًا وشرعيًّا، لكننا نعرف أن الأمر ليس كذلك على الإطلاق في أذهان علمائنا المعاصرين. إذا كان هناك اعتراف سابق بمفهوم الحياة بمعناه المركزي الذي يفهمه الجميع، ثم اعترفنا بعدها بأن العلم بعد أن نحّى عن هذا المفهوم كافة جوانبه، عدا جانب واحد عرّضه للملاحظة الخارجية، صار يفحص الظواهر من هذا الجانب وحده بمناهج ملائمة لهذا البحث، لكان الأمر رائعًا ومختلفًا تمامًا. لو حدث ذلك لاختلف الموضع الذي يشغله العلم والنتائج التي كنا سنتوصل إليها على أساسه. علينا أن نقول ما هو موجود، ولا نُخفي جهلنا بشيء. ألا نعرف جيدًا أن معظم الباحثين العلميين الخبراء واثقون تمامًا بأنهم لا يدرسون أحد جوانب الحياة وحسب، بل الحياة برمتها؟

يُطوِّر علم الفلك والميكانيكا والفيزياء والكيمياء وكافة العلوم الأخرى معًا، وكل علم على حدة، الجانبَ الخاضع له من جوانب الحياة، دون التوصل إلى أي نتيجة عن الحياة بوجه عام. كل ما حدث هو أنه عندما كانت تلك العلوم في مرحلة أولية؛ أي عندما كان عدم الوضوح يكتنفها، حاول بعضها أن يحيط بكافة ظواهر الحياة من وجهة نظره؛ فجلبت

الارتباك لنفسها عندما اخترعت مفاهيم وكلمات جديدة. هذا ما حدث مع علم الفلك عندما كان تنجيمًا، وهذا ما حدث مع الكيمياء عندما كانت «خيمياء[1]». هذا ما يحدث الآن أيضًا مع ذلك العلم التجريبي التطوري الذي يفحص جانبًا واحدًا فقط من الحياة أو مجموعة من جوانبها، مؤكدًا أنه يدرس الحياة برمتها. في ظل هذه النظرة الزائفة إلى العلوم لا يريد أحد من الناس أن يعترف بأن أبحاثهم تُخضِع بعض جوانب الحياة لها وحسب، بل يؤكدون أن الحياة برمتها بكافة ظواهرها سوف تكون موضوع أبحاثهم القائمة على التجربة الخارجية. يقولون: «إذا كانت النفس ـ وهم يحبون هذه الكلمة غير المحددة من لغتهم الفولابوكية[2] ـ غير معروفة لنا بعدُ، إلا أنها ستصير معروفة لنا لاحقًا. بدراسة جانب أو بضعة جوانب من الظواهر الحياتية سنعرف كافة الجوانب؛ بتعبير آخر: إذا نظرنا طويلًا وبكد إلى شيء من أحد جوانبه، فسنرى الشيء من كافة جوانبه، بل وحتى من منتصفه».

بالرغم من مدى غرابة هذا التعليم العجيب الذي لا يمكن تفسيره إلا من خلال التعصب الذي تبعثه الخرافة، فإنه مستمر، وكما هو الأمر مع كل تعليم خرافي فج، فإنه ينتج تأثيرًا مميتًا، موجِّهًا نشاط الفكر الإنساني صوب طريق زائف وبطَّال. يهلك الكادحون ذوو الضمائر الطيبة، مُكرِّسين حياتهم لدراسة أمر لا ضرورة له تقريبًا، وتهلك قوى الناس الجسدية في توجهها صوب اتجاه غير سليم، وتهلك الأجيال الشابة المسترشدة بأكثر الأنشطة بطالة كنشاط كيفا موكيفيتش، متصورين أنهم يقدمون به خدمة سامية للإنسانية.

---

(1) نوع قديم من علم الكيمياء حاول أصحابه تحويل المعادن إلى ذهب.
(2) شرحنا معنى الكلمة سابقًا، وهو يقصد هنا كلمة مصطنعة لا تشير إلى معنى حقيقي.

يُقال عادة: «يدرس العلم الحياة من كافة جوانبها»، لكن حقيقة الأمر أن لكل شيء جوانب عديدة، مثلما أن لكل دائرة أنصاف أقطار لا تُحصى، ومن المستحيل دراسة هذه الجوانب كلّها، بل علينا أن نعرف أي الجوانب هي الأهم والأكثر ضرورة لنا، وأي الجوانب أقل أهمية وضرورة لنا. كما يستحيل الاقتراب من شيء من كافة جوانبه في وقت واحد، كذلك تستحيل دراسة ظواهر الحياة من كافة جوانبها. شئنا أم أبينا سيحدث تسلسل ما. يتلخص الأمر كله في ذلك، حيث إن هذا التسلسل هو ما يقدم لنا فرصة لفهم الحياة.

وحده الفهم الصحيح للحياة هو ما يمنح العلم بوجه عام المعنى والاتجاه الضروريين، كما يمنحهما لكل علم على وجه الخصوص، مُصنِّفًا العلوم بحسب أهميتها للحياة. إذا لم نفهم الحياة بالمعنى المزروع بداخلنا جميعًا، فإن العلم ذاته سيكون زائفًا.

ليس ما ندعوه علمًا هو ما يُحدِّد الحياة، بل مفهومنا عن الحياة هو ما يُحدِّد ما يجب أن نسميه علمًا. لذلك إذا أردنا أن يكون العلم حقيقيًّا فعلًا، فلا بد أولًا أن تُحسم مسألة ما هو علم فعلًا وما هو ليس بعلم، ويتطلب ذلك أن نستجلي مفهوم الحياة.

سأوضح فكرتي كاملة بصراحة: إننا جميعًا نعرف العقيدة الأساسية لهذا العلم التجريبي الزائف.

ثمة مادة وطاقة. تتحرك الطاقة، تنتقل الحركة الميكانيكية إلى حركة الجزيئات، ويُعبَّر عن حركة الجزيئات بالنشاط الحراري والكهربائي والعصبي والدماغي. وتُفسَّر كافة ظواهر الحياة بلا استثناء بعلاقات الطاقة.

كل هذا جميل وبسيط وواضح وملائم؛ فإذا لم يكن هناك وجود لكل ما نرغب فيه بشدة، وما من شأنه أن يُبسِّط حياتنا برمتها، فلا بد حينها أن نختلقه.

سأتجرأ على توضيح فكرتي بصورة أكبر: يعتمد القطاع الأكبر من الطاقة المبذولة في نشاط العلم التجريبي على الرغبة في اختلاق كل ما هو لازم لتأكيد تصور ملائم.

بوسع المرء أن يرى في مجمل نشاط هذا العلم رغبة في بحث ظواهر الحياة بصورة تؤكد صحة عقيدته الأساسية. كم حجم الجهود التي بُذِلت من أجل إثبات أن أصل النشاط العضوي يعود إلى نشاط غير عضوي، وأن أصل العمليات النفسية يعود إلى عمليات عضوية؟! لكن ما هو عضوي لا يتحول إلى غير عضوي. دعونا نبحث إذن في قاع البحار، وسنجد شيئًا نسميه نواة أو جوهرًا!

إنه غير موجود هناك لكننا نؤمن بأننا سنجده، وعلاوة على ذلك لدينا عدد لا نهائي من القرون يمكننا أن نجد فيه كل ما يوافق إيماننا، لكنه ليس صحيحًا في الواقع.

كذلك هو الأمر مع الانتقال من النشاط العضوي إلى النفسي. ألم نصل إليه بعد؟ لكننا نؤمن بأنه موجود، ونُكرِّس كافة جهودنا لإثبات إمكانية ذلك.

تتمثل المجادلات بشأن ما لا يتعلق بالحياة تحديدًا في الجدال بشأن مصدر الحياة: هل يعود الأمر إلى مذهب الإحيائية[1] أم الحيوية[2] أم يعود

---

(1) الإحيائية بمعنى «الروح، حياة» من اللاتينية هي الاعتقاد بوجود الأرواح وأن أي نظام حي أو كائن أو حتى المواد الجامدة تمتلك نوعًا من الروح، مثل الحجارة والنباتات، وكذلك في الظواهر الطبيعية، مثل الرعد، وحتى بداخل المعالم الجغرافية كالجبال والأنهار.

(2) المذهب الحيوي هو الاعتقاد بأن «الكائنات الحية تختلف اختلافًا جوهريًا عن

إلى قوة أخرى لا نعرفها بعدُ، أما السؤال الرئيس للحياة؛ أي السؤال الذي في غيابه يفقد مفهوم الحياة معناه تمامًا، فقد أفضى به رجال العلم الذين يجب أن يكونوا مرشدين للجميع إلى ذلك الموقف الذي يجد الإنسان فيه نفسه حينما يسير مسرعًا، لكنه ينسى إلى أين هو ذاهب بالضبط.

لكن هل أحاول متعمدًا ألا أرى النتائج الهائلة التي منحنا إياها العلم من السير في هذا الاتجاه؟ لا توجد أي نتائج يمكنها أن تُصحِّح توجهًا زائفًا. فلنفترض افتراضًا مستحيلًا مفاده أن كل ما يود أن يعرفه العلم عن الحياة ويود تأكيده سيتوصل إليه، بالرغم من أن العلم ذاته لا يؤمن بذلك. فلنفترض أن كل شيء قد بان، وأن كل شيء قد صار واضحًا وضوح الشمس؛ صار واضحًا كيف يتم إنتاج مادة عضوية من مادة غير عضوية، وكيف تتحول الطاقة الفيزيائية إلى مشاعر وإرادة وأفكار، ولم يعد كل ذلك واضحًا لطلاب مدارس الجيمنازيا[1] وحسب، بل حتى لطلبة المدارس القروية.

صرت أعرف كيف أن هذه الأفكار والمشاعر تنتج عن هذه الحركات. حسنًا، وماذا بعد؟ هل يمكنني حينها أن أسترشد بهذه الحركات لأستثير في داخلي أفكارًا معينة أو غيرها أم لا؟ لا يقتصر الأمر على أن التساؤل عن كيف يمكنني أن أستثير في داخلي وفي داخل الآخرين أفكارًا ومشاعر غير محسوم، بل لم يتم حتى الاقتراب منه.

الكيانات غير الحية، لأنها تحتوي على بعض العناصر غير المادية، أو تكون محكومة بمبادئ مختلفة عن الأشياء الجامدة».

(1) نوع من المدارس بروسيا، كان الطلبة يدرسون فيه اللاتينية والتاريخ وبعض المواد الأخرى.

أعرف أن رجال العلم لن يجدوا صعوبة في الإجابة عن هذا السؤال. تبدو لهم الإجابة عن ذلك السؤال بسيطة للغاية، كما تبدو دائمًا الإجابة عن سؤال صعب بسيطة لمن لا يفهمه. تبدو الإجابة عن التساؤل بشأن كيف يجب أن ندير أمور الحياة عندما تكون مقاليد الأمور بين أيدينا بسيطة للغاية بالنسبة لرجال العلم. يقولون: يجب أن ندير الأمر بحيث يستطيع الناس أن يُشبعوا احتياجاتهم، والعلم سوف يُطوِّر الوسائل اللازمة لتحقيق ذلك. أولًا: سيُطوِّر الوسائل اللازمة لتحقيق التوزيع الصحيح بهدف تلبية الاحتياجات. ثانيًا: سيُطوِّر العلم الوسائل التي تتيح إنتاجًا ضخمًا وسهلًا بحيث يسهل إشباع كافة الاحتياجات، وحينها سيصير الناس سعداء.

وإذا سأل أحدهم: «وما هو الاحتياج، وما هي حدوده؟». يجيبونه أيضًا ببساطة: «العلم... العلم هو ما يُقسِّم الاحتياجات إلى مادية وعقلية وجمالية، بل وحتى أخلاقية، ويُحدِّد أيضًا بوضوح الاحتياجات ومدى شرعيتها وعدم شرعيتها. سيُحدِّد العلم ذلك بمرور الوقت».

وإذا تساءل أحدهم عما يمكن أن نسترشد به في تحديد ما هو شرعي وما هو غير شرعي، يجيبونه بجرأة: «دراسة الاحتياجات». لكن كلمة «احتياجات» ليس لها سوى معنيَين: الأول هو شرط للوجود، لكن هناك عددًا لا نهائياً لشروط وجود كل شيء، ولذلك لا يمكننا أن ندرس كافة شروط الوجود. المعنى الثاني هو السعي إلى تحقيق خير الكائن الحي الذي لا يعرفه ولا يدركه إلا بالوعي، ولذلك يظل العلم التجريبي حيال ذلك أقل قدرة على الدراسة.

ثمة مؤسسة ما أو هيئة أو جماعة أو مجموعة من العقول لا تخطئ، تُسمَّى «العلم»، وسوف تتمكن من تحديد كل ذلك بمرور الزمن.

أليس واضحًا بعد أن الإجابة عن هذا السؤال هي إعادة تمثيل لمملكة المسيا[1] يلعب فيها العلم دور المسيا؟ يستلزم قبول هذا التفسير الإيمان بعقائد العلم إيمانًا أعمى، كإيمان اليهود بالمسيا. الفرق بينهما هو أن المؤمنين بالمسيا يرون فيه رسولًا من الله، وبذلك يكون بوسعهم أن يؤمنوا بأنه سيدبر كل شيء بصورة مثالية من واقع سلطته، بينما يستحيل على المؤمنين بالعلم بطبيعة الحال أن يؤمنوا بإمكانية الإجابة عن السؤال الوحيد والرئيس عن الحياة بواسطة دراسة خارجية للاحتياجات.



(1) المسيا في الإيمان اليهودي هو إنسان مثالي من نسل الملك داود، يبشر بنهاية العالم ويخلص الشعب اليهودي من ويلاته.

الفصل الأول

التناقض الرئيس في الحياة الإنسانية

لا يعيش أي إنسان إلا ليكون سعيدًا وبخير. إن لم يعد أحدهم يشعر برغبة في تحقيق خيره لا يشعر بأنه حي. لا يمكن للإنسان أن يتصور الحياة دون أن يرغب في تحقيق خيره. العيش بالنسبة لأي إنسان يعني الرغبة في تحقيق خيره، والرغبة في تحقيق خيره تعني العيش.

لا يشعر الإنسان بالحياة إلا في داخله؛ في داخل شخصيته، ولذلك يتصور الإنسان في البداية أن الخير الذي يريده هو خير شخصه وحسب. يبدو له في البداية أنه هو وحده من يعيش فعلًا. لا تبدو له حياة الآخرين كحياته على الإطلاق، بل تبدو له مجرد شيء يشبه الحياة. إنه يلاحظ حياة الآخرين وحسب، ومن واقع ملاحظته يعرف أنهم يعيشون. يعرف الإنسان عن حياة الآخرين عندما يود أن يفكر فيهم، لكنه يعرف أنه لا يستطيع أن يتوقف ولو لثانية واحدة عن معرفة أنه حي، ولذلك يبدو لكل إنسان أن حياته وحدها هي الحياة الحقيقية. تبدو له حياة الكائنات المحيطة به مجرد أحد شروط وجوده. إذا لم يُرد أن يَلحق الشر بالآخرين، فالسبب الوحيد لذلك هو أن رؤيته لمعاناة الآخرين تُزعجه. إذا أراد الخير للآخرين، فهو لا يريده لهم أبدًا ليكونوا سعداء، بل لمجرد أن خير الآخرين يزيد خير حياته.

الأمر الوحيد المهم والضروري له هو خير تلك الحياة التي يشعر بأنها له؛ أي خيره الشخصي.

وهكذا في سعيه إلى تحقيق خيره، يلاحظ الإنسان أن هذا الخير يعتمد على الآخرين. وعندما يلاحظ ويتأمل هذه الكائنات الأخرى يرى أنها جميعًا؛ بشرًا وحتى حيوانات، تتسم بالتصور ذاته عن الحياة الذي لديه. كل من هذه الكائنات يشعر ـ مثله تمامًا ـ بحياته وبخيره وحسب، ويعتبر أن حياته وحدها هي المهمة والحقيقية، وأن حياة كافة الكائنات الأخرى مجرد وسيلة لتحقيق خيره. يرى الإنسان أن كل كائن حي لا بد أن يكون مستعدًّا مثله تمامًا أن يحرم الكائنات الأخرى من خير كبير، أو حتى من حياتهم نفسها في سبيل تحقيق خير صغير له، وبالتالي ينطبق الأمر ذاته عليه. عندما يدرك الإنسان ذلك يجد نفسه يأخذ في اعتباره تلقائيًا أنه إذا كان الأمر كذلك، وهو يعلم جيدًا أن الأمر كذلك فعلًا، فإن الأمر لا يتوقف على أن مخلوقًا واحدًا أو دستة من المخلوقات مستعدة في كل لحظة لتدميره؛ هو من يرى الحياة موجودة من أجله وحده، من أجل تحقيق أهدافه، بل إن الأمر يشمل عددًا لا نهائيًا من المخلوقات. وعندما يدرك ذلك يرى الإنسان أن الأمر لا يقتصر على أنه يرى صعوبة تحقيق خيره الشخصي الذي يعتبره الحياة برمتها، بل إنه يدرك أنه سوف يُنتزع منه لا محالة.

كلما طالت حياة الإنسان، تأكدت فيه تلك الأفكار بقوة التجربة، ورأى أن حياة العالم الذي يشارك فيه والمؤلَّفة من شخصيات مرتبطة بعضها ببعض، تريد كل منها أن تبيد الأخرى وتفترسها، لا يمكن أن تكون خيرًا له، ليس ذلك وحسب، بل يراها لا محالة شرًّا عظيمًا.

لكن علاوة على ذلك، حتى إذا وجد الإنسان الظروف مؤاتية له بحيث يستطيع أن يصارع الآخرين بنجاح دون أن يخشى على نفسه، سرعان ما يكشف له العقل والتجربة أنه حتى هذه الأمور التي يقتنصها من الحياة، وتبدو له خيرات في صورة ملذات شخصية، ليست كذلك في حقيقة الأمر، بل تبدو كما لو كانت مجرد عينات من الخير لم تُمنح إليه إلا ليشعر بالاقتران الدائم للمعاناة بالمتع. كلما طالت حياة الإنسان، ازدادت رؤيته وضوحًا لفكرة أن كافة المتع تصير أقل فأقل، بينما يزداد الملل والتخمة والعمل والمعاناة. لكن علاوة على ذلك أيضًا يبدأ في اختبار ضعف قواه ويتعرض للأمراض، وينظر إلى المرض والشيخوخة والموت يصيبون الآخرين؛ فيلاحظ أن وجوده ذاته الذي يشعر بأنه الوجود الوحيد الحقيقي المليء بالحياة، يُقرِّبه كل ساعة وكل حركة من الضعف والشيخوخة والموت، حتى يرى أنه بالإضافة إلى تعرض حياته لآلاف الحوادث التي يمكن أن تدمرها من قِبل الآخرين، فإنه في حد ذاته ليس سوى اقتراب متواصل من الموت؛ اقتراب متواصل من تلك الحالة التي يجد فيها دمارًا مؤكدًا لكل فرصة يمكن أن تعود عليه بالخير الشخصي بدلًا من الحياة الشخصية. يرى الإنسان أن كل ما تفعله شخصيته التي يشعر فيها وحدها بالحياة، هو أنها تنازع من تستحيل عليها منازعتهم؛ إنها تنازع العالم برمته، وتبحث عن المتعة ولا تنال سوى ما يشبه المتع، وينتهي أمرها دائمًا بالمعاناة، كما أنها تريد أن تُبقي على حياة لا يمكنها الإبقاء عليها. يرى الإنسان أن شخصيته ذاتها التي يريد لها وحدها الخير والحياة لا يمكنها أن تحوز أي خير أو حياة، وأن ما يريد أن يحوزه، أي الخير والحياة، لا يتحقق إلا لكائنات غريبة عنه

لا يشعر بها ولا يمكنه أن يشعر بها، ولا يعرف عن وجودها، ولا يريد أن يعترف بوجودها، بل ولا يستطيع أن يفعل ذلك.

يبدو له أن ما يُشكل بالنسبة له أهم شيء، والأمر الوحيد الضروري له؛ أي نفسه التي تعيش وحدها حياة حقيقية، يلحق بها الموت وتصير عظامًا ودودًا، ولا تعود نفسه، أما ما لا يهمه وما هو غير ضروري له، وما لا يشعر بأنه حي فعلًا؛ أي كل ذلك العالم من الكائنات المتنازعة والمتعاقبة، هو الحياة الحقيقية، وسيبقى ويستمر في العيش إلى الأبد. وهكذا تبدو الحياة الوحيدة التي يشعر بها الإنسان، والتي يُكرِّس لها كل نشاطه شيئًا خادعًا وغير ممكن، بينما الحياة الموجودة خارج كيانه، والتي يلاحظها ولا يشعر بها ولا تثير اهتمامه هي الحياة الوحيدة الحقيقية.

ما لا يشعر به هو وحده، ما يتسم بهذه السمة التي أراد أن يتسم بها. ليست هذه مجرد أفكار تخطر على بال الإنسان عندما يمر بلحظات سيئة تتعلق بحالة مزاجية كئيبة، وليس ذلك مجرد تصور لا يمكن أن يصل إليه، بل على النقيض؛ إنها حقيقة واضحة لا لبس فيها، حتى إنه إذا خطرت هذه الفكرة مرة على بال إنسان، أو شرحها له آخرون، لن تفارقه أبدًا ولن يمكن لشيء أن يخمدها في وعيه.

الفصل الثاني

أدركت الإنسانية تناقض الحياة منذ أقدم الأزمنة. كشف مُنوِّرو الإنسانية للناس تعريفَ الحياة الذي يحل مشكلة هذا التناقض، لكن الفريسيين والكتبة[1] يخفونه عن الناس

الخير الشخصي هو هدف الحياة الأول الذي لاح للإنسان، لكنه غير ممكن التحقق، وحتى إذا كان هناك ما يشبه الخير، فإن الحياة التي يمكن فيها وحدها لهذا الخير أن يتحقق؛ أي الحياة الشخصية، تقترب لا محالة مع كل حركة ونَفَس من المعاناة والشر والموت والفناء.

هذا الأمر شديد الوضوح حتى إن كل إنسان مفكر، سواء كان شابًّا أم شيخًا، مثقفًا أم غير مثقف، يدركه. هذا التفكير شديد البساطة والتلقائية

(1) فئتان من رجال الدين اليهود تعرضتا لهجوم شديد من المسيح بحسب الأناجيل، بسبب ريائهما وديانتهما الزائفة وتضليل الناس. هناك اختلافات دينية أيضًا بين الفئتين فيما يتعلق بالإيمان بالحياة الأخرى والأسفار المقدسة وموضوعات خلافية أخرى. الاستشهاد المتكرر في الكتاب بالكتبة والفريسيين لا يشير إلى الفئتين اليهوديتين، لكن شاع في الثقافة المسيحية إطلاق كلمة فريسي على أي إنسان مُراءٍ، وبالتالي هو مجرد تشبيه.

حتى إنه يتضح لكل إنسان عاقل، كما أن الإنسانية عرفته منذ أقدم الأزمنة.

«حياة الإنسان كشخص يسعى صوب خيره وحسب، وسطَ عدد لا نهائي من الشخصيات التي تدمر بعضها بعضًا، وتدمر نفسها أيضًا، هي شر وجنون، ولا يمكن أن تكون الحياة الحقيقية على هذه الصورة». منذ أقدم الأزمنة قال أحد الناس ذلك لنفسه، وعبَّر الحكماء الهنود والصينيون والمصريون واليونانيون واليهود عن ذلك التناقض في حياة الإنسان بقوة غير عادية ووضوح، وقد تَوجَّه عقل الإنسان منذ أقدم الأزمنة إلى الوعي بالخير الذي لا يمكن أن يقضي عليه الصراع المستعر بين الكائنات، بالإضافة إلى الألم والموت. تتوجه الحركة التي تُعبِّر عن تقدم الإنسانية منذ أن عرفنا الحياة وحتى الآن، عبر الفهم المتزايد أكثر فأكثر نحو خير الإنسان الذي لا يمكن للصراع وصنوف المعاناة والموت أن يقضوا عليه.

منذ أقدم الأزمنة، وفي مختلف الشعوب، يكشف معلمو البشرية العظماء للناس تعريفات أوضح فأوضح للحياة، تحل مشكلة تناقضها الداخلي، وقد أشاروا لهم إلى الخير الحقيقي والحياة الحقيقية الملائمَين لهم. ونظرًا لأن وضع الناس جميعًا في العالم واحد، وأن التناقض بالنسبة لكل إنسان بين سعيه إلى خيره الشخصي ووعيه باستحالة تحقيق ذلك واحد، فإن كافة تعريفات الخير الحقيقي واحدة، ومن ثَم فإن هناك حياة واحدة حقيقية انكشفت لأعظم العقول البشرية.

قال كونفوشيوس منذ 600 عام قبل الميلاد: «الحياة هي انتشار النور الذي نزل إلى الناس من السماء».

قال البراهما في الزمن ذاته: «الحياة هي تجوال الأنفس وتعزيزها

لتحقق الخير أكثر فأكثر». قال بوذا المعاصر لكونفوشيوس: «الحياة هي إنكار النفس للوصول إلى النيرفانا المباركة». قال لاو تزو المعاصر لكونفوشيوس أيضًا: «الحياة هي طريق التواضع والانسحاق لتحقيق الخير». تقول حكمة يهودية: «الحياة هي نفخة الله في أنف الإنسان ليُنفِّذ قانونه وينال خيره». قال الرواقيون: «الحياة هي الخضوع للعقل الذي يمنح الإنسان خيره». قال المسيح مُضمنًا في تعريفه كافة التعريفات السابقة: «الحياة هي محبة الله والقريب التي تحقق لنا خيرنا».

تحل هذه التعريفات لمفهوم الحياة التي أشارت للناس منذ آلاف السنين إلى الخير الحقيقي الذي لا يزول، بدلًا من الآخر الزائف وغير الممكن، مشكلةَ التناقض البادي في الحياة الإنسانية، وتمنحها معنى عقليًّا. قد لا نتفق مع هذه التعريفات، وبوسعنا أن نفترض أن بالإمكان التعبير عن هذه التعريفات بصورة أدق وأوضح، ولكن يستحيل ألا نرى أن هذه التعريفات والاعتراف بها يحل التناقض البادي في الحياة، وأنها تستبدل بالسعي إلى الخير الشخصي الذي لا يمكن تحقيقه سعيًا آخر صوب الخير، لا يمكن للمعاناة والموت أن يقضيا عليه، ومن ثَم تمنح الحياة مغزى عقليًّا. يستحيل ألا نرى أن هذه التعريفات سليمة نظريًّا، وتؤكدها التجربة الحياتية، وأن ملايين وملايين من الناس قد اعترفوا ـ وما زالوا ـ بها، ومن ثَم فهي تكشف إمكانية استبدال السعي إلى الخير الذي تقضي عليه المعاناة أو الموت بالسعي صوب الخير الشخصي[1].

لكن علاوة على هؤلاء الناس الذين فهموا تعريف الحياة، وما زالوا يفهمونه؛ التعريف الذي كشفه مُنوِّرو البشرية العظماء للناس، وعاشوا به،

(1) فلنلاحظ أن الباء بعد «استبدل» تُلحق بالمتروك (المترجم).

كانت هناك مجموعة كبيرة من الناس ـ ولا تزال الغالبية العظمى كذلك ـ عاشت ـ وما زالت ـ أحيانًا في فترة معينة من الحياة، وأحيانًا طوال حياتها حياة حيوانية، ولم يقتصر الأمر على أن هؤلاء الناس لم يفهموا هذه التعريفات التي تحل تناقض الحياة الإنسانية، بل إنهم لم يروا حتى أي تناقض في الحياة الإنسانية يحتاج إلى حل. كانت هناك دائمًا ـ وما زالت موجودة ـ مجموعة أخرى وسط هؤلاء الناس يعتبرون أنفسهم مدعوين إثر وضعهم المادي الاستثنائي لقيادة البشرية وأنفسهم، دون أن يفهموا معنى الحياة الإنسانية، وعلَّموا ـ ولا يزالون يعلمون ـ الآخرين الحياة التي لا يفهمونها، متمثلة في المفهوم الذي مفاده أن الحياة الإنسانية ليست سوى الوجود الشخصي.

يظهر هؤلاء المعلمون الكذبة في كافة الأزمنة وفي زمننا. بعضهم يعترف ظاهريًا بتعاليم منوِّري البشرية طبقًا للخرافات التي تربوا عليها، ولكن نظرًا لأنهم لا يفهمون مغزاها العقلي، فإنهم يُحوِّلون هذه التعاليم إلى رؤى خارقة للطبيعة، متعلقة بالحياة الماضية والمستقبلية، ولا يطلبون من الناس سوى تنفيذ الطقوس. هذا هو تعليم الفريسيين بمعناه الواسع؛ أي الذين يُعلِّمون أن الحياة غير المنطقية في حد ذاتها يمكن أن ينصلح حالها بالإيمان بحياة أخرى يكتسبها الناس بتنفيذ مجموعة من الطقوس المادية.

آخرون لم يعترفوا بإمكانية وجود أي حياة أخرى عدا المرئية، ومن ثَم أنكروا كافة أنواع المعجزات وكافة القوى الفائقة للطبيعة، وأكدوا بجرأة أن حياة الإنسان ليست سوى الوجود الحيواني، من لحظة الولادة وحتى الموت. هذا هو تعليم الكتبة؛ أي الذين يُعلِّمون بأنه ليس هناك ما هو غير

معقول في حياة الإنسان ككيان حيواني.

هؤلاء وأولئك معلمون كذبة، وبالرغم من أن تعاليم الفرقتين مؤسسة على أساس واحد من عدم الفهم الفج لتناقض الحياة الإنسانية الرئيس، فإنهما عادتا بعضهما بعضًا، ولا تزالان متعاديتين. كلا التعليمين يسودان عالمنا، يعاديان بعضهما بعضًا، ويملآن العالم بجدالاتهما التي تحجب عن الناس تعريفات الحياة التي تكشف لهم الطريق صوب خيرهم الحقيقي؛ الأمر الذي وُهب للإنسانية بالفعل منذ آلاف الأعوام.

نظرًا لأن الفريسيين لم يفهموا تعريف الحياة السالف الذي منحه المعلمون للناس في التقاليد التي نشأ عليها الفريسيون أنفسهم، فإنهم يستبدلون به تعليمهم الزائف عن الحياة المستقبلية، وفي الآن ذاته يحاولون إخفاء تعريفات الحياة التي يقدمها المُنوِّرون عن الناس، مُقدِّمين لتلاميذهم هذه التعاليم في أشد صورها فجاجة وبأقصى درجات التحريف، مفترضين أنهم بذلك يُدعِّمون السمعة الاستثنائية لهذا التعليم الذي يؤسسون عليه تفسيراتهم.

أما الكتبة، ودون حتى أن يساورهم الشك في حقيقة الأسس العقلية التي أسس عليها الفريسيون تعاليمهم، يرفضون أي تعاليم عن الحياة الأخرى، ويؤكدون بجرأة أن هذه التعاليم كافة ليس لها أي أساس، بل هي مجرد بقايا جهل فج، وأن حركة تقدم الإنسانية تتمثل في ألا يُوجِّه الناس أي أسئلة عن الحياة تتجاوز الإطار الحيواني للوجود الإنساني.

الفصل الثالث

أوهام الكتبة

أمر مدهش حقًّا! من المدهش أن كافة تعاليم العقول الإنسانية العظيمة قد أذهلت الناس بمدى عظمتها، حتى إن الجهلة عزوا إلى القطاع الأكبر منها سمة خارقة واعتبروا مؤسسيها أنصاف آلهة، وهذا في حد ذاته دلالة واضحة على عظمة هذه التعاليم. يظن الكتبة أن هذا الأمر في حد ذاته يُقدِّم أفضل دليل على خطأ وضعف هذه التعاليم. إنهم يعتبرون حقيقة أن التعاليم التافهة لأرسطو وبيكون وكونت وآخرين قد استمرت إلى الآن، وظلت موجودة دائمًا بين عدد صغير من القراء والمعجبين، وعدم قدرتها على التأثير على الجموع، بسبب زيفها، وبالتالي عدم تعرضها للتحريف بتحويلها إلى خرافات، وعدم نموها؛ الأمر الذي يشير في الحقيقة إلى عدم أهميتها، دليلًا على حقيقتها. أما تعاليم البراهما وبوذا وزرادشت ولاو تزو وكونفوشيوس وأشعياء والمسيح، فتُعتبر خرافات وأوهام لمجرد أنها غيَّرت حياة الملايين.

لا تزعجهم على الإطلاق حقيقة أنه طبقًا لهذه الخرافات عاشت ـ وما زالت ـ الملايين، وأنها تُقدِّم للناس إجابات ـ حتى ولو بصورة مُحرَّفة ـ عن أسئلة تتعلق بخير الحياة الحقيقي، وحقيقة أن هذه التعاليم منتشرة، بل

وتعتبر أساس تفكير أفضل البشر على مر العصور، وحقيقة أن النظريات التي يعترف بها الكتبة غير منتشرة إلا داخل أوساطهم، وأنها تتنازع فيما بينها وفي أحيان كثيرة لا تستمر لعشرات القرون.

لا شيء بوسعه أن يُعبِّر بمزيد من الوضوح عن التوجه المعرفي الزائف الذي يتبعه المجتمع المعاصر، مثل الموضع الذي تشغله تعاليم المعلمين العظماء عن الحياة في هذا المجتمع؛ التعاليم التي عاشت الإنسانية وفقًا لها ونشأت عليها، واستمرت في العيش بموجبها. تُظهر الدوريات في الأقسام المتعلقة بالإحصائيات أن الأديان التي يعتنقها سكان الأرض الآن تُقدَّر بألف ديانة. نجد وسط هذه الديانات: الديانة البوذية، والبراهمانية، والكونفوشيوسية، والطاوية، والمسيحية. ألف ديانة ويؤمن معاصرونا بإخلاص بأنها جميعًا محض هراء، وبأنه ليس هناك أي داعٍ لدراستها! يعتبر معاصرونا أنه من المثير للخزي ألا يكون المرء مُطَّلعًا على آخر حِكَم سبنسر وهلموهولتز[1] وآخرين، أما البراهمة وبوذا وكونفوشيوس ومين تسي[2] ولاو تزو وإبيكتيتوس وأشعياء؛ فأحيانًا يعرفون هذه الأسماء وأحيانًا أخرى لا يعرفونها. لم يخطر ببالهم أن الأديان المعترف بها في زماننا ليست ألف ديانة، بل هي ثلاثة وحسب: الصينية والهندية والمسيحية اليهودية (حيث إن الإسلام فرع منها) وأن الكتب التي تتضمن تعاليم هذه الأديان يمكن شراؤها بخمسة روبلات، كما يمكنهم أن يطَّلعوا عليها في أسبوعين، ولم يخطر ببالهم أن هذه الكتب التي عاشت الإنسانية وفقًا لها ـ

(1) فيزيائي وطبيب ألماني قدَّم مساهمات كبيرة في العديد من المجالات العلمية.
(2) مين تسي أو منسيوس، فيلسوف صيني كونفوشي يُوصَف بأنه «الحكيم الثاني» بعد المعلم الأول كونفوشيوس.

ولا تزال ـ باستثناء 0.07 لا نعرفهم تقريبًا، تتضمن حكمة الإنسانية برمتها، وكل ما جعل البشرية تصل إلى ما وصلت إليه الآن. لكن علاوة على أن العامة لا يعرفون هذه التعاليم؛ فالعلماء أنفسهم لا يعرفونها إلا إذا اندرجت تحت تخصصهم، لا يرى حتى الفلاسفة ضرورة للنظر في هذه الكتب. فما الداعي إلى دراسة هؤلاء الناس الذين حلوا مشكلة التناقض الذي يعي الإنسان وجوده عقليًا في حياته، وحدَّدوا الخير الحقيقي لحياة الناس؟ لم يدرك الكتبة وجود هذا التناقض الذي يُشكِّل أساس الحياة العقلية، ومن ثَم يؤكدون بوقاحة أنه نظرًا لأنهم لا يرون هذا التناقض، فهو ليس له وجود إذن، وحياة الإنسان تقتصر على وجوده الحيواني وحسب.

يدرك المبصرون ما يرونه أمامهم ويُحدِّدونه، بينما يمد الأعمى عصاه أمامه ويؤكد أنه ليس هناك شيء سوى ما تلمسه عصاه.

الفصل الرابع

تستبدل تعاليم الكتبة الظواهر المرئية لوجود الإنسان الحيواني بكامل حياته، وبناء على ذلك تستنتج هدف حياته

«الحياة هي ما يحدث في الكائن الحي منذ ولادته وحتى موته. يُولد إنسان أو كلب أو جواد، ولكل منهم جسده. يعيش هذا الجسد لمدة معينة ثم يموت. يتحلل الجسد ويتحول إلى كائنات أخرى، ولا يعود للكائن السابق وجود. كانت هناك حياة وانتهت. إذا كان القلب ينبض والرئتان تتنفسان الهواء والجسد غير متحلل، فهذا يعني أن الإنسان أو الكلب أو الجواد حي، أما إذا توقف القلب عن النبض، وانتهت الأنفاس، وبدأ الجسد يتحلل، فهذا يعني أنه مات ولم تعد هناك حياة. الحياة هي ما يحدث في جسد الإنسان، تمامًا مثلما هو الأمر مع الحيوان، في زمن معين يمتد من الولادة إلى الموت. ما الذي يمكن أن يكون أوضح مَن ذلك؟». هكذا كانت ـ وستظل دائمًا ـ نظرة أجهل الناس إلى الحياة، الذين لم يتجاوزوا تقريبًا المستوى الحيواني. هكذا أيضًا هو تعليم كتبة عصرنا الذي يدعونه علمًا، حيث يعترف بأن هذا الأكثر بدائية وفجاجة للحياة هو الحقيقة الوحيدة. يريد هذا التعليم الزائف باستغلال كافة أدوات المعرفة

المادية التي توصلت إليها الإنسانية، أن يعيد الناس بصورة منهجية إلى غمام الجهل الذي خرجوا منه بجهد وعمل امتد إلى آلاف السنين.

يقول هذا التعليم إننا لا نستطيع أن نُحدِّد الحياة داخل نطاق وعينا. إننا نضل حينما نتأملها في داخلنا. هذا المفهوم عن الخير، والسعي الذي يُشكِّل حياتنا في وعينا، هو شبح مخادع، ويستحيل أن نفهم الحياة عبر هذا الوعي. كل ما علينا فعله إذا أردنا أن نفهم الحياة هو أن نلاحظ تجليها كحركة للمادة. من هذه الملاحظات والقوانين المستمدة منها يمكننا أن نكتشف قانون الحياة ذاتها، وقانون حياة الإنسان.

بعد أن استَبدل هذا التعليم الزائف بمفهوم حياة الإنسان الشاملة جزءًا معروفًا له في وعيه؛ أي الوجود الحيواني، بدأ في دراسة هذه الظواهر المرئية في نطاق الإنسان الحيواني، ثم في الحيوانات بوجه عام، ثم في النباتات، ثم في المادة، مؤكدًا باستمرار أن ما يُدرس ليس مجرد بضع ظواهر، بل هو الحياة ذاتها. هذه الملاحظات شديدة التعقيد والتنوع والتشابك، حتى إنها تتطلب تبديد كمية كبيرة من الوقت والجهود عليها، إلى درجة أن الناس ينسون شيئًا فشيئًا الخطأ الأصلي المتمثل في اعتبار جزء من الشيء هو الشيء بأكمله، ويصيرون في نهاية الأمر على قناعة كاملة بأن دراسة السمات المرئية للأشياء والنباتات والحيوانات، هي دراسة الحياة ذاتها التي لا يمكن للإنسان في حقيقة الأمر أن يعرفها إلا في وعيه.

يحدث شيء مشابه لما يحدث عندما يعرض شخص شيئًا ما في العتمة، ويرغب في دعم هذا الوهم الذي يقع فيه المشاهدون؛ فيقول: «لا تنظروا إلى أي اتجاه عدا ذلك الاتجاه الذي تظهر فيه الظلال، ولا تنظروا تحديدًا إلى الشيء ذاته؛ إنه غير موجود، وليس ثمة وجود إلا لظله».

هذا بالضبط ما يفعله العلم الزائف لكتبة عصرنا الذين يغمسون فيه الحشود الجاهلة حينما يتأملون الحياة، دون تعريفها الأساسي المتمثل في السعي إلى الخير الذي لا ينكشف للمرء إلا في وعيه. بتنحية هذا التعريف للحياة يبدأ العلم الزائف مباشرة في ملاحظة أهداف الكائنات الحية، ويجد فيها أهدافًا غريبة عن الإنسان، ويفرضها عليه.

في ظل هذه الملاحظة الخارجية يبدو هدف الكائنات الحية هو حماية الشخصية، والحفاظ على النوع والتكاثر والصراع من أجل البقاء، وهذا بعينه هو الهدف المُتخيَّل للحياة الذي يُفرض على الإنسان.

بعد أن يتبنى العلم الزائف تصورًا متخلفًا عن الحياة كنقطة انطلاق له، لا يُشكل التناقض سمته الرئيسة، يتوصل هذا العلم المتوهم في نتائجه الأخيرة إلى ما تطالب به الغالبية الجاهلة من الناس؛ الاعتراف بإمكانية تحقيق الخير الشخصي للمرء وحسب، والاعتراف بخير الوجود الحيواني وحده للإنسان.

بل إن العلم الزائف يتجاوز حتى متطلبات الحشود الجاهلة التي تريد أن تجد تفسيرًا. إنه يصل إلى تأكيد ما يرفضه الوعي العقلي للإنسان منذ أولى لحظات تكوينه؛ يصل إلى نتيجة مفادها أن حياة الإنسان، مثل حياة أي حيوان، تتمثل في الصراع من أجل بقاء الشخص والقبيلة والنوع.

الفصل الخامس

لا تُقدِّم العقائد الزائفة للكتبة والفريسيين تفسيرًا لمغزى الحياة الحقيقية ولا أي إرشاد لها. تعتبر قوة القصور الذاتي هي المرشد الوحيد للحياة دون أي تفسير عقلي

«لا شيء يُعرِّف الحياة، فالجميع يعرفونها. هذا كل شيء، لذا دعونا نعيش». هكذا يقول الناس المنغمسون في الوهم المُؤيَّد بالتعاليم الزائفة. ونظرًا لأنهم لا يعرفون الحياة ولا يعرفون خيرها، يظنون أنهم يعيشون كما يمكن أن يبدو الأمر لإنسان يطفو على الأمواج دون اتجاه، ظانًّا أنه يسبح صوب الاتجاه المراد.

يُولد طفل، في حاجة أو ترف، ويتلقى تربية فريسية أو تربية كتبة. بالنسبة لطفل أو شاب لا تظهر بعدُ أي تناقضات في الحياة أو أسئلة عنها، ومن ثَم لا يحتاج إلى تفسير الفريسيين أو الكتبة، ولا يمكن لتفسيراتهما أن تصير مرشدًا له في حياته. إنه يتعلم بطريقة واحدة؛ النموذج الذي يُقدِّمه له الناس من حوله، والمثال الذي يُقدِّمه له الفريسيون والكتبة واحد؛ فكلاهما لا يعيشان إلا لخير الحياة الشخصية، وهذا ما يعظان به.

إذا كان أبواه يعيشان في حاجة، يعرف منهما أن هدف الحياة هو

الحصول على أكبر قدر من الخبز والمال بأقل قدر من العمل، وذلك ليصير الجانب الحيواني من شخصيته في أفضل حال. أما إذا وُلِد في ترف يعرف أن هدف الحياة هو الثراء والمجد حتى يتمكن من قضاء أسعد وأمتع الأوقات.

لا يحتاج الفقير إلى المعارف التي ينالها إلا بقدر ما تُحسِّن رفاهيته الشخصية. كافة المعارف العلمية والفنية التي يُحصِّلها الثري، وبغض النظر عن كافة الكلمات الرفيعة التي تُقال عن أهمية العلم والفنون، غير لازمة له إلا بقدر ما تجعله يتغلب على الملل ويقضي وقتًا لطيفًا. كلما طالت حياة هذا وذاك، ازداد انهماكهما أكثر فأكثر في النظرة السائدة للناس في عالمنا. يتزوجون ويُكوِّنون أسرًا، ويتنامى طمعهم لنيل خيرات الحياة المادية، ويُبرِّرون ذلك بوجود أسرهم، وينهمكون في صراع مع الآخرين، ويزداد القصور الذاتي للحياة (أي العادة) والتعلق بالحياة من أجل الخير الشخصي وحسب، قوةً وصلابة.

إذا ساور الشك الفقير أو الغني حيال عقلانية الحياة، وإذا طرح أي منهما سؤالًا على نفسه عن سبب هذا الصراع الذي بلا هدف من أجل البقاء، والذي سوف يواصله أبناؤه، أو عن سبب هذه الملاحقة الخادعة للمتع، والتي تنتهي بالمعاناة له ولأطفاله، لن تكون هناك تقريبًا أي احتمالية لأن يَعرف تعريفات الحياة التي وهبها المعلمون العظماء للبشرية منذ زمن طويل، عندما وجدوا أنفسهم حينها في الوضع ذاته. تحجب تعاليم الفريسيين والكتبة هذه التعريفات بقوة، إلى درجة أنها نادرًا ما تظهر. يجيب فريق منهم (الفريسيون) عن سؤال: «لماذا الحياة فاجعة؟» قائلين: «الحياة فاجعة وكانت دائمًا كذلك، ولا بد أن تظل كذلك، وخير الحياة ليس في

الحاضر، بل في الماضي، فيما كان قبل الحياة، وفي المستقبل، أي في الحياة الأخرى». يتحدث دائمًا الفريسيون البراهما والبوذيون والطاويون واليهود والمسيحيون عن الأمر ذاته. الحياة الحقيقية شريرة، ومنشأ هذا الشر يعود إلى الماضي، عندما خُلِق العالم والإنسان. أما إصلاح هذا الشر فسيحدث في المستقبل بعد الموت. كل ما يمكن للإنسان أن يفعله لينال خيره في الحياة الأخرى، لا في هذه الحياة، هو أن يؤمن بهذا التعليم الذي نعظكم به، ويُنفِّذ الطقوس التي نصفها لكم.

أما من يشك في حقيقة هذا التفسير عندما يرى حياة كافة الناس الذين يعيشون من أجل خيرهم الشخصي، وحياة الفريسيين أنفسهم حيث يعيشون من أجل الهدف ذاته، لا يصدق هذه الإجابة دون أن يخوض في معناها، ومن ثَم يتوجه إلى الكتبة. يقولون: «إن كافة التعاليم عن حياة أخرى غير الحياة الحيوانية التي نراها هي ثمرة للجهل. كافة شكوكك في عقلانية حياتك هي مجرد أحلام خاملة. لحياة العوالم والأرض والإنسان والحيوان والنبات قوانينها الخاصة، ونحن ندرس هذه القوانين، ونبحث عن مصدر العوالم والإنسان والحيوانات والنباتات والكون برمته، كما أننا ندرس مسألة ما الذي ينتظر العوالم عندما تُطفأ الشمس... إلخ، وكيف كان الأمر مع الإنسان وكيف سيكون مع كافة الحيوانات والنباتات. يمكننا أن نكشف ونثبت أن كل ما كان، وكل ما سيكون مطابق لما نقوله، وعلاوة على ذلك تُعزِّز أبحاثنا رخاء البشرية. أما بالنسبة لحياتك وسعيك إلى الخير، فليس لدينا ما نقوله، ولا يمكننا أن نقول عن ذلك شيئًا عدا ما تعرفه من دوننا؛ ألا وهو أنك تعيش، لذا عِش بأفضل ما يكون».

أما من يشك في ذلك حين لا يتلقى إجابة عن سؤاله، سواء من هذا

الفريق أو من ذاك، يظل كما كان سابقًا، مُفتقرًا إلى أي إرشاد في الحياة عدا بواعث شخصيته.

بعض ممن شكُّوا قالوا لأنفسهم، مُتَّبعين طريقة باسكال[1] في التفكير: «وماذا إن كان كل ما يخيفنا منه الفريسيون حقيقيًّا؟ سننفذ في وقت فراغنا كافة توجيهات الفريسيين، حيث إننا لن نخسر شيئًا بذلك، وربما نربح ربحًا كبيرًا». آخرون سيتفقون مع الكتبة، وينكرون مباشرة وجود أي حياة أخرى، وكافة الشعائر الدينية، ويقولون لأنفسهم: «لست أنا وحدي، بل الجميع عاشوا هكذا، ولا يزالون. فليكن ما يكون». الفرق بين الاثنين لا يعطي لأي فريق أفضلية عن الآخر، حيث إن كليهما يظل بلا أي تفسير لمعنى حياته الحقيقية، ولا يزال يتوجب على كليهما العيش.

الحياة الإنسانية هي مجموعة من السلوكيات، يجدها الإنسان أمامه منذ أن يستيقظ وحتى يعود إلى فراشه. يتوجب عليه كل يوم ألا يتوقف عن الاختيار من بين مئات السلوكيات الممكنة ليؤديها. لا تعاليم الفريسيين ولا تعاليم الكتبة المنصبة على دراسة أصل العوالم والإنسان، والتوصل

---

(1) الإشارة إلى ما يُعرف برهان باسكال: حجة مبنية على نظرية الاحتمالات النسبية، وتستخدم للاحتجاج بضرورة الإيمان بوجود الله على الرغم من عدم إمكانية إثبات وجوده أو عدم وجوده عقليًّا. عبَّر باسكال عن الفكرة كالآتي:
إن آمنت بالله وكان الله موجودًا، فسيكون جزاؤك الخلود في الجنة، وهذا ربح لا محدود.
إن لم تؤمن بالله وكان الله موجودًا، فسيكون جزاؤك الخلود في جهنم، وهذه خسارة لا محدودة.
إن آمنت بالله وكان الله غير موجود، فلن تُجزى على ذلك، وهذه خسارة محدودة.
إن لم تؤمن بالله وكان الله غير موجود، فلن تُعاقب لكنك ستكون قد عشت حياتك، وهذا ربح محدود.

إلى استنتاجات بشأن مصيرهما، قدَّمت له تفسيرًا لأسرار الحياة السمائية. لا يمكن للإنسان أن يعيش دون إرشاد فيما يتعلق بالاختيار بين سلوكيات مختلفة. هنا لم يعد الإنسان ـ شاء أم أبى ـ خاضعًا للفكر، بل لإرشاد الحياة الخارجي الذي وُجِد دائمًا، ويظل موجودًا في كل مجتمع بشري.

ليس هناك أي تفسير عقلي لهذا الإرشاد، وبالرغم من ذلك هو المُحرِّك للغالبية العظمى من السلوكيات. هذا الإرشاد هو العادة في حياة المجتمعات، وكلما ازدادت قوة سلطته على الناس، قلَّ فهمهم لمغزى حياتهم. لا يمكن التعبير بدقة عن هذا الإرشاد، لأنه يتألف من أكثر السلوكيات والأفعال اختلافًا بحسب الزمان والمكان. إنه إشعال الشموع على مقابر الوالدين عند الصينيين، والحج إلى بقعة مقدسة بعينها عند المسلمين، وعدد معين من الكلمات تُتلى في الصلوات عند الهنود، وهو الولاء للراية والشرف والزي العسكري بالنسبة للمقاتل، وهو المبارزة بالنسبة لصفوة المجتمع[1]، وهو الثأر بالنسبة لسكان الجبال، وأطعمة معينة في أيام معينة، وطريقة تربية محددة للأطفال، وهو زيارات معينة ونوع من الأثاث وطقوس محددة في المآتم واحتفالات الولادة والزفاف. إنه عدد لا نهائي من الأفعال والسلوكيات تملأ حياتنا. إنه ما يسمى باللياقة والعادة، وفي أغلب الأحوال يوصف بالواجب، بل وبالواجب المقدس أيضًا.

هذا هو الإرشاد الذي تخضع له غالبية الناس، بالإضافة إلى تفسيرات الحياة الخاصة بالفريسيين والكتبة. يجد الإنسان حوله في كل مكان منذ

---

(1) في روسيا انتشرت بشدة عادة أن يدعو أي من رجال الطبقات الراقية غيره لمبارزة بالأسلحة النارية إذا تعرض لأي إهانة. هكذا قُتِل بوشكين مثلًا.

طفولته أناسًا ينفذون هذه الأفعال بيقين كامل ووقار شديد، وفي الآن ذاته ليس لديهم أي تفسير عقلي لحياتهم. الأمر لا يقتصر على أن الإنسان يبدأ حينها في أداء هذه الأفعال، بل إنه يحاول أن يعزو إليها معنى عقليًا. إنه يود أن يؤمن بأن من يؤدونها لديهم تفسير لسببها أو يعرفون الهدف منها. حينها يبدأ في إقناع نفسه بأن لهذه الأفعال مغزى عقليًّا، وبأنه حتى إذا لم يكن يعرف مغزاها بدرجة كاملة، إلا أن غيره يعرفه. لكن غالبية الآخرين ليس لديهم أيضًا أي تفسير عقلي للحياة، ومن ثَم يجدون أنفسهم في الوضع ذاته الذي يجد فيه هذا الإنسان نفسه. إنهم لا يؤدون هذه الأفعال إلا لأنهم يظنون أن لدى الآخرين تفسيرًا لضرورة أدائها، ويطلبون منهم أن يؤدوها. وهكذا يخدع الناس بعضهم بعضًا تلقائيًا، ومن ثَم لا يقتصر الأمر على زيادة تعوُّدهم فقط على أداء هذه الأفعال التي ليس لديهم أي تفسير عقلي لها، بل إنهم يتعودون أيضًا على عزو معنى سري غامض لها. وكلما قلَّ فهمهم لمغزى الأفعال التي يؤدونها، ازدادت درجة شكهم فيها، وازدادت الأهمية التي يعزونها إليها والإجلال الذي ينفذونها به. كل من الثري والفقير ينفذان ما يفعله الآخرون من حولهم، ويظنان أن ذلك واجب عليهما، بل وواجب مقدس أيضًا، مُطمئنين نفسيهما بأن ما ظل هذا العدد الضخم من الناس يفعلونه منذ فترة طويلة، ويمنحونه قيمة كبيرة، لا يمكن ألا يكون هو العمل الحقيقي للحياة. حتى فترة متأخرة من الشيخوخة، بل حتى يحين الموت يستمر الناس في محاولاتهم لأن يؤكدوا لأنفسهم أنهم إذا لم يكونوا يعرفون بأنفسهم المغزى من حياتهم، فلا بد أن الآخرين يعرفون، ولكن الآخرين لا يعرفون عن الأمر أكثر مما يعرفه الأولون.

يأتي إلى الوجود بشر جدد، ويُولدون وينمون، وينظرون إلى

صخب الوجود الذي يُسمى «الحياة» الذي يشارك فيه الكبار والشيوخ والمبجلون والذين يتلقون احترام الناس، وهم متيقنون من أن هذا التصادم الجنوني هو الحياة، وليس هناك شيء آخر، ويغادرون بعد أن يتدافعوا عند أبوابها. الأمر كما لو أن إنسانًا لم يرَ أبدًا اجتماعًا من قبل، ورأى حشدًا متدافعًا ضاجًّا عند الباب؛ فقرَّر أن هذا الحشد المتدافع عند الباب هو الاجتماع، ويعود إلى منزله وقد تجعدت ثيابه من فرط التدافع وهو على يقين كامل أنه حضره.

الحفر في الجبال، والطيران حول العالم، والطاقة الكهربائية، والميكروسكوبات، والهواتف، والحروب، والبرلمان، وحب الإنسانية، وصراع الأحزاب، والجامعات، والمجتمعات العلمية، والمتاحف... أليس ما فات هو الحياة؟

القطاع الأكبر من مجمل نشاط البشر الفائر المعقد، بكل ما يتضمنه من تجارة وحروب ووسائل اتصالات وعلم وفن، ليس سوى حشد مجنون متدافع عند بوابات الحياة.



تشعُّب وعي معاصرينا

«اَلْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُ تَأْتِي سَاعَةٌ وَهِيَ الآنَ، حِينَ يَسْمَعُ الأَمْوَاتُ صَوْتَ ابْنِ اللهِ، وَالسَّامِعُونَ يَحْيَوْنَ»[1]. بغض النظر عن مدى تأكيد المرء لنفسه، وعن مدى تأكيد الآخرين له أن الحياة لا يمكن أن تكون خيِّرة وعقلانية إلا بعد الموت، وأن الحياة الشخصية وحدها هي التي يمكن أن تكون خيِّرة وعقلانية، لا يمكن للإنسان أن يؤمن بذلك. في أعماق روح الإنسان ضرورة لا يمكن أن تزول، تتمثل في أن تصير حياته خيِّرة تتسم بمعنى عقلاني، ويرى أن الحياة التي ليس لديها أي هدف إلا بعد الموت أو الخير الشخصي المتعذر تحقيقه محض شر وعبث.

يسأل الإنسان نفسه: العيش من أجل حياة أخرى؟ لكن إذا كانت تلك الحياة الحالية العبثية التي أعرفها هي النموذج الوحيد للحياة، فالأمر لا يقتصر حينها على أن ذلك لا يؤكد لي إمكانية وجود حياة أخرى عقلانية، بل على النقيض؛ إنه يقنعني بأن الحياة في حد ذاتها عبثية، وبأنه لا توجد حياة أخرى سوى تلك الحياة العبثية، ولا يمكن أن توجد غيرها.

---

(1) إنجيل يوحنا (5: 25).

العيش من أجل نفسي؟ لكن حياتي الشخصية محض شر وعبث. أأعيش إذن من أجل أسرتي؟ من أجل طائفتي؟ من أجل وطني أو حتى من أجل الإنسانية؟ ولكن إذا كانت حياتي الشخصية بائسة وعبثية، فلا بد إذن أن حياة أي شخصية إنسانية أخرى عبثية كذلك، ولذلك فإن اجتماع عدد لا يُحصى من الشخصيات العبثية وغير العقلانية لا يمكنه أن يُشكِّل حياة واحدة عقلانية مباركة. هل أعيش لنفسي دون أن أعرف سببًا لذلك، لأفعل ما يفعله الآخرون؟ لكني أعرف أن الآخرين ـ مثلي تمامًا ـ لا يعرفون هم أيضًا لماذا يفعلون ما يفعلونه.

يأتي وقت حينما يتخلص الوعي العقلي من التعليم الزائف، ويتوقف الإنسان وسط الحياة ليطلب تفسيرًا لها.

وحده الإنسان الذي لا تربطه علاقة قوية بأناس يعيشون أنماطًا حياتية مختلفة عن نمط حياته، والمشغول دائمًا بصراع شديد مع الطبيعة من أجل بقاء كيانه الجسدي، هو من يمكنه أن يؤمن بأن تنفيذ هذه الأعمال المجنونة التي يسميها بالـ«الواجب» هي عمل الحياة الحقيقي.

يأتي وقت، وقد أتى بالفعل، يصير فيه الخداع الذي يعتمد على إنكار لفظي لهذه الحياة من أجل حياة أخرى، والاعتراف بأن الحياة الشخصية الحيوانية وحدها هي الحياة، وبأن هذا الواجب المتوهم هو عمل الحياة الحقيقي، واضحًا لغالبية الناس، ولا يمكن حينها إلا لمن تسحقهم الحاجة أو تُخدِّرهم الحياة الشهوانية أن يستمروا في الحياة دون أن يشعروا بعبثية وبؤس وجودهم.

يستيقظ الناس أكثر فأكثر على صوت الوعي العقلي، ويحيون في

قبورهم، وبغض النظر عن كافة الجهود التي يبذلها الناس لحجب التناقض الرئيس للحياة الإنسانية عن أنفسهم، يصير ماثلًا أمام غالبية الناس بقوة ووضوح مُريعَين.

يقول إنسان لنفسه بعد أن يستيقظ: «الحياة الإنسانية برمتها هي رغبة في الخير لشخصي. يقول لي العقل إن خيري هذا غير ممكن التحقق، وإني مهما فعلت لأحققه، ينتهي الأمر دائمًا بالطريقة ذاتها؛ بالمعاناة والموت والدمار. أريد الخير، أريد الحياة، وأريد مغزى عقليًا، ولكن الشر والموت والعبث في داخلي وفي كافة من حولي... كيف هذا؟ كيف يمكن العيش؟ ما العمل؟»، ولا يجد إجابة.

يتلفت الإنسان حوله ويبحث عن إجابة سؤاله ولا يجدها. يجد حوله تعاليم تجيبه عن أسئلة لا يطرحها على نفسه، لكنه لا يجد إجابة السؤال الذي يطرحه على نفسه في العالم من حوله. لا يجد مِن حوله سوى صخب الناس الذين يؤدون الأفعال التي يؤديها الآخرون دون أن يعرفوا ـ هم أو الآخرون ـ لماذا يؤدونها.

يعيش الجميع كأنهم لا يدركون بلية وضعهم وعبثية نشاطهم. يقول المستيقظ لنفسه: «إما إنهم مجانين أو أنا المجنون. لكن لا يمكن أن يكونوا جميعًا مجانين. إذن أنا المجنون. ولكن لا... لا يمكن أن تكون أناي العاقلة التي تُحدِّثني بهذه الطريقة مجنونة. ليس بوسعي سوى أن أصدقها حتى إذا صارت ضد العالم بأسره».

ويعي الإنسان وحدته في العالم بأسره أمام هذه الأسئلة المريعة التي تمزق روحه، ولكن عليه أن يعيش.

يقول له عقله؛ أناه الأخرى: «يستحيل العيش».

يشعر الإنسان بأنه منقسم، ويُعذِّب هذا الانقسام روحه.

حينها يبدو له أن عقله هو مصدر هذا الانقسام وهذه المعاناة.

العقل؛ ملكة الإنسان السامية والضرورية لحياته، والتي تمنح الإنسان البائس عديم الحيلة وسط قوى الطبيعة التي تدمره، الوسائلَ اللازمة للبقاء وتحقيق المتعة... هذه الملكة تُسمِّم حياته.

يجد الإنسان في عالم الكائنات الحية المحيط به برمته أن الملكات التي تتسم بها لا غنى لها عنها، وهي تعزز خيرها جميعًا. بخضوع النباتات والحشرات والحيوانات لقانونها يمكنها أن تحيا حياة هانئة هادئة مليئة بالسرور. فجأة تنتج أسمى ملكة في طبيعة الإنسان وضعًا مُعذِّبًا، حتى إنه يحدث كثيرًا في الفترة الأخيرة أن يُمزِّق الإنسان العقدة الجوردية[1] لحياته، ويقتل نفسه ليتخلص وحسب من التوتر الناجم عن التناقض الداخلي الناتج عن الوعي العقلي الذي وصل إلى مراحله الأخيرة في عصرنا الحالي.

(1) أسطورة تتعلق بالإسكندر الأكبر، ويُستخدم المصطلح عادة للدلالة على مشكلة صعبة الحل يتم حلها بعمل جريء.

الفصل السابع

يعود تشعُّب الوعي إلى الخلط بين الحياة الحيوانية والحياة الإنسانية

يبدو للإنسان أن الوعي العقلي المستيقظ بداخله لا يمزق ويعطل حياته إلا لأنه يعتبر شيئًا لم يحدث قَطُّ، وغير موجود ولا يمكن له أن يوجد، هو حياته.

بعد أن نشأ وتربى على التعاليم الزائفة لعالمنا التي تؤكد له يقينية أن حياته ليست سوى وجوده الشخصي الذي بدأ منذ ميلاده، يبدو للإنسان أنه عاش عندما كان طفلًا، ثم يبدو له أنه لم يتوقف عن العيش حتى صار شابًّا وناضجًا. يبدو له أنه عاش منذ زمن بعيد جدًّا، وأنه طوال هذا الوقت لم يتوقف عن العيش، وفجأة وصل إلى الزمن الذي صار جليًّا له فيه دون أدنى شك أن العيش بالطريقة التي عاش بها مستحيل، وأن حياته تتوقف وتتمزق.

لقد أكد له التعليم الزائف في فكره أن حياته هي فترة زمنية تمتد من الولادة حتى الموت، وبالنظر إلى حياة الحيوانات من حوله يخلط بين تصور الحياة المرئية ووعيه، ويتيقن تمامًا أن هذه الحياة المرئية له هي حياته.

بعد أن يعلن له الوعي العقلي المستيقظ بداخله هذه المتطلبات غير المُرضِية للحياة الحيوانية، يشير له إلى خطأ تصوره عن الحياة، لكن التعليم الزائف المتأصل بعمق في داخله، يحول بينه وبين الاعتراف بخطئه. إنه لا يستطيع أن يرفض تصوره عن الحياة ككائن حيواني، ويبدو له أن حياته قد توقفت إثر يقظة الوعي العقلي. لكن ما يسميه حياته التي تبدو له قد توقفت، لم توجد قَطُّ في حقيقة الأمر. ما يسميه حياته التي هي وجوده منذ الولادة لم تكن قَطُّ حياته، وتصوره عن أنه عاش طوال الوقت منذ ولادته حتى اللحظة الحالية هو خداع للوعي، يشبه خداع الوعي الذي يحدث أثناء الأحلام، حيث إنه قبل الاستيقاظ لم تكن هناك أي أحلام، بل تشكلت جميعًا في لحظة الاستيقاظ.

عاش الإنسان كحيوان إبان الطفولة، ولم يكن يعلم شيئًا عن الحياة. إذا عاش الإنسان عشرة أشهر لن يعرف شيئًا عن حياته أو عن أي حياة أخرى، أو ستكون معرفته بها قليلة تمامًا كما هو الحال إذا مات في رحم أمه. لا يقتصر الأمر على الطفل الرضيع، بل حتى البالغ غير العاقل، الأبله تمامًا، لا يمكنه أن يعرف أنه يعيش وأن كائنات أخرى تعيش أيضًا. لذلك لا يتسم بحياة إنسانية.

لا تبدأ الحياة الإنسانية إلا مع ظهور الوعي العقلي الذي يكشف للإنسان في لحظة واحدة حياته في الحاضر والماضي، وحياة الشخصيات الأخرى، وكل ما ينبع حتمًا من علاقات هذه الشخصيات من معاناة وموت؛ الأمر ذاته الذي يُولِّد في داخله إنكارًا لخير الحياة الشخصية والتناقض الذي يبدو له أنه يوقف حياته.

يريد الإنسان أن يُحدِّد حياته زمنيًا كما يُحدِّد الوجود الذي يراه خارج

كيانه، وفجأة تستيقظ حياة في داخله لا تتسق مع وقت ولادته الجسدية، وهو لا يريد حينها أن يؤمن بأن شيئًا غير متحدد زمنيًّا يمكن أن يكون حياة. لكن مهما بحث عن تلك النقطة التي يمكن أن يعتبرها بداية حياته العقلية، لا يجدها أبدًا.

لا يجد الإنسان أبدًا في ذكرياته هذه النقطة أو بداية هذا الوعي العقلي. يبدو له أن الوعي العقلي كان موجودًا فيه دائمًا. إذا وجد شيئًا يشبه جوهر الوعي فإنه لا يجده في ولادته الجسدية، بل في مجال لا يربطه شيء بهذه الولادة الجسدية. إنه يعي جوهره العقلاني بصورة مختلفة تمامًا عن الطريقة التي يرى بها ولادته الجسدية. عندما يسأل نفسه عن أصل وعيه العقلاني، لا يتصور أبدًا أنه بوصفه كائنًا عقلانيًّا كان ابنًا لأبيه وأمه، وحفيدًا لأجداده وجداته، وُلد في عام ما، ولا يعي نفسه دائمًا كابن، بل تندمج في وعيه أكثر الكائنات العاقلة بُعدًا عنه زمانيًّا ومكانيًّا؛ كائنات عاشت منذ آلاف الأعوام في الجانب الآخر من العالم. لا يرى الإنسان في وعيه العقلاني مصدرًا لنفسه، بل يعي اتحاده غير الزماني وغير المكاني مع صنوف وعي أخرى عقلانية لغيره، تندمج فيه ويندمج فيها. هذا هو الوعي العقلي المستيقظ في الإنسان، والذي يوقف ما يشبه الحياة، وهو الذي أضل الناس حينما ظنوا أنه هو الحياة، ولذلك يظنون أن حياتهم تتوقف ما إن يستيقظ الوعي العقلي فيهم.

الفصل الثامن

ليس هناك تشعُّب وتناقض، بل يبدو الأمر كذلك في ظل التعليم الزائف وحسب

وحده التعليم الزائف عن الحياة الإنسانية، المتمثل في الوجود الحيواني من الولادة حتى الموت، والذي ينشأ الناس عليه، يؤدي إلى حالة التشعُّب المُعذِّبة التي يجد الناس فيها أنفسهم عندما يكتشفون في داخلهم الوعي العقلي.

يبدو للإنسان الذي سقط أسيرًا لهذا الوهم أن الحياة تنقسم في داخله. يعرف الإنسان أن حياته واحدة، لكنه يشعر بأنها حياتان. يشبك رجل إصبعين ويدير بينهما كرة صغيرة. إنه يعرف أنها كرة واحدة، لكنه يشعر بأنها كرتان. يحدث شيء مشابه مع من كوَّنوا تصورًا زائفًا عن الحياة.

يتوجه عقل الإنسان صوب وجهة خاطئة. لقد علَّموه الاعتراف بأن الحياة الجسدية الشخصية التي لا يمكن أن تكون هي الحياة، هي وحدها الحياة.

من هذا التصور الزائف عن حياة متخيلة ينظر إلى الحياة ويراها حياتَين؛ الحياة التي يتخيلها والأخرى الموجودة فعلًا.

يبدو لهذا الإنسان أن إنكار خير الوجود الشخصي بواسطة الوعي العقلي، والمطالبة بخير آخر هو أمر مَرَضي وغير طبيعي.

لكن بالنسبة للإنسان بوصفه كائنًا عاقلًا، فإن إنكار إمكانية الخير والحياة الشخصيين هو عاقبة حتمية لشروط الحياة الشخصية، وسمات الوعي العقلي المتحد بها. إنكار الخير والحياة الشخصيين هو سمة طبيعية لحياة الكائن العاقل، كما أنه من سمات الطيور أن تفرد أجنحتها وتطير، ولا تركض على أقدامها. إذا ركض طائر صغير يغطيه الريش على قدميه؛ فهذا لا يثبت أنه لم يتسم بالقدرة على الطيران. إذا رأينا خارج أنفسنا أناسًا لم يستيقظ فيهم الوعي العقلي بعدُ، يفترضون أن حياتهم تتمثل في الخير الشخصي، فهذا لا يثبت أن الإنسان غير مفطور على عيش حياة عقلانية. يصاحب إيقاظَ الإنسان لحياته الحقيقية المفطور عليها في عالمنا توترٌ مؤلم، والسبب الوحيد لذلك هو أن التعليم الزائف يحاول إقناع الناس بأن ظل الحياة هو الحياة ذاتها، وبأن تجلي الحياة الحقيقية هو خرق لها.

بالنسبة لمن يلتحقون في عالمنا بالحياة الحقيقية يحدث ما يشبه أن يحدث لفتاة أخفوا عنها سمات الأنوثة. بعد أن شعرت الفتاة بسمات البلوغ الجنسي تنظر إلى وضعها الذي يقودها صوب حياة أسرية مستقبلية، بما يتضمنه ذلك من واجبات وأفراح الأمومة كوضع غير صحي وغير طبيعي، ويُفضي بها الأمر إلى اليأس.

يجد الإنسانُ الذي استيقظ فيه الوعي العقلي، لكنه في الآن ذاته يفهم حياته على المستوى الشخصي وحسب، نفسَه في العذاب ذاته الذي قد يجد فيه حيوان نفسه اعترف بأن حركة المادة هي حياته، ولم يعترف بقانونه الشخصي، بل رأى أن حياته تنحصر في إخضاع نفسه لقوانين المادة التي تتم بمعزل عن إرادته. من شأن هذا الحيوان أن يختبر تناقضًا وانقسامًا داخليين مُعذِّبين. بخضوعه لقوانين المادة وحدها يُقصر حياته

على النوم والتنفس، لكن الشخصية تتطلب منه شيئًا آخر؛ إطعام نفسه واستمرار النسل، وحينها سيبدو للحيوان أنه يختبر انقسامًا وتناقضًا. سيفكر في نفسه قائلًا إنه وفقًا لذلك يجب أن تخضع حياته لقوانين الجاذبية؛ أي ألا يتحرك ويستلقي خاضعًا لهذه العلميات الكيميائية التي تجري داخل جسده، «وها أنا أفعل ذلك، لكن يلزم أن أتحرك وأتناول طعامي وأبحث عن ذكر أو أنثى».

سيُعاني الحيوان وسيرى في هذا الوضع تناقضًا وانقسامًا مُعذِّبين. يحدث الأمر ذاته مع الإنسان الذي نشأ على الاعتراف بقانون الحياة الأدنى؛ قانون الشخصية الحيوانية، قانونًا لحياته، بينما يتطلب منه قانون الحياة الأسمى؛ قانون وعيه العقلي، شيئًا آخر، إلا إن الحياة من حوله برمتها، والتعاليم الزائفة، تُبقيه داخل إطار الوعي الخادع، ويشعر بالتناقض والانقسام.

لكن كما أن الحيوان يحتاج إلى التوقف عن الاعتراف بقانونه الأدنى، والبدء في اعترافه بقانون شخصيته ليتوقف عن الشعور بالمعاناة، ويُنفِّذه مستفيدًا من قوانين المادة من أجل تحقيق أهداف شخصيته، كذلك يلزم ألا يعترف الإنسان بأن حياته تتمثل في قانون الشخصية الأدنى، بل بالقانون الأسمى، مُتضمنًا بداخله الأول؛ أي أن يعترف بأن حياته تتمثل في القانون العقلي الذي يُكشَف له، وحينها يزول التناقض، وتخضع الشخصية بحرية للوعي العقلي وتخدمه.

الفصل التاسع

ولادة الحياة الحقيقية في الإنسان

بتأمل الحياة داخل نطاق الزمن، وملاحظة تجلي الحياة في الكيان الإنساني، يمكننا أن نرى أن الحياة الحقيقية تُحفظ في الإنسان كما تُحفظ دائمًا في البذرة، ويأتي وقت تنبثق فيه هذه الحياة. يتمثل انبثاق الحياة الحقيقية في انجذاب الشخصية الحيوانية لخيرها، حيث يكشف لها الوعي العقلي عدم إمكانية تحقق الخير الشخصي، ويشير لها إلى خير آخر. يحاول الإنسان أن يرى هذا الخير البعيد الذي يشيرون إليه، لكنه لا يقوى على رؤيته، ولا يصدق في البداية وجوده، ومن ثَم يتراجع إلى خيره الشخصي، ولكن وعيه العقلي الذي يشير إلى خيره بطريقة غير محددة، يكشف له بصورة لا تقبل الشك عدم إمكانية تحقيق الخير الشخصي، إلى درجة أن يرفض الإنسان مجددًا خيره الشخصي، وينظر مجددًا إلى هذا الخير الجديد المُشار إليه. الخير العقلي غير مرئي، ولكن الخير الشخصي يحيق به الدمار بدرجة لا تقبل الشك، بحيث لا يعود بالإمكان مواصلة الوجود الشخصي، وتبدأ علاقة جديدة في التوطن داخل الإنسان بين وعيه الحيواني والعقلي. تبدأ ولادة الحياة الإنسانية الحقيقية في الإنسان.

يحدث أمر مشابه لما يحدث في العالم المادي عندما تحدث أي

ولادة. لا تُولد الثمرة لأنها تود أن تُولد، أو لأن من الأفضل لها أن تُولد، أو لأنها تعرف أنه يجدر بها أن تُولد، بل لأنها نضجت، ويستحيل أن تواصل وجودها السابق. عليها أن تُسلِّم نفسها لحياة جديدة، ليس لأن حياة جيدة تناديها وحسب، بل لأن الأمر يرتبط أكثر بزوال إمكانية مواصلة وجودها القديم.

ينمو الوعي العقلي بصورة غير محسوسة في شخصية صاحبه لدرجة تستحيل معها الحياة داخل إطار الشخصية.

يحدث ما يحدث تمامًا عند ولادة كل شيء. يلحق الدمار بالبذرة التي تُشكِّل الحياة القديمة، ويتولد برعم جديد، وكذلك يبدو الصراع بين الأنماط القديمة للحبة المتحللة ونمو البرعم، حيث إن تغذية البرعم تحدث على حساب الحبة المتحللة. الفرق بين ولادة الوعي العقلي والولادة الجسدية التي نراها، هو أننا نرى الأخيرة داخل نطاق الزمان والمكان، وفيما يتعلق بالمصدر والطريقة والموعد وما ينتج عن الجنين نعرف أن البذرة هي الثمرة، وأنه يحدث في ظروف معينة أن يخرج النبات من البذرة، وأنه سوف يزهر ويثمر بعد ذلك ثمرة مشابهة للبذرة، حيث إن دورة الحياة تحدث بكاملها أمام أعيننا، لكننا لا نرى نمو الوعي العقلي داخل نطاق الزمن، ولا نرى دورته، وذلك لأننا بأنفسنا من نُتمُّه. حياتنا، ليست سوى ولادة ذلك المخلوق غير المرئي لنا الذي يولد فينا، ولذلك ليس بوسعنا أن نراه.

لا يمكننا أن نرى ولادة هذ الكيان الجديد، والعلاقة الجديدة التي تربط بين الوعي العقلي والحيواني، تمامًا كما لا يمكن للبذرة أن ترى نمو نبات جديد. عندما يخرج الوعي العقلي من حالته الخفية وينبثق أمام أعيننا يبدو

لنا أننا نختبر تناقضًا. لكن في الحقيقة ليس هناك أي تناقض، كما أنه لا يوجد تناقض في البذرة المتبرعمة. إننا لا نرى في البذرة المتبرعمة سوى أن الحياة التي كانت موجودة سابقًا داخل البذرة تنبت منها الآن. كذلك لا يوجد أي تناقض يحدث في الإنسان الذي يستيقظ فيه الوعي العقلي، بل تحدث ولادة كيان جديد وعلاقات جديدة بين الوعي العقلي والحيواني.

إذا وُجِد إنسان لا يعلم أن ثمة شخصيات أخرى تعيش، وأن المتع لا تشبعه وأنه سيموت، فلا بد أنه لا يعرف أيضًا أنه يحيا، ومن ثَم لا يختبر أي تناقض.

إذا رأى الإنسان أن هناك شخصيات أخرى مثله، وأن وجوده هو عملية موت بطيء، وإذا بدأ وعيه العقلي يحطم وجود شخصيته، لن يرى حياته في تلك الشخصية المتحللة، بل سيفترض حياته لا محالة في هذه الحياة الجديدة التي تنكشف له. لن يختبر مجددًا أي تناقض مثلما لا يوجد تناقض مع بذرة أنبتت ومن ثَم تحللت.



الفصل العاشر

العقل هو القانون الذي يعيه الإنسان، والذي يجب أن تسير مجريات حياته وفقًا له

لا تبدأ حياة الإنسان الحقيقية المتمثلة في العلاقة بين وعيه العقلي وشخصيته الحيوانية إلا حينما يبدأ نفي خير الشخصية الحيوانية، ولا يحدث ذلك إلا حينما يستيقظ الوعي العقلي.

ولكن ما هو الوعي العقلي؟ يبدأ إنجيل يوحنا بقوله إنه «في البدء كان الكلمة»[1] (اللوغوس ـ العقل ـ الحكمة ـ الكلمة)، وإن كل شيء يعود إليه وينبع منه، ولذلك فإن العقل الذي يحدد كل شيء لا يمكن أن يحدده شيء.

لا يمكن أن يُحدَّد العقل، ولسنا بحاجة إلى تعريفه، وذلك ليس لأننا نعرفه جميعًا وحسب، بل لأننا لا نعرف شيئًا سواه. عندما نعامل بعضنا بعضًا نكون على ثقة مقدمًا، أكثر من ثقتنا في أي شيء آخر، في أن العقل مُلزِم لنا جميعًا بالقدر ذاته. نحن على قناعة بأن العقل هو الأساس الوحيد الذي يُوحِّدنا نحن الأحياء. نعرف العقل أكثر من أي شيء وقبل أي شيء،

(1) في النص الإنجيلي «كان الكلمة»، وليس «كانت الكلمة»، لذلك التزمت بتذكيرها لتطابق النص الإنجيلي الذي ارتأى تذكيرها لإشارتها إلى المسيح بحسب التفسير المتداول.

حيث إننا لا نعرف شيئًا في العالم إلا لأن ما نعرفه يتسق مع قوانين هذا العقل الذي نعرفه بصورة لا تقبل الشك. نحن نعرف العقل، ويستحيل ألا نعرفه، وسبب الاستحالة هو أن العقل هو ذلك القانون الذي يجب أن تعيش الكائنات العاقلة، أي البشر، وفقًا له. العقل بالنسبة للإنسان هو ذلك القانون الذي تجري حياته وفقًا له. إنه مماثل للقانون الذي يتناول الحيوان غذاءه ويتكاثر وفقًا له، ومماثل للقانون الذي ينمو النبات والشجرة وفقًا له ويثمران، ومماثل للقانون الذي تتحرك الأرض والنجوم وفقًا له. القانون الذي ندركه في داخلنا بوصفه قانون حياتنا، هو ذلك القانون الذي تتم وفقًا له كافة ظواهر العالم المادية، مع فرق واحد أننا ندرك هذا القانون في داخلنا ونعلم أننا يجب أن نلتزم به، أما فيما يتعلق بالظواهر المادية فهي تتم وفقًا لهذا القانون دون أن يكون لنا يد في ذلك. كل ما نعرفه عن العالم هو ما نراه وحسب، وكل ما يجري خارج كياننا في الأجرام السمائية والحيوانات والنباتات والعالم كله خاضع للعقل. نرى في العالم الخارجي هذا الخضوع للعقل، بينما ندرك في أنفسنا هذا القانون باعتباره أمرًا يجب الالتزام بتحقيقه.

يتمثل الخداع المعتاد للحياة في أن نظن أن خضوع جسدنا الحيواني لقانونه؛ الأمر الذي لا نجريه نحن بل نراه وحسب، هو الحياة الإنسانية، في حين أن هذا القانون الخاص بجسدنا الحيواني المرتبط بوعينا العقلاني يتحقق في جسدنا الحيواني بصورة غير واعية، كما هو الأمر مع الشجرة والبلورة والجرم السمائي. لكن قانون حياتنا المتمثل في إخضاع جسدنا الحيواني للعقل، هو هذا القانون الذي لا نراه في أي مكان، ولا يمكننا أن نراه لأنه لم يتحقق بعد، بل ولا يزال يتحقق في حياتنا بواسطتنا. تتمثل

حياتنا في تنفيذ هذا القانون، وإخضاع الكيان الحيواني لقانون العقل من أجل تحقيق الخير. عندما لا نفهم أن خير حياتنا يتمثل في إخضاع الشخصية الحيوانية لقانون العقل، والتعامل مع خير ووجود الشخصية الحيوانية باعتبارهما الحياة برمتها، والابتعاد عن عمل حياتنا الحقيقي، نحرم أنفسنا من خيرنا وحياتنا الحقيقيين، ونستبدل بهما ذلك الوجود المرئي لنشاطنا الحيواني الذي يحدث بمعزل عنا، ومن ثَم لا يمكن أن يكون هو حياتنا.

الفصل الحادي عشر

التوجه الزائف للمعرفة

الخداع المتمثل في أن نعتبر قانون حياتنا هو القانون الذي نراه فاعلًا في شخصيتنا الحيوانية، هو خداع قديم يسقط فيه الناس دائمًا. يحجب هذا الخداع عن الناس موضوع وعيهم الرئيس؛ ألا وهو إخضاع الشخصية الحيوانية للعقل بهدف تحقيق خير الحياة، ويضع بدلًا منه دراسة وجود البشر بمعزل عن خير الحياة.

بدلًا من دراسة هذا القانون الذي يقضي بضرورة إخضاع شخصية الإنسان الحيوانية من أجل تحقيق الخير، وبدلًا من دراسة كافة الظواهر الدنيوية الأخرى بعد تَعلُّم هذا القانون، يُوجِّه الوعي الزائف كافة الجهود صوب دراسة خير شخصية الإنسان الحيوانية وحسب، بعيدًا عن أي علاقة بموضوع المعرفة الرئيس؛ إخضاع شخصية الإنسان الحيوانية لقانون العقل من أجل تحقيق خير الحياة الحقيقية.

لا تضع المعرفة الزائفة في اعتبارها هذا الموضوع المعرفي الرئيس، ومن ثَم تُوجِّه كافة قواها إلى دراسة الوجود الحيواني للبشر، في الماضي والحاضر على السواء، وإلى دراسة شروط وجود الإنسان بصورة عامة

كحيوان. تظن المعرفة الزائفة أننا بهذه الدراسات سنجد إرشادًا لتحقيق خير الحياة الإنسانية.

تجادل المعرفة الزائفة بهذه الطريقة: عاش الناس قبلنا ولا يزالون... فلننظر كيف عاشوا، وما التغييرات التي طرأت على حياتهم زمانيًا ومكانيًا، وإلى أين تتوجه هذه التغييرات، وسنجد قانون حياتهم بدراسة هذه التغييرات التاريخية التي طرأت على وجودهم.

بعدم وضع الهدف الرئيس للمعرفة في الاعتبار، والذي هو دراسة هذا القانون العقلي الذي يجب أن تخضع له الشخصية الإنسانية لتُحقِّق خيرها، يحكم أولئك المدعوون علماء في هذا المجال على دراساتهم باللاجدوى. في حقيقة الأمر إذا اقتصر سبب تغيير حياة الناس على القوانين العامة لوجودهم الحيواني، فإن دراسة هذه القوانين التي يخضعون لها غير مُجدٍ على الإطلاق ولا قيمة له. سواء عرف الناس أم لم يعرفوا القانون الذي يحكم تغييرات وجودهم، فإنه سيحدث بالطريقة ذاتها التي تحدث بها تغييرات في حياة الخُلد والقنادس إثر تلك الظروف التي تعيش فيها مثل هذه الحيوانات. إذا كان بوسع الإنسان أن يعرف هذا القانون العقلي الذي يجب أن تخضع له حياته، فمن الواضح أن معرفة قانون العقل هذا غير ممكنة إلا هناك حيث ينكشف له؛ أي في وعيه العقلاني. لذلك مهما درس الناس كيف عاش أسلافهم بوصفهم حيوانات، فلن يعرفوا بأيِّ حال من الأحوال شيئًا مما كان سيحدث للناس تلقائيًّا من دون تلك المعرفة، ومهما درسوا الوجود الحيواني للإنسان، فلن يعرفوا هذا القانون الذي يجب أن يخضع له كيان الإنسان الحيواني لينال الإنسان خيره.

هذا أحد أنواع التفكير التي نجدها لدى العاطلين، ويطلقون عليها العلوم التاريخية والسياسية.

ثمة نوع آخر من التفكير منتشر بقوة في أيامنا، وهو نوع يفتقر تمامًا إلى موضوع المعرفة الرئيس. يجعل هذا النوع حياة الإنسان موضوعًا لملاحظته، ويقول العلماء إنهم يرون الإنسان يتغذى وينمو ويتكاثر ويهرم ويموت كأي حيوان آخر، ولكن بعض الظواهر النفسية ـ هكذا يسمونها ـ تعيق التوصل إلى ملاحظات دقيقة، وتُعقِّد الأمر بشدة، ولذلك إذا أردنا أن نفهم الإنسان أفضل فهم، علينا أن نفحص حياته في البداية في أبسط ظواهرها التي تشبه الظواهر المجردة من هذا النشاط النفسي للحيوانات والنباتات. لذلك سوف نفحص حياة الحيوانات والنباتات بوجه عام. عندما نفحص حياة الحيوانات والنباتات نرى أن ثمة قوانين مادية عامة أكثر بساطة تتجلى فيها جميعًا. ونظرًا لأن قوانين حياة الحيوانات أبسط من قوانين حياة الإنسان، وقوانين حياة النباتات أكثر بساطة، وقوانين المادة أشد بساطة، لا بد إذن أن تتأسس الأبحاث على أبسط أنواع القوانين: قوانين المادة. يُكملون قائلين: نرى إذن أن ما يحدث في حياة النبات والحيوان يحدث في حياة الإنسان، ونستنتج من ذلك أن كل ما يحدث في حياة الإنسان يمكننا أن نفهمه من منطلق حدوثه في أبسط وأوضح صورة لنا تخضع لتجربة المادة الميتة؛ خاصة أن كافة سمات النشاط الإنساني تحدث بصورة تعتمد دائمًا على قوى مؤثرة على المادة. كل تغيير في المادة التي تُشكِّل جسم الإنسان تُغيِّر نشاطه برمته وتُؤثِّر عليه. لذلك يمكننا أن نستنتج أن قوانين المادة هي الأسباب الحقيقية لنشاط الإنسان. وهم لا يُزعجون أنفسهم بالتصور الذي مفاده أن ثمة شيئًا في الإنسان لا نراه في

الحيوانات والنباتات والمادة الميتة، وأنه هو الموضوع الرئيس للمعرفة، والذي في غيابه يصير كل شيء غير مُجدٍ.

لم يخطر ببالهم أنه إذا أثَّر تغيُّر المادة على جسد الإنسان، فإن هذا لا يُثبت سوى أن تَغيُّر المادة هو واحد من الأسباب التي تؤثر على نشاط الإنسان، لكنه لا يعني أبدًا أن حركة المادة هي سبب النشاط الإنساني. كذلك هو الأمر مع الضرر الذي يلم بالنبات حينما نزيل التربة من حول جذوره، فهو يثبت أن التربة يمكن أن توجد أو لا، لكنه لا يثبت أن النبات ليس شيئًا سوى نتاج التربة. إنهم يدرسون في الإنسان ما يحدث في المادة الميتة والنبات والحيوان، مفترضين أن تفسير قوانين الظواهر المقترنة بحياة الإنسان يمكن أن يُوضِّح لهم حياة الإنسان ذاتها.

حاول الناس أن يفهموا حياة الإنسان؛ أي القانون الذي يجب أن تخضع له شخصيته الحيوانية ليحقق خيره، بدراسة وجوده التاريخي، لا حياته أو الجزء الذي لا يعيه، ودراسة خضوع الحيوان والنبات والمادة المرئية لهم لقوانين مختلفة؛ أي أنهم يفعلون ما يفعله أناس يدرسون وضع أشياء لا يعرفونها، ليتكهنوا بالهدف الذي يجب أن يسعوا إليه وهم يجهلونه.

من الصحيح تمامًا أن دراسة ظاهرة وجود الناس كما يكشفها لنا التاريخ يمكنها أن تفيدنا، بالقدر الذي يمكن أن تفيدنا به دراسة قوانين الجانب الحيواني في الإنسان وبقية الحيوانات، والذي تفيدنا به دراسة القوانين التي تخضع لها المادة. دراسة كل ما سبق مهمة للإنسان حيث تكشف له في هيئة انعكاس ما يجب أن يحدث في حياته، ولكن من الواضح أن معرفة ما يحدث فعلًا وما هو مرئي لنا، مهما كانت دراسة كاملة، لا يمكنها أن تُقدِّم لنا المعرفة الأساسية التي نحتاج إليها؛ أي معرفة القانون الذي يجب

أن تخضع له شخصيتنا الحيوانية من أجل تحقيق خيرنا. إن معرفة القوانين الجارية مفيدة لنا، لكنها لا تكون كذلك إلا عندما نعترف بقانون العقل الذي يجب أن تخضع له شخصيتنا الحيوانية، ولن تفيدنا معرفة القوانين الجارية أبدًا إن لم نعترف بذلك القانون.

يشبه الأمر ما يحدث للشجرة، حيث يجدر بها أن تدرس ـ إذا كان بإمكانها أن تدرس ـ كافة الظواهر الكيميائية والفيزيائية التي تحدث فيها، لكنها لا تستطيع بهذه المعارف والملاحظات أن تتخلص من ضرورة جمع السوائل، وتوزيعها على نمو الساق والأوراق والأزهار والثمار.

كذلك هو الأمر مع الإنسان، فمهما ازدادت معرفته بالقانون الذي يحكم شخصيته الحيوانية، والقوانين التي تحكم المادة، إلا أن هذه القوانين لا تعطيه أدنى إشارة إلى الطريقة التي يجب أن يسلك بها مع قطعة الخبز هذه الموجودة بين يديه؛ أيعطيها لزوجته أم لغريب أم لكلب أم يأكلها بنفسه؟ أيحتفظ بها أم يعطيها لمن يسأله إياها؟ تتمثل الحياة الإنسانية برمتها في الإجابة عن مثل هذه الأسئلة.

لا يقتصر الأمر على أن دراسة القوانين الحاكمة لوجود الحيوانات والنباتات والجمادات مفيدة، بل إنها ضرورية لاستيضاح قانون حياة الإنسان، لكن ذلك مرهون بأن تكون المعرفة الإنسانية هي الهدف الرئيس لهذه الدراسة؛ أي استيضاح قانون العقل.

إذا افترضنا أن حياة الإنسان ليست سوى وجوده الحيواني، وأن خيره الذي يشير إليه وعيه العقلي غير ممكن التحقق، وأن قانون العقل وحده ليس سوى ظل، فلن يقتصر الأمر على أن هذه الدراسة ستكون غير

مجدية، بل مهلكة، حيث إنها ستغلق في وجه الإنسان موضوع معرفته الوحيد، كما أنها ستُدعم تعرضه للوهم الذي مفاده أنه بدراسة ظل شيء ما يمكنه أن يعرف الشيء ذاته. تشبه هذه الدراسة ما يفعله إنسان يدرس بانتباه كافة التغييرات والحركات التي تطرأ على ظل كائن حي، مفترضًا أن سبب حركة الكائن الحي يتلخص في التغييرات والحركات التي تطرأ على ظله.

الفصل الثاني عشر

سبب المعرفة الزائفة هو زيف الأفق الذي تبدو فيه الأشياء

يقول كونفوشيوس: تتمثل المعرفة الحقيقية في أن نعرف أننا نعرف ما نعرفه فعلًا، وأننا لا نعرف ما لا نعرفه، بينما المعرفة الزائفة هي أن نعتقد أننا نعرف ما لا نعرفه، وأننا لا نعرف ما نعرفه. يستحيل أن نجد تعريفًا أدق من ذلك ينطبق على المعرفة الزائفة السائدة بيننا الآن. إننا نفترض بفضل المعرفة الزائفة المعاصرة أننا نعرف ما لا نستطيع أن نعرفه، وأننا لا نستطيع أن نعرف الأمر الوحيد الذي نعرفه حق المعرفة. يتصور الإنسان في ظل هذه المعرفة الزائفة أنه يعرف كل ما يتبدى له داخل نطاق الزمان والمكان، وأنه لا يعرف ما يمكنه أن يدركه داخل نطاق وعيه العقلي.

يبدو لمثل هذا الشخص أن الخير بوجه عام، وخيره على نحو خاص، هو أبعد الأمور عن نطاق معرفته. يبدو له عقله ووعيه العقلي أمرين لا يمكنه أن يعرفهما بالقدر الذي يمكنه به أن يعرف نفسه ككيان حيواني. الأمر الذي يبدو له أنه أقدر أيضًا على معرفته هو الحيوانات والنباتات، ويشعر أيضًا بأنه أقدر على معرفة المادة الميتة المُوزَّعة بصورة لا نهائية.

يحدث شيء مشابه لنظر الإنسان. يُوجِّه الإنسان نظره غالبًا بصورة

تلقائية إلى أشياء أبعد، ولذلك تبدو له السماء والأفق والحقول البعيدة والغابات أبسط لونيًّا وبصريًّا. كلما ازداد بُعد كل ما فات عنه، بدا له أكثر بساطة وتحددًا، والعكس صحيح؛ كلما اقترب منه كل ما سبق ازداد تعقيد خطوطه وألوانه.

إذا لم يستطع إنسان أن يُحدِّد مسافة الأشياء، وإذا لم يضع في اعتباره أثناء النظر إليها الأفق الذي تبدو له فيه، وتعرف ببساطة وتحديد كبيرين على خطوط وألوان شيء على درجة كبيرة من الوضوح، فإن السماء اللانهائية ستبدو له أبسط وأوضح الأشياء، وستبدو له الخطوط الأعقد للأفق أقل وضوحًا من السماء. ستبدو له المنازل والأشجار أعقد، وستبدو له رؤية ألوانها أصعب. ستبدو له رؤية يده الممدودة أمام عينه أصعب، وأخيرًا سيبدو له أن الضوء ذاته هو أصعب ما يمكنه رؤيته.

ألا يحدث الأمر ذاته مع المعرفة الزائفة للإنسان؟ الأمر غير القابل للشك فيه؛ ألا وهو وعيه العقلي، يبدو له بعيدًا عن متناول معرفته، وذلك لأنه غير بسيط، بينما أبعد الأمور عن متناول معرفته؛ أي المادة غير المحدودة والأبدية، تبدو له أسهل ما يمكنه أن يعرفه، وذلك لأنها في بعدها عنه تبدو له بسيطة.

لكن الأمر على النقيض من ذلك. أول شيء، وأكثر الأمور يقينية هو أن كل إنسان يمكنه أن يعرف، بل ويعرف هذا الخير الذي يسعى إليه. الأمر الذي يلي ذلك في درجة يقينيته هو أنه يعرف هذا العقل الذي يشير له إلى هذا الخير، ثم يعرف جانبه الحيواني الخاضع لهذا العقل، ثم يرى ـ لكن لا يعرف ـ كافة الظواهر الأخرى التي تبدو له داخل إطار الزمان والمكان.

وحده من لديه تصور زائف عن الحياة، يظن أنه يعرف الأشياء الموجودة داخل نطاق الزمان والمكان بصورة أفضل وأدق. في الحقيقة، نحن لا نعرف شيئًا بصورة كلية سوى ما هو خارج نطاق الزمان والمكان؛ ألا وهو خير العقل وقانونه. نعرف الأشياء المادية بدرجة أقل من المعرفة التي يشارك فيها وعينا، ولذلك لا يتحدد الشيء المادي إلا بالمكان والزمان. لذلك أيضًا كلما ازداد تحدد الشيء بالزمان والمكان، قلّت معرفة الإنسان به وفهمه له.

تنتهي معرفة الإنسان الحقيقية بمعرفة شخصيته والجانب الحيواني فيه. يعرف الإنسان جانبه الحيواني الساعي إلى خير شخصيته، والخاضع لقانون العقل بطريقة مختلفة تمامًا عن معرفته لكل ما لا يُشكِّل شخصيته. إنه يعرف نفسه حقًّا في هذا الجانب الحيواني، ويعرف نفسه ليس لأنه كيان زماني ومكاني، بل على النقيض، حيث إن نفسه الزمانية والمكانية مجرد تجلٍّ، ولا يمكنه أن يعرفها أبدًا، بل يعرف نفسه لأنه كيان يتوجب عليه أن يخضع لقانون العقل. إنه يعرف نفسه في هذا الإطار الحيواني ككيان مستقل عن الزمان والمكان. عندما يسأل نفسه عن موضعه داخل نطاق الزمان والمكان، يبدو له قبل أي شيء آخر أنه يقف في منتصف زمن لا نهائي، وأنه في منتصف أرض سطحها في كل مكان، وليس في أي مكان في الآن ذاته. يعرف الإنسان هذه النفس اللازمانية واللامكانية في حد ذاتها معرفة حقيقية، وهذه هي حدود معرفته الحقيقية. كل ما هو موجود خارج نطاق هذه الأنا لا يعرفه الإنسان، ولكن بوسعه أن يلاحظه وحسب ويُكوِّن عنه صورة شرطية مادية.

بعد أن تخلى الإنسان لفترة من الوقت عن معرفة نفسه كمركز عقلاني

ساعٍ إلى الخير؛ أي كيان لا زماني ولا مكاني، يمكنه أن يفترض لبرهة من الوقت أنه جزء من العالم المنظور يتجلى داخل إطار الزمان والمكان. عندما يتأمل نفسه بهذه الطريقة؛ أي ككيان زماني ومكاني مرتبط بكائنات أخرى، يسعى إلى ربط معرفته الداخلية الحقيقية بالملاحظة الخارجية لنفسه، ويُكوِّن عن نفسه تصورًا يرى من خلاله أنه مشابه للآخرين بوجه عام، ومن منطلق هذه المعرفة الشرطية يُكوِّن الإنسان تصورًا خارجيًّا عن الآخرين، لكنه لا يعرفهم.

تنبع استحالة أن يعرف الإنسان الناس معرفة حقيقية من حقيقة أنه لا يرى هؤلاء الناس ككيان واحد، بل يراهم كمئات الأفراد، بل وكآلاف، ويعرف أن أناسًا كانوا موجودين، ولا يزالون، وسيظلون موجودين، لم يعرفهم قَطُّ أو يَرَهم، ولن يعرفهم أو يراهم.

يرى الإنسان أيضًا داخل نطاق الزمان والمكان، بدرجة أبعد عن نفسه، الحيوانات المختلفة عن الناس، كما تختلف بعضها عن بعض. كان من شأن هذه الكائنات أن تصير غير مفهومة تمامًا له لو لم تكن لديه معرفة عن الإنسان بوجه عام، لكن تَوفُّر هذه المعرفة لديه، وصرف انتباهه عن مفهوم الوعي العقلي للإنسان، يجعلانه يُكوِّن تصورًا أيضًا عن الحيوانات، لكنه تصور أقل دقة من تصوره عن الناس بوجه عام. إنه يرى عددًا هائلًا من الحيوانات المتنوعة، وكلما ازدادت أعدادها، قلَّت إمكانية معرفتها بالنسبة له.

إنه يرى النباتات بصورة أبعد إلى نفسه عن كل ما سبق، وهي ظواهر أكبر عددًا، ومن ثَم تزداد عدم إمكانية معرفتها بالنسبة له.

الأجسام غير الحية أبعد من النباتات والحيوانات بالنسبة له، وهي موجودة داخل نطاق الزمان والمكان، وكذلك تختلف الأشكال المادية عن بعضها البعض بدرجة أو تختلف تمامًا. إن درجة فهمه لهذه المادة أقل من فهمه لكل ما فات. إنه لا يبالي بمعرفة أشكال هذه المادة، والأمر لا يتوقف على أنه لا يعرفها، بل إنه يتخيلها وحسب بقدر ما تبدو له المادة لا نهائية داخل نطاق الزمان والمكان.

الفصل الثالث عشر

لا تتزايد إمكانية معرفة الأشياء بحسب تجليها داخل نطاق الزمان والمكان، بل بحسب وحدة القانون الذي نخضع له وتخضع له الأشياء التي ندرسها

ما الذي يمكن أن يكون أوضح من عبارة كـ: الكلب مريض ـ العجل رقيق ـ إنه يحبني ـ الطائر سعيد ـ الجواد خائف ـ إنسان طيب ـ حيوان شرير؟ كل هذه العبارات المهمة المفهومة لا تتحدد داخل إطار الزمان والمكان، بل على النقيض؛ كلما ازدادت درجة عدم فهمنا للقانون الذي تخضع له الظاهرة، ازدادت دقة تَحدُّد الظاهرة بالزمان والمكان. من يقول إنه يفهم قانون الجاذبية الذي تتحرك الأرض والأقمار والشموس وفقًا له؟ يتحدد كسوف الشمس بأقصى درجات الدقة زمانيًّا ومكانيًّا.

الأمر الوحيد الذي نعرفه تمامًا هو حياتنا، وسعينا إلى الخير، والعقل الذي يشير لنا إلى هذا الخير. ما يلي ذلك من حيث درجة موثوقية معرفته هي معرفتنا بشخصيتنا الحيوانية الساعية إلى الخير، والخاضعة لقانون العقل. يمكننا أن نلمس في معرفة شخصيتنا الحيوانية الشروط الزمانية والمكانية، حيث تكون مرئية وملموسة وقابلة للملاحظة، لكنها ليست

مناسبة لأفهامنا. ما يلي ذلك من حيث درجة موثوقية معرفته هو معرفة هذه الشخصيات الحيوانية المشابهة لنا، والتي ندرك فيها سعيًا مشتركًا بيننا صوب الخير، ووعيًا عقليًّا مثل وعينا. بقدر ما تقترب حياة هذه الشخصيات من قوانين حياتنا والسعي صوب الخير والخضوع لقانون العقل، تزداد معرفتنا بها، وبقدر ما تتجلى داخل إطار الزمان والمكان، تقل معرفتنا بها. هكذا هي معرفتنا بأغلب الناس. المعرفة التي تلي ذلك من حيث درجة الموثوقية هي معرفتنا بالحيوانات التي نرى فيها شخصية مشابهة لشخصيتنا الساعية صوب الخير، لكننا نجد صعوبة في أن نجد فيها ما يشبه وعينا العقلي، ومن ثَم يستحيل أن نتعامل معها بالوعي العقلي. تليها النباتات التي نجد صعوبة في أن نجد فيها ما يشبه الشخصية الساعية صوب الخير. في الغالب تبدو لنا هذه الكائنات داخل نطاق الزمان والمكان، ومن ثَم تقل درجة معرفتنا بها.

إننا لا نعرفها إلا بقدر ما نرى فيها شخصيات تشبه شخصيتنا الحيوانية، تسعى مثلها إلى الخير، وتُخضع المادة لقانون العقل المتجلي فيها داخل إطار الزمان والمكان.

الموضوع الأقل ملاءمة لمعرفتنا هو الجمادات المادية التي لا تتسم بشخصية، ونحن لا نجد فيها بالفعل ما يشبه شخصياتنا، ولا نرى فيها سعيًا صوب الخير على الإطلاق، بل نرى فيها التجليات المكانية والزمانية لقوانين العقل الذي تخضع له.

لا تعتمد حقيقة معرفتنا على ملاحظة الأشياء داخل نطاق الزمان والمكان، بل على النقيض؛ كلما ازداد قدر ملاحظتنا للأشياء داخل نطاق الزمان والمكان، قلَّت درجة فهمنا لها.

تنبع معرفتنا بالعالم من وعينا بالسعي صوب الخير، وضرورة إخضاع شخصيتنا الحيوانية للعقل لتحقيق هذا الخير. إذا كان بوسعنا أن نعرف حياة حيوان فهذا بسبب أننا نرى فيها سعيًا صوب الخير، وضرورة الخضوع لقانون العقل الذي يتمثل في صورة قانونه العضوي.

إذا كنا نعرف المادة فهذا بسبب أنه بغض النظر عن أننا لا نفهم خيرها، لكننا نرى فيها على أي حال تلك الظاهرة الموجودة فينا أيضًا؛ ضرورة الخضوع لقانون العقل الذي يوجهها.

معرفة أي شيء بالنسبة لنا هي تحويل معرفتنا بأن الحياة هي سعي صوب الخير يتم بالخضوع لقانون العقل إلى موضوعات أخرى من موضوعات معرفتنا.

لا يمكننا أن ندرك أنفسنا بمعرفة القوانين التي تحكم الحيوانات، لكننا لا نعرف الحيوانات إلا بمعرفة القانون الذي نعرفه في أنفسنا. من الخطأ أيضًا أن نتصور أن بوسعنا أن نعرف أنفسنا بتطبيق قوانين المادة على حياتنا.

كل ما يعرفه الإنسان عن العالم المادي مرهون بمعرفته لنفسه، وبأن يجد في نفسه ثلاث علاقات مختلفة تربطه بالعالم: العلاقة الأولى هي علاقة الوعي العقلي، والثانية هي علاقة الشخصية الحيوانية، والثالثة هي علاقة المادة. إنه يدرك في نفسه هذه العلاقات الثلاث، ولذلك يتمثل أمامه كل ما يراه في العالم دائمًا في ثلاثة مخططات منفصلة: الكائنات العاقلة ـ الحيوانات والنباتات ـ المادة غير الحية.

يرى الإنسان دائمًا هذه الأقسام الثلاثة للأشياء في العالم لأنها مُتضمَّنة داخل وعيه هو شخصيًا. إنه يدرك نفسه كوعي عقلي يُخضِع شخصيته

الحيوانية، ويدرك نفسه ككيان حيواني خاضع لوعيه العقلي، كما يدرك نفسه أيضًا كمادة خاضعة لشخصيته الحيوانية.

الأمر ليس كما يظنون، فنحن لا نستطيع أن نعرف قانون الكائنات العضوية بمعرفة قوانين المادة، ولا يمكننا أن نعرف أنفسنا كحاملين لوعي عقلي بمعرفة قانون الكائنات العضوية، بل الأمر على النقيض. قبل أي شيء يمكننا، بل وعلينا، أن نعرف أنفسنا؛ أي نعرف قانون العقل الذي يجب أن تخضع له شخصيتنا لنحقق خيرنا، وحينها فقط يمكننا، بل ويتوجب علينا أن نعرف قانون شخصيتنا الحيوانية، والشخصيات الشبيهة بها، ثم ما هو أبعد عنا؛ أي قوانين المادة.

علينا أن نعرف أنفسنا، وفي الحقيقة نحن لا نعرف سواها. إن عالم الحيوانات بالنسبة لنا هو بمثابة انعكاس لما نعرفه في أنفسنا. أما العالم المادي فهو بمثابة انعكاس للانعكاس.

تبدو لنا قوانين المادة واضحة بدرجة خاصة لسبب واحد؛ إنها تبدو بسيطة، وهي تبدو كذلك لأنها بعيدة عن قانون حياتنا الذي ندركه.

تبدو لنا القوانين العضوية أيضًا أبسط من قوانين حياتنا بسبب بعدها عنا. لكن الأمر يقتصر على ملاحظتنا لها، لكننا لا نعرفها كما نعرف قانون وعينا العقلي الذي يجب أن نلتزم به.

نحن لا نعرف هذه القوانين أو تلك، بل نراها وحسب، ونلاحظها خارج أنفسنا. نحن لا نعرف سوى قانون وعينا العقلي دون أدنى شك، لأنه لازم لتحقيق خيرنا، ونظرًا لأننا نعيش به لا نستطيع أن نراه، لأنه ليس لديه نقطة الارتكاز التي تجعلنا قادرين على رؤيته.

لو كانت هناك كائنات أسمى تُخضِع وعينا العقلي، كما يُخضع الأخير شخصيتنا الحيوانية، وكما تُخضع شخصيتنا الحيوانية المادة، لاستطاعت هذه الكائنات أن ترى حياتنا العقلية كما يمكننا أن نرى وجودنا الحيواني ووجود المادة.

تبدو الحياة الإنسانية مرتبطة ارتباطًا لا فكاك منه بنوعين من أنواع الوجود تتضمنهما داخل نفسها: وجود الحيوانات والنباتات (الكائنات العضوية) ووجود المادة.

يصنع الإنسان حياته الحقيقية بنفسه، ولا بد أن يعيشها بنفسه، لكن الإنسان لا يستطيع أن يشارك في هذين النوعين من الوجود المرتبطين بالحياة. الجسد والمادة اللذان يشكلانه يوجدان من أنفسهما دون تدخل منه.

يبدو هذان النوعان من الوجود له كما لو أنهما حيوات سابقة عليه، قد انقضتا بالفعل، مُتضمنتين داخل حياته، ويشعر كما لو أنهما ذكريات عن حيوات سالفة.

يمثل هذان النوعان من الحياة لحياة الإنسان الحقيقية مادة عمله، لكنهما ليسا العمل ذاته.

من المفيد للإنسان أن يدرس مادة وأداة عمله، بذلك يستطيع أن يعمل بصورة أفضل. إن دراسة هذين النوعين للحياة المتضمنتين في حياته؛ الحياة الحيوانية والمادة التي تتألف منها الحياة الحيوانية، تكشف له ـ كما لو أنها انعكاس ـ القانون العام لوجوده برمته؛ أي الخضوع لقانون العقل، كما تؤكد له هذه الدراسة ضرورة خضوع شخصيته الحيوانية لقانونه

العقلي، لكن لا يمكن للإنسان، بل ولا يجب عليه، أن يخلط بين المادة والأداة من ناحية، وبين العمل ذاته من ناحية أخرى.

مهما درس الإنسان الحياة المرئية الملموسة التي يلاحظها في الآخرين؛ الحياة التي تجري دون تدخل منه، تظل لغزًا بالنسبة له، ولن يستطيع أبدًا أن يفهم هذه الحياة المجهولة له عن طريق هذه الملاحظات، بل وستظل الملاحظات التي يسجلها بشأن هذه الحياة الغامضة، تحجب عنه هذه الحياة داخل لا نهائية الزمان والمكان، ولن تستطيع هذه الحياة أن تنير له حياته الحقيقية التي تنكشف له في وعيه، والتي تتمثل في خضوع شخصيته الحيوانية، المميزة تمامًا عن بقية الشخصيات التي يعرفها، للقانون العقلي الهادف إلى الوصول إلى خيره الخاص به والمعروف له.

الفصل الرابع عشر

ليست الحياة الإنسانية الحقيقية ما يجري داخل نطاق الزمان والمكان

يدرك الإنسان الحياة في داخله كسعي صوب الخير، يمكن تحقيقه بإخضاع الشخصية الحيوانية لقانون العقل.

إنه لا يعرف ـ ولا يستطيع أن يعرف ـ أي حياة إنسانية أخرى. لا يعرف الإنسان الحياة في الحيوان إلا عندما تكون المادة المُشكِّلة لها خاضعة لقوانينه، ليس ذلك وحسب، بل وخاضعة أيضًا للقانون العضوي الأسمى.

عندما نجد في تركيبة معينة من بعض المواد خضوعًا للقانون العضوي الأسمى، نعترف بالحياة في هذه التركيبة، لكن عندما يغيب هذا الخضوع، أو لا يكون قد بدأ بعدُ أو حتى انتهى، أو لا يكون هناك ما يفصل هذه المادة عن بقية المواد التي لا تعمل فيها سوى قوانين ميكانيكية وكيميائية وفيزيائية، لا نعترف بوجود حياة حيوانية. الأمر ذاته مع البشر الذين يشبهوننا، حيث إننا لا نعترف بأنهم أحياء إلا عندما تخضع الشخصية الحيوانية للقانون العضوي، وبالإضافة إلى ذلك تخضع أيضًا للقانون الأسمى للوعي العقلي.

عندما يغيب خضوع الشخصية لقانون العقل سرعان ما يعمل قانون الشخصية وحسب، وهو القانون الذي يُخضِع المادة التي تؤلفه لنفسه، وحينها لا نعرف ولا نرى حياة إنسانية لا في الآخرين ولا في أنفسنا، ولا نرى حياة حيوانية في المادة التي لا تعود تخضع إلا لقانونها.

مهما كانت قوة وسرعة حركات الإنسان في حالة اهتياج؛ سواء في حالة جنون أو نوبة عذاب أو أثناء سُكره أو حتى في حالة عواطف متفجرة، لا نعترف بالإنسان حيًّا، ولا نعامله معاملتنا لإنسان حي، بل نعترف بإمكانية وجود حياة فيه وحسب. لكن مهما كان الإنسان ضعيفًا وساكنًا، إذا رأينا أن شخصيته الحيوانية خاضعة للعقل نعترف بأنه حي، ونتعامل معه على هذا الأساس.

لا يمكننا أن نفهم الحياة بطريقة أخرى إلا كخضوعٍ للشخصية الحيوانية للعقل.

تظهر هذه الحياة داخل نطاق الزمان والمكان، لكن شروط الزمان والمكان لا تحددها، بل كل ما يحدث هو أن تخضع الشخصية الحيوانية تدريجيًّا للعقل. تحديد الحياة بشروط الزمان والمكان يماثل أن نحدد ارتفاع شيء بطوله وعرضه.

الحركة الصاعدة لجسم ما يتحرك كذلك في مستوى أفقي، تكون مشابهة تمامًا لعلاقة الحياة الإنسانية الحقيقية بحياة الشخصية الحيوانية، أو علاقة الحياة الحقيقية بالحياة الزمانية والمكانية. لا تُحدَّد حركة الجسم إلى أعلى حركته في المستوى الأفقي، ولا يمكن أن تزيد أو تنقص بسببها. هكذا هو الأمر أيضًا مع تحديد الحياة الإنسانية. تظهر الحياة الحقيقية دائمًا

في الشخصية، لكنها لا تعتمد عليها، ولا يمكن أن تزيد أو تنقص بسبب وجود شخصية أو أخرى.

لا يمكن للشروط الزمانية والمكانية التي تكتنف شخصية الإنسان الحيوانية أن تؤثر على الحياة الحقيقية، المتمثلة في إخضاع الشخصية الحيوانية للوعي العقلي.

ليس بمقدور الإنسان الراغب في العيش أن يقمع أو يطلق حركة وجوده الزماني والمكاني، لكن حياته الحقيقية؛ أي تحقيق خيره بالخضوع للعقل، تجري بصورة مستقلة عن هذه الحركات الزمانية والمكانية المرئية. تتمثل الحياة الإنسانية في هذا التحقق المتزايد لهذا الخير عبر الخضوع للعقل. في غياب هذا الخضوع المتزايد، تمضي الحياة الإنسانية عبر اتجاهَي الزمان والمكان الواضحين، بينما الوجود واحد. تظهر هذه الحركة صوب الأعلى التي تمثل الخضوع المتزايد للعقل بين قوتين، وتتأسس علاقة واحدة تنتج حركة ترفع وجود الإنسان بدرجة أو بأخرى إلى مجال الحياة.

القوى الزمانية والمكانية هي قوى مُحدَّدة ونهائية ومتنافرة مع مفهوم الحياة، أما قوة السعي صوب الخير عبر الخضوع للعقل، فهي قوة متزايدة العلو، وهي قوة الحياة ذاتها التي ليست لها حدود زمانية أو مكانية.

يتصور الإنسان أن حياته تتوقف وتتشعب، لكن هذه التوقفات والتقلبات ليست سوى خداع للوعي، يشبه الخداع الذي تتعرض له حواس الإنسان الخارجية. لا يحدث، ولا يمكن أن يحدث أن تتأخر الحياة الحقيقية أو تتعرض لتقلبات، بل كل ما في الأمر أننا نتصور حدوث ذلك وحسب في ظل نظرة زائفة إلى الحياة.

يبدأ الإنسان في عيش حياة حقيقية؛ أي أن يعلو بمقدار عن الحياة الحيوانية، ويرى من هذا العلو خداع وجوده الحيواني الذي سينتهي لا محالة بالموت، ويرى أن وجوده في الجسد محاط بالهاوية من كل جانب، وفي ظل عدم اعترافه بأن هذا الارتفاع وهذا العلو هو الحياة ذاتها يشعر بالهلع مما يراه من على هذا الارتفاع. وبدلًا من أن يعترف بالقوة التي ترفعه إلى هذا الارتفاع؛ أي بحياته، ويسير عبر الطريق الذي انكشف له، يشعر بالهلع من المنظر من فوق، ويهبط عن عمد بقدر ما يستطيع، حتى لا يرى هذه الجروف التي انكشفت له. لكن سرعان ما ترفعه قوة الوعي العقلي مجددًا، ويرى المنظر ذاته مجددًا؛ فيشعر بالهلع، ويهبط صوب الأرض حتى يزول هذا الهلع. تستمر هذه العملية ما دام لم يعترف بعدُ بأنه إذا أراد التخلص من هلع حركة هذه الحياة الفانية التي تجذبه إليها، عليه أن يفهم أن حركته في الجسد؛ أي أن وجوده الزماني والمكاني ليس هو حياته، بل إن حياته ليست سوى هذا الارتفاع، وأنه في إخضاع شخصيته لقانون العقل وحسب تتمثل إمكانية أن ينال خير حياته. عليه أن يفهم أن لديه أجنحة ترفعه فوق هذه الهاوية، وإذا لم تكن لديه هذه الأجنحة لما استطاع قَطُّ أن يرتفع إلى هذا العلو، ولما رأى هذه الهاوية. عليه أن يثق في أجنحته ويطير إلى حيث تأخذه.

نقص الإيمان وحده هو ما يؤدي إلى هذه الظواهر المتعلقة ببعض تقلبات الحياة الحقيقية وتوقفها وتشعب الوعي والتي تبدو غريبة في البداية.

وحده الإنسان الذي يفهم حياته باعتبارها وجوده الحيواني الكامن داخل حدود المكان والزمان، هو من يظن أن الوعي العقلي قد يتجلى

أحيانًا في الوجود الحيواني. بالنظر إلى تجلي الوعي العقلي في داخله يسأل الإنسان نفسه متى وما هي الظروف التي تجلَّى فيها الوعي العقلي في داخله. لكن مهما بحث الإنسان في ماضيه فلن يجد أبدًا هذه التجليات الزمانية للوعي العقلي. سيبدو له دائمًا أمر من اثنين: إما أن ذلك لم يحدث قَطُّ، أو أنه كان موجودًا دائمًا. إذا بدا له أنه مرت فترات غاب فيها الوعي العقلي، فهذا لا يحدث إلا لأنه لا يعترف بأن حياته هي حياة الوعي العقلي. عندما يفهم حياته باعتبارها وجوده الحيواني وحسب، المُحدَّد بالظروف الزمانية والمكانية، يريد الإنسان أن يقيس يقظة ونشاط الوعي العقلي بهذا المقياس، ويسأل نفسه: متى وجدت نفسي متسمًا بهذا الوعي العقلي؟ وكم استغرق حدوث ذلك؟ وما هي الظروف التي رافقت حدوث ذلك؟ لكن الفجوات الموجودة بين صحوات الحياة العقلية لا توجد إلا لإنسان يفهم حياته باعتبارها حياة الشخصية الحيوانية وحسب. أما الإنسان الذي يفهم حياته بحسب ما هي موجودة حقًّا؛ أي في نشاط الوعي العقلي، لا يمكن أن يرى مثل هذه الفجوات.

الحياة العقلية موجودة، بل إنه ليس هناك وجود لسواها، وسيان بالنسبة لها الفترات الزمنية، سواء امتدت دقيقة واحدة أو 50000 عام، وذلك لأنه ليس هناك زمن بالنسبة لها. حياة الإنسان الحقيقية هي تلك الحياة التي يُؤلِّف منها مفهومًا عن كل حياة أخرى؛ أي هي السعي صوب الخير الذي يمكن تحقيقه بإخضاع المرء شخصيته لقانون العقل. لا العقل ولا درجة التبعية له يمكن أن يتحددا بالزمان والمكان. تكتمل حياة الإنسان الحقيقية خارج نطاق الزمان والمكان.

الفصل الخامس عشر

إنكار خير الشخصية الحيوانية هو قانون الحياة الإنسانية

الحياة هي سعي إلى الخير، والسعي إلى الخير هو الحياة. هكذا فهم الناس جميعًا الحياة، ولا يزالون يفهمونها، وسيظلون يفهمونها بهذه الطريقة. لذلك الحياة الإنسانية هي سعي صوب الخير الإنساني، والسعي صوب الخير الإنساني هو الحياة الإنسانية. أما الحشود غير المفكرة فتفهم خير الإنسان بوصفه خير الشخصية الإنسانية.

بإزالة العلم الزائف لمفهوم الخير من تعريف الحياة تُفهم الحياة بمعنى الوجود الحيواني، ولذلك لا يرى المرء خير الحياة إلا في الخير الحيواني ومن ثَم يتحد بوهم الجموع.

في كلتا الحالتين يحدث الوهم من خلط الشخصية أو الفردية كما يسميها العلم بالوعي العقلي. يتضمن الوعي العقلي الشخصية في داخله، بينما لا تتضمن الشخصية وعيًا عقليًّا في داخلها. الشخصية سمة الحيوان والإنسان ككيان حيواني، أما الوعي العقلي فهو سمة الإنسان وحسب.

لا يمكن للكيان الحيواني أن يعيش إلا لجسده، ولا شيء يمنعه من

ذلك. إنه يُرضي شخصيته، ويَخدم جنسه تلقائيًا، ولا يعرف أنه شخصية، بينما لا يمكن للإنسان العاقل أن يعيش من أجل جسده وحسب. لا يمكنه أن يعيش بهذه الصورة لأنه يعرف أنه شخصية، ومن ثَم يعرف أن الكائنات الأخرى هي شخصيات مثله أيضًا، وهو يعرف كل ما يجب أن يحدث إثر علاقات هذه الشخصيات بعضها ببعض.

إذا حدث أن سعى إنسان إلى خير شخصيته وحسب، وأحب نفسه وشخصيته وحسب، لما عرف أن ثمة كائنات أخرى تحب نفسها أيضًا كما هو الأمر مع الحيوانات. لكن إذا عرف الإنسان أنه شخصية تسعى إلى ما يسعى إليه كل من حولها، لا يعود بإمكانه أن يسعى صوب هذا الخير الذي يبدو شرًّا لوعيه العقلي، ولا يمكن أن تصير حياته سعيًا صوب خير الشخصية وحسب. كل ما في الأمر أنه يبدو له أحيانًا أن سعيه صوب الخير يهدف إلى إشباع متطلبات الشخصية الحيوانية. يحدث هذا الخداع بسبب أن الإنسان يرى ما يحدث في كيانه الحيواني بوصفه هدفًا لنشاط وعيه العقلي. الأمر مشابه لما يحدث مع إنسان يسترشد بما رآه في حلم ليعرف ماذا يفعل في يقظته.

إذا تدعّم هذا الوهم بالتعاليم الزائفة، يحدث خلط داخل الإنسان بين الشخصية والوعي العقلي.

لكن الوعي العقلي يكشف للإنسان دائمًا أن إرضاء متطلبات شخصيته الحيوانية لا يمكن أن يكون خيرًا له، ومن ثَم لا يمكن أن يكون حياته، وهو يجذبه لا محالة إلى ذلك الخير، ومن ثَم إلى تلك الحياة الملائمة له، ولا يخلطها بالشخصية الحيوانية.

عادة ما يفكرون ويقولون إن إنكار خير الشخصية هو مأثرة وبطولة للإنسان. إنه ليس مأثرة ولا بطولة، بل هو شرط حتمي لحياة الإنسان. في الآن ذاته ما إن يعي الإنسان ذاته كشخصية منفصلة عن العالم برمته، حتى يدرك الشخصيات الأخرى ويفهم كيف أنها منفصلة عن العالم برمته أيضًا، ويدرك الرابط الذي يربطها به وخير الشخصية المخادع، كما يدرك أن الخير الحقيقي هو ما يمكنه أن يُرضي وعيه العقلي وحسب.

يرى الحيوان النشاط الذي لا يهدف إلى خير الشخصية، بل إلى معارضته مباشرة، إنكارًا للحياة، بينما يرى الإنسان الأمر على النقيض. نشاط الإنسان الموجَّه إلى تحقيق خير الشخصية وحسب هو إنكار كامل للحياة الإنسانية.

خير الشخصية واستمرار الجنس، هما أسمى هدف للحياة بالنسبة للحيوان الذي لا يتسم بوعي عقلي يكشف له عن بلية ونهائية وجوده. بينما يرى الإنسان الشخصية بوصفها درجة من درجات الوجود وحسب، ينكشف له معها خير حياته، وهو خير لا يتسق مع خير الشخصية.

بالنسبة للإنسان، وعي الشخصية ليس هو الحياة، لكنه الحد الذي تبدأ منه حياته المؤلَّفة من التحقيق المتزايد للخير الملائم له، بمعزل عن خير شخصيته الحيوانية.

بحسب المفهوم الشائع للحياة، فإن الحياة الإنسانية هي مساحة زمنية ممتدة بين ولادة الشخصية الحيوانية وموتها. لكن ما فات ليس هو الحياة الإنسانية، بل هو مجرد وجود للإنسان كشخصية حيوانية. الحياة الإنسانية هي شيء آخر، يتجلى في صورة وجود حيواني، تمامًا كما تتجلى الحياة العضوية في وجود المادة.

يرى الإنسان الأهداف المرئية للشخصية أهدافًا لحياته قبل أي شيء آخر. هذه الأهداف مرئية، ولذلك تبدو مفهومة.

تبدو له الأهداف التي يشير إليها وعيه العقلي غير مفهومة لأنها غير مرئية. في البداية يشعر الإنسان بالهلع من إنكار ما هو مرئي والسعي صوب ما هو غير مرئي.

تبدو متطلبات الشخصية الحيوانية المرئية التي تعلن عن نفسها بنفسها، ويراها الإنسان في نفسه وفي الآخرين، بسيطة وواضحة للإنسان الذي أفسدته تعاليم العالم الزائفة، بينما تبدو له متطلبات الوعي العقلي الجديدة غير المرئية متناقضة، وتبدو مسألة إرضائها؛ العملية التي لا تتم من تلقاء نفسها، بل يجب أن يتمها الإنسان بنفسه، معقدة وغير واضحة. من المؤلم والمريع للإنسان أن ينكر التصور المرئي للحياة، ويُسلِّم نفسه لما هو غير مرئي لوعيه، تمامًا مثلما يمكن أن يشعر الطفل الوليد بالألم والرعب إذا أمكن له أن يشعر بولادته، ولكن ليس بوسعنا أن نتجنب أن نرى بوضوح أن هذا التصور يدفعنا صوب الموت، بينما الوعي غير المرئي هو وحده ما يهبنا الحياة.

الفصل السادس عشر

الشخصية الحيوانية أداة الحياة

لا يمكن لأي مجادلات فكرية أن تخفي عن الإنسان هذه الحقيقة الجلية المؤكدة، التي مفادها أن وجوده الشخصي متجه صوب الهلاك باستمرار، ساعٍ إلى الموت، ومن ثَم تستحيل الحياة في ظل شخصيته الحيوانية.

لا يمكن للإنسان ألا يرى أن وجوده الشخصي، منذ لحظة الولادة، مرورًا بالطفولة، وحتى الشيخوخة والموت، ليس سوى هدر مستمر وانتقاص من هذه الشخصية الحيوانية، ينتهي بموت لا مفر منه، ومن ثَم إذا اعتبر الشخصية هي حياته، بما تتضمنه الشخصية من رغبة في الزيادة المستمرة وعدم التعرض للفناء، لا يمكن ألا يعاني من تناقض ومعاناة مستمرين، ولا يمكن للأمر إلا أن يكون شرًّا، حيث إن المغزى الوحيد لحياته هو السعي صوب الخير.

مهما كان الخير الحقيقي للإنسان فهو لا محالة إنكار خير الشخصية الحيوانية. هذا الإنكار هو قانون الحياة الإنسانية. إذا لم يتم ذلك طوعًا، في صورة خضوع للوعي العقلي، فسيتم في كل إنسان قسرًا بالموت الجسدي لشخصيته الحيوانية، حينما لا يعود يرغب إلا في أمر واحد من فرط

المعاناة؛ التخلص من هذا الوعي المُعذِّب بالشخصية الفانية، والانتقال إلى صورة أخرى من صور الوجود.

يأتي الإنسان للحياة، وحياة الإنسان ذاتها تشبه ما يحدث مع الجواد الذي يُخرجه صاحبه من الإسطبل ويسرجه. عندما تخرج الجياد من الإسطبل وترى النور وتتنفس الحرية يبدو لها أن الحياة تتمثل في هذه الحرية، لكنهم يسرجونها ويحركونها. تشم رائحة الثقل الكامن وراءها، وإذا ظنت أن حياتها تتمثل في الهروب صوب الحرية، تبدأ في تلقي الضرب وتسقط، بل وتُقتل أحيانًا. لكن إذا لم تُقتل لا يصير أمامها سوى مخرجين وحسب: إما أن تمضي ويحالفها الحظ، وترى أن الثقل ليس عظيمًا، وأن الرحلة لا تجلب العذاب بل السرور، أو تصارع لتُخلِّص نفسها من يد صاحبها، وحينها يأخذها صاحبها إلى حجر الرحى ويربطها إلى الجدار بأنشوطة، ويبدأ الحجر في الدوران، ومن ثَم تسير في الظلام صوب بقعة واحدة، شاعرة بالمعاناة، لكن قواها لا تضيع بلا جدوى. إنها تؤدي عملها القسري، ويتحقق القانون بها. سيكون الفرق الوحيد هو أنها سوف تعمل بسرور في ظل الاختيار الأول، بينما ستعمل قسرًا وتتعذب في ظل الاختيار الثاني.

يتساءل الناس الذين يعترفون بأن وجودهم الحيواني هو الحياة قائلين: «ولكن ما الجدوى من الشخصية التي يتوجب عليَّ أنا الإنسان أن أنكرها لأنال حياتي؟ لماذا وُهِب الإنسان هذا الوعي بالشخصية إذا كان يحول دون تجلي حياته الحقيقية؟».

يمكن أن نجيب عن هذا السؤال بسؤال آخر يشبهه، يمكن أن يطرحه حيوان على نفسه يسعى إلى أهدافه المتمثلة في الحفاظ على حياته ونوعه:

«ما الهدف من هذه المادة وقوانينها الميكانيكية والفيزيائية والكيميائية التي يتوجب عليَّ أن أصارعها لأحقق أهدافي؟ إذا كانت مهمتي هي تحقيق الحياة الحيوانية، فما الهدف إذن من هذه العوائق التي يتوجب عليَّ أن أتغلب عليها؟».

يتضح لنا أن المادة برمتها وقوانينها التي يصارعها الحيوان والتي يخضع لها لتحقيق شخصيته الحيوانية ليست عوائق، بل هي وسائل تُمكِّن الحيوانات من تحقيق أهدافها. لا يمكن للحيوان أن يعيش إلا بالمادة وتعقيداتها وقوانينها. هكذا هو الأمر أيضًا في حياة الإنسان. الشخصية الحيوانية التي يجد فيها الإنسان نفسه، والمدعو إلى إخضاعها لوعيه العقلي ليست عائقًا، بل وسيلة يُمْكِنه بها أن يُحقِّق هدفه؛ أي خيره. الشخصية الحيوانية بالنسبة للإنسان هي أداة يعمل بها. الشخصية الحيوانية بالنسبة للإنسان هي مجرفة وُهِبت للكيان العقلي ليحفر بها، وأثناء الحفر يشحذها ويسنها ويستخدمها بدلًا من تنظيفها والاحتفاظ بها بلا عمل. «فَإِنَّ مَنْ أَرَادَ أَنْ يُخَلِّصَ نَفْسَهُ يُهْلِكُهَا، وَمَنْ يُهْلِكُ نَفْسَهُ مِنْ أَجْلِي يَجِدُهَا»[1].

أوضحت هذه العبارة أنه يستحيل تخليص[2] النفس، بل يتوجب إهلاكها وعدم التوقف عن إهلاكها، كما أوضحت أنه من خلال إنكار ما يَهلك وما يجب أن يَهلك؛ أي شخصيتنا الحيوانية، نحقق حياتنا الحقيقية التي لا تهلك ولا يمكنها أن تهلك. قيل إن حياتنا الحقيقية لا تبدأ إلا عندما نتوقف عن اعتبار ما لم تكن حياة، وما لا يمكنها أن تكون حياة هي الحياة؛

(1) متى (16: 25).

(2) الكلمة المستخدمة في النص الروسي في الآية والتعليق بمعنى: «يحفظ»، ولكن نظرًا لأنها في الترجمة العربية للإنجيل «يُخلِّص» آثرت إبقاءها هكذا.

أي وجودنا الحيواني. قيل أيضًا إن من يحفظ مجرفته من العمل، وهي الموجودة لديه بهدف أن ينال طعامه من الأرض؛ الطعام الذي يساعده على الاستمرار، يفقد طعامه وحياته على السواء.

الفصل السابع عشر

الولادة بالروح

قال المسيح: «إن كان أحد لا يولد من فوق لا يقدر أن يرى ملكوت اللّٰه»[1]. لا يعني ذلك أن شخصًا دفع شخصًا آخر لأن يُولد من جديد، لكن الإنسان سيجد نفسه مدفوعًا لا محالة إلى ذلك. إذا أراد إنسان أن ينال حياته عليه أن يُولد من جديد في هذا الوجود الذي ندعوه «الوعي العقلاني».

وُهِب الإنسان وعيًا عقلانيًّا لتصير حياته مُمثَّلة في هذا الخير الذي يكشفه له وعيه العقلاني. من جعل حياته مُمثَّلة في هذا الخير ينال الحياة، ومن لا يفترض أن الحياة تتمثل في ذلك، بل يظن أنها تتمثل في الشخصية الحيوانية، يحرم نفسه بنفسه من الحياة. هذه هي الحياة التي قدَّمها لنا المسيح.

يسمع المعترفون بأن حياتهم تتمثل في السعي صوب خير الشخصية هذه الكلمات، ولا يقتصر الأمر على أنهم لا يعترفون بها، بل إنهم لا يفهمونها إطلاقًا، ولا يمكنهم أن يفهموها. يحدث أمر من اثنين: إما تبدو

(1) يوحنا (3: 3).

لهم تافهة، أو يبدو مغزاها ضئيلًا، أو تعني مثلًا أن تكتنف المرء حالة مزاجية عاطفية أو صوفية، كما يحبون أن يطلقوا عليها. إنهم غير قادرين على فهم مغزى هذه الكلمات التي تُعبِّر عن تفسير غير ملائم لحالتهم المزاجية، تمامًا كما لا يمكن للبذرة الجافة التي لم تنبت بعد أن تفهم حالة البذرة الرطبة التي بدأت تنبت فعلًا. الشمس بالنسبة للبذور الجافة التي تلقي ضوءها بحسب هذه الكلمات على البذور التي جاءت للحياة، هي محض مصادفة غير مهمة تبعث مزيدًا من الدفء والضوء، أما بالنسبة للبذور التي نبتت فهي مصدر إنباتها وحياتها. الأمر كذلك بالنسبة لمن لم يدركوا بعد التناقض الداخلي بين الشخصية الحيوانية والوعي العقلي، حيث إن ضوء العقل بالنسبة لهم مجرد مصادفة غير مهمة، أو كلمات عاطفية وصوفية. تجلب الشمس الحياة لمن وُلدت الحياة بداخلهم وحسب.

لم يعلم أحد على الإطلاق، سواء إنسان أو حيوان أو حتى نبات كيف تتم هذه الولادة أو لماذا أو متى أو أين. قال المسيح عن ذلك إن أحدًا لا يعرفه ولا يستطيع أن يعرفه.

في حقيقة الأمر ما الذي يمكن أن يعرفه إنسان عن كيفية ولادة الحياة بداخله؟ الحياة هي نور البشر. الحياة هي الحياة، هي جوهر كل شيء؛ فكيف يمكن إذن أن يعرف الإنسان كيف تولد بداخله؟ ما يولد ويموت في الإنسان هو ما لا يعيش، ما يتجلى في المكان والزمان. الحياة الحقيقية في حالة وجود، ولذلك لا يمكن أن تولد أو تموت بالنسبة للإنسان.



الفصل الثامن عشر

ما الذي يتطلبه الوعي العقلي؟

لا شك أن الوعي العقلي يقول للإنسان إن الخير لا يمكن أن يتحقق له، أي لشخصه في ظل هذا الترتيب للعالم الذي يراه من واقع شخصيته. حياته هي رغبة في الخير لذاته؛ لنفسه تحديدًا، وهو يرى أن تحقيق هذا الخير غير ممكن. لكن الغريب في الأمر هو الآتي: بالرغم من أنه لا يرى بصورة غير قابلة للشك أنه لا يستطيع تحقيق هذا الخير لنفسه، فإنه يعيش بهذه الرغبة الوحيدة المتمثلة في تحقيق هذا الخير المستحيل؛ خيره وحسب.

إذا لم يقتل إنسان استيقظ فيه وعيه العقلي نفسه، وأقول هنا استيقظ وحسب، لكنه لم يُخضِع بعد شخصيته الحيوانية، فإنه يعيش لأجل هدف واحد وحسب؛ أن يحقق خيره المستحيل؛ أي أن يعيش ويسلك من أجل أن يصيبه الخير هو وحده، وأن يسلك ويعيش الناس جميعًا، بل وكافة الكائنات من أجل هدف واحد؛ أن يكون هو وحده بخير، وأن تكتنفه المتعة ولا يشعر بمعاناة، ولا يقترب منه موت.

المدهش هو أنه بغض النظر عن أن التجربة، وملاحظة الإنسان لحياة كل من حوله، والعقل، يكشفون لصاحبهم بصورة لا تقبل الشك عن عدم

قدرة كل إنسان على تحقيق ذلك، وعدم إمكانية إجبار بقية الكائنات الحية على التوقف عن حب أنفسها والاقتصار على حبه هو وحسب، إلا أن حياة كل إنسان تنحصر في محاولة إجبار بقية الكائنات بالثروة أو السلطة أو العظمة أو المجد أو المداهنة أو الخداع، أو أي وسيلة أخرى، على ألا تعيش من أجل نفسها، بل من أجله هو وحده، وإجبارها على ألا تحب أنفسها، بل تحبه هو وحده.

لقد فعل الناس، ولا يزالون يفعلون، كل ما بوسعهم لتحقيق هذا الهدف، وفي الآن ذاته يدركون أنهم يريدون المستحيل. يقول الإنسان لنفسه: «حياتي هي سعي إلى الخير. لا يمكن أن يصيبني الخير أنا وحدي إلا إذا أحبني الجميع أكثر من حبهم لأنفسهم، لكن كافة الكائنات تحب نفسها وحسب، ومن ثَم فإن كل ما أفعله لأجبرهم على محبتي لا طائل منه، وفي الآن ذاته لا يمكنني أن أفعل شيئًا آخر».

تمر قرون، ويعرف الناس المسافة التي تفصلهم عن الأجرام السمائية، ويحددون أوزانها، ويعرفون تركيب الشمس والنجوم، ويظل السؤال المتعلق بكيفية التوفيق بين متطلبات الخير الشخصي وحياة العالم التي تحول دون تحقيق هذا الخير، بلا إجابة لدى غالبية الناس، كما كان منذ 5000 عام مضت.

يقول الوعي العقلي لكل إنسان: «نعم، يمكنك أن تحقق خيرك ولكن هذا مرهون بأن يحبك الناس جميعًا أكثر من حبهم لأنفسهم». ويكشف الوعي العقلي للإنسان أن هذا غير ممكن، لأنهم جميعًا يحبون أنفسهم وحسب. لذلك يجد المرء الطريق مسدودًا أمام تحقيق الخير الوحيد الذي كشفه الوعي العقلي له.

تمر قرون، ويظل لغز خير حياة الإنسان مُستعصيًا على الحل بالنسبة للغالبية. في الآن ذاته يتبين أن اللغز قد تم حله منذ قديم الزمن. يبدو الأمر مدهشًا جدًّا لكل من يعرفون حل اللغز، إنهم لم يعرفوا الحل بأنفسهم، حيث يبدو لهم أنهم كانوا يعرفونه منذ زمن، لكنهم نسوه وحسب. اتضح أن حل اللغز الذي بدا شديد الصعوبة وسط كل هذه التعاليم الزائفة لعالمنا شديد البساطة.

أتريد أن يعيش الناس جميعًا من أجلك وأن يحبوك أكثر من محبتهم لأنفسهم؟ ثمة وضع واحد يمكن أن تتحقق فيه رغبتك؛ ألا وهو أن تعيش كافة الكائنات من أجل خير الآخرين، ويحبوا الآخرين أكثر من محبتهم لأنفسهم. حينها فقط ستجد نفسك محبوبًا، وسيجد الآخرون أنفسهم محبوبين أيضًا، وستجد نفسك كواحد منهم قد نلت خيرك الذي تريده. إذا كان تحقيق خيرك مرهونًا بأن يحبك الآخرون جميعًا أكثر من محبتهم لأنفسهم، فلا بد أيضًا بوصفك كائنًا حيًّا أن تحب الآخرين أكثر من محبتك لنفسك.

بتحقق هذا الشرط وحسب يمكن أن يجد الإنسان خيره وحياته، ويزول ما كان يُسمِّم حياته، وتزول الحرب المستعرة بين الكائنات، ويتم القضاء على عذاب المعاناة والخوف من الموت.

ما الذي جعل تحقيق خير الوجود الشخصي غير ممكن؟ أولًا: الصراع بين الكائنات التي يبحث كل منها عن خيره الشخصي. ثانيًا: خداع المتعة التي تقود الإنسان إلى إهدار الحياة والإفراط وصنوف المعاناة. ثالثًا: الموت. لكن يلزم أن نفترض فكريًّا أن بوسع الإنسان أن يُبدِّل بسعيه إلى خيره الشخصي سعيًا إلى خير بقية الكائنات، ليقضي على عدم إمكانية

تحقيق الخير، ويجعله ممكنًا. بالنظر إلى العالم من منظوره الشخصي عن الحياة بوصفه سعيًا إلى الخير الشخصي، رأى الإنسان في العالم صراعًا غير عقلي بين الكائنات، تدمر فيه بعضها بعضًا. لكن يلزم أن يعترف الإنسان بأن حياته تتمثل في السعي إلى تحقيق خير الآخرين، ليرى العالم بصورة مختلفة تمامًا؛ سيرى بجانب الظواهر الاعتباطية الخاصة بصراع الكائنات خدمة مستمرة وتدريجية بين هذه الكائنات أيضًا؛ خدمة لا يمكن في غيابها تصور وجود العالم.

إذا افترضنا ذلك سنجد نشاطًا آخر يستبدل كل النشاط المجنون السالف الموجَّه إلى خير الشخصية، وهو نشاط يتسق مع قوانين العالم ويهدف إلى تحقيق أكبر قدر ممكن من خير الشخص والعالم على السواء.

كان السبب الآخر لبلية الحياة الشخصية وعدم إمكانية تحقيق خير الفرد، هو خداع المتع الشخصية التي تُبدِّد الحياة وتؤدي إلى الإفراط وصنوف المعاناة المختلفة. يلزم أن يعترف الإنسان بأن حياته تتمثل في السعي إلى تحقيق خير الآخرين، وحينها يزول هذا التعطش الخادع للمتع، ويُستبدل بالسلوك الخامل المُعذِّب الموجَّه إلى ملء برميل لا قعر له، سلوك آخر يتسق مع قوانين العقل ويُدعِّم حياة الآخرين؛ الأمر الضروري لتحقيق خيره. يُستبدل كذلك بعذاب المعاناة الشخصية التي تدمر الحياة، شعور بالتعاطف مع الآخرين يستثير دون شك أكثر الأنشطة إثمارًا وبهجة.

كان السبب الثالث لبلية الحياة الشخصية هو الخوف من الموت. يلزم أن يعترف الإنسان بأن حياته لا تتمثل في شخصيته الحيوانية بل في خير الآخرين، وحينها يزول شبح الموت من أمام عينيه إلى الأبد.

لا يصيب المرءَ خوف من الموت إلا من خوفه من فقدان خير الحياة المتمثل في الموت الجسدي. إذا افترض الإنسان خيره في خير الآخرين، أي أن يحبهم أكثر من محبته لنفسه، لما بدا له الموت توقفًا للخير والحياة كما يتصورهما الإنسان الذي يحيا من أجل نفسه وحسب. لا يمكن أن يتمثل الموت بالنسبة لمن يحيا من أجل الآخرين كقضاء على الخير والحياة، وذلك لأن الأمر لا يقتصر على أن خير وحياة الآخرين لا تقضي على حياة الإنسان الذي يخدمهما، بل إنه يحدث كثيرًا أن يتم تدعيمهما وزيادة قدرهما بالتضحية التي يقدمها المرء بحياته من أجل الآخرين.

الفصل التاسع عشر

تأكيد مطالب الوعي العقلي

يقول الوعي الإنساني المشوش والضال: «لكن هذه ليست حياة. هذا إنكار للحياة وانتحار». يجيب الوعي العقلي قائلًا: «لا أعرف شيئًا عما تقول. أعرف أن هذه هي حياة الإنسان، وليس هناك غيرها، ولا يمكن أن يكون غيرها. الأكثر من ذلك أني أعرف أن هذه الحياة هي حياة وخير بالنسبة لصاحبها وللعالم كله. أعرف أنه في ظل النظرة السالفة للعالم كانت حياتي وحياة كل ما هو موجود شرًّا وجنونًا، أما في ظل هذه النظرة للعالم تصير حياتي وحياة كل ما هو موجود تحقيقًا لقانون العقل الكامن في الإنسان. أعرف أنه لا يمكن تحقيق أكبر قدر ممكن من خير حياة كل كائن إلا بهذا القانون الذي يقضي بخدمة كل شخص للجميع، ومن ثَم خدمة الجميع لكل شخص».

يجيب الوعي الإنساني المشوش والضال:

لكن حتى إذا أمكن تصور هذا القانون فإنه لا ينطبق على الواقع. الوضع الآن هو أن الآخرين لا يحبونني أكثر من محبتهم لأنفسهم، ومن ثَم لا يمكنني أن أحبهم أكثر من محبتي لنفسي، وأن أحرم نفسي من المتع

لأجلهم، وأُعرِّض نفسي لصنوف المعاناة. أنا لا أبالي بقانون العقل. أنا أريد تحقيق المتع لنفسي وأريد أن أُخلِّصها من صنوف المعاناة. لكن الآن ثمة صراعٌ مندلعٌ بين الكائنات، وإذا كففت وحدي عن الصراع سيسحقني الآخرون. سيان لي بأي طريقة فكرية تُحقِّق أكبر قدر من الخير للجميع، لكني الآن في حاجة إلى أكبر قدر من الخير الحقيقي لنفسي.

لا أعرف شيئًا عن ذلك. كل ما أعرفه هو أن ما تُسميه متعك لن تكون خيرًا لك إلا عندما لا تأخذها بنفسك، بل يعطيها لك الآخرون. إذا حدث وأخذتها بنفسك لن تجلب لك سوى الإفراط وصنوف المعاناة كما هو الأمر الآن. لن تتخلص فعلًا من صنوف المعاناة الحقيقية إلا عندما يُخلِّصك الآخرون منها، لا أنت كما هو الأمر الآن حيث تَحرم نفسك الحياة نفسها بخوفك من صنوف المعاناة المتخيلة.

أعرف أن حياة الشخصية التي تتطلب أن يحبني الجميع وحدي وأن أحب نفسي وحسب، والتي يمكنني في ظلها أن أنال أكبر قدر من المتع، وأتخلص من صنوف المعاناة والموت، هي في حقيقة الأمر أعظم معاناة تستمر دائمًا. كلما أحببت نفسي وصارعت الآخرين، ازدادت كراهيتهم لي وشرهم في صراعهم ضدي. كلما حاولت حماية نفسي من صنوف المعاناة، ازدادت تعذيبًا لي، وكلما حاولت حماية نفسي من الموت، ازدادت درجة ترويعه لي.

أعرف أنه مهما فعل الإنسان فلن ينال خيرًا، ما دام لم يعِش بعدُ وفقًا لقانون حياته. قانون حياته ليس الصراع، بل على النقيض؛ الخدمة المتبادلة بين الكائنات[1].

---

(1) بالرغم من انطلاق تولستوي من مبادئ غير مادية، فإن معاصره العالم والفيلسوف

لكني لا أعرف حياةً سوى الحياة الشخصية. ليس بوسعي أن أفترض أن حياتي تتمثل في خير بقية الكائنات.

لا أعرف شيئًا عن ذلك. كل ما أعرفه هو أن حياتي وحياة العالم اللتين بدتا لي سابقًا شرًّا جنونيًّا، أراهما الآن كوحدة كلية معقولة حية، تسعى إلى خير واحد يتمثل في الخضوع لقانون العقل الذي أُدركه في داخلي.

لكني لا أستطيع قبول ذلك!

هكذا يجيب الوعي الضال، وبالرغم من ذلك، ليس هناك إنسان قد أتم هذا المستحيل إلا ووجد فيه أفضل سعادة في الحياة.

قيل «يستحيل أن يفترض المرء خيره في خير بقية الكائنات»، إلا أنه ليس هناك إنسان لم يختبر تلك الحالة التي صار فيها خير الآخرين هو خيره. قيل «يستحيل أن يفترض الإنسان خيره في العمل والمعاناة من أجل الآخر»، ولكن ما إن يُسلِّم الإنسان نفسه لشعور التعاطف هذا، حتى تفقد حينها متعة الشخصية مغزاها بالنسبة له، وتتوجه قوة حياته إلى صنوف من العمل والمعاناة من أجل الآخرين، وتصير خيرًا له. قيل «يستحيل أن يضحي المرء بحياته من أجل خير الآخرين»، ولكن ما إن يدرك الإنسان هذا الشعور في داخله، حتى لا يقتصر الأمر على ألا يصير الموت مرئيًّا ومريعًا بالنسبة له، بل سيبدو له أيضًا أسمى خير ملائم له.

لا يمكن للإنسان العاقل ألا يرى أنه إذا افترض عقليًّا إمكانية أن

الروسي: بيوتر كروبوتكين، قد توصل إلى النتيجة ذاتها من منطلقات علمية مادية. يمكن الرجوع إلى كتابه: «الدعم المتبادل كعامل تطوري»، ويمكن الرجوع أيضًا إلى كتابه: «الأخلاق» الذي صدرمن ترجمتي عن منشورات نقش وشلير.

يستبدل بسعيه إلى خيره الشخصي سعيًا إلى خير الكائنات الأخرى، فإن حياته ستصير عقلانية وخيِّرة بعد أن كانت لا عقلانية وكارثية. لا يمكنه ألا يدرك أنه بافتراض قبوله وقبول الآخرين وبقية الكائنات لهذا الفهم للحياة، فإن حياة العالم كله ستصير أسمى خير عقلاني يمكن أن يرغب الإنسان فيه بدلًا مما كانت عليه من جنون وقسوة، كما أنها ستكتسب مغزى عقليًا بدلًا من لا عقلانيتها ولا جدواها، وسيتمثل هذا المغزى لذلك الإنسان في صورة تنوير لا نهائي، ووحدة بين الكائنات، تمضي الحياة صوبهما، وفي ظلها يخضع البشر أولًا، ثم بقية الكائنات، لقانون العقل أكثر فأكثر، ويدركون ما أتيح للبشر وحدهم حتى الآن أن يفهموه؛ ألا وهو أن تحقيق خير الحياة لا يتم بسعي كل كائن إلى خيره الشخصي، بل بسعي كل كائن إلى خير الآخرين، وهو السعي المتسق مع قانون العقل.

لكن علاوة على ذلك، إذا افترضنا إمكانية أن يستبدل المرء بخيره الشخصي خير الآخرين، لا يمكن للإنسان حينها ألا يرى أن هذا الإنكار التدريجي لشخصيته، وانتقال هدف النشاط من نفسه إلى الآخرين، هو حركة تقدم للإنسانية والكائنات الحية الأقرب للإنسان. لا يمكن للإنسان ألا يرى في التاريخ أن حركة الحياة العامة لا تتمثل في دعم وزيادة حدة الصراع بين الكائنات، بل على النقيض؛ في تقليل هوة الخلاف وإضعاف وتيرة الصراع، وأن حركة الحياة تقتصر على أن العالم ينتقل بخضوعه للعقل من العداء والخلاف إلى مزيد من التفاهم والوحدة. عندما يفترض الإنسان ذلك لا يعود بوسعه ألا يرى أن الناس الذين اعتادوا على التهام بعضهم بعضًا سيتوقفون عن ذلك، وأن الذين اعتادوا على قتل الأسرى وأطفالهم سيتوقفون عن ذلك، وأن العسكريين الذين اعتادوا التفاخر

بالقتل سيتوقفون عن ذلك التفاخر، والذين أقروا العبودية سيحطمونها، والذين اعتادوا قتل الحيوانات سيبدأون في تعويد أنفسهم على التقليل من قتلها، وتناول بيضها وألبانها بدلًا من لحومها، وسيبدأون في التقليل من تدمير عالم النباتات. يرى الإنسان أن أفضل البشر يدينون السعي إلى المتع، ويدعون الناس إلى ضبط النفس، وأن هؤلاء الناس أنفسهم الذين يُمجِّدهم أسلافهم يُبيِّنون أمثلة عن التضحية بوجودهم من أجل خير الآخرين. يرى الإنسان أن ما افترضه وفقًا لمتطلبات العقل هو تحديدًا ما يحدث فعلًا في العالم، وتؤكده حياة الإنسانية في الماضي.

لكن علاوة على ذلك ثمة ما هو أقوى وأكثر إقناعًا من العقل والتاريخ، وهو من طبيعة مختلفة تمامًا، ويبدو كجوهر يكشف للإنسان سعي قلبه، ويقوده إلى خير فوري؛ يقوده إلى ذلك النشاط الذي يشير إليه العقل، ويُعبَّر عنه في القلب بالحب.

الفصل العشرون

لا تتسق متطلبات الشخصية مع متطلبات الوعي العقلي

يبدو أن العقل والبرهان والتاريخ والشعور الداخلي جميعها تقنع الإنسان بعدالة هذا الفهم للحياة، ولكن بالرغم من ذلك يبدو للإنسان الذي نشأ على تعليم العالم أن إرضاء متطلبات وعيه العقلي وشعوره، لا يمكن أن يكون قانون حياته.

يقول مثقفو عصرنا بكل ثقة: «يقولون لنا لا تصارعوا الآخرين من أجل نيل خيركم الشخصي، ولا تنشدوا المتع ولا تتفادوا صنوف المعاناة ولا تخشوا الموت! لكن هذا غير ممكن، بل إن هذا إنكار للحياة ذاتها. كيف يمكنني أن أنكر شخصيتي عندما أشعر بمتطلباتها وأدرك شرعية هذه المتطلبات بالعقل؟».

ويا لها من ظاهرة مدهشة! أبناء الطبقة العاملة البسطاء الذين لا يستخدمون البرهان كثيرًا لا يناصرون أبدًا متطلبات الشخصية، ويشعرون دائمًا في أنفسهم بمتطلبات مناقضة لها، ولكننا لا نجد الإنكار الكامل لمتطلبات الوعي العقلي، والأكثر من ذلك دحض شرعية هذه المتطلبات وتأكيد الحقوق الشخصية إلا بين الأثرياء وأصحاب التفكير المدرب والمتطور.

سيحاول دائمًا الإنسان المتطور المدلَّل العاطل أن يثبت أن للشخصية حقوقًا لا يمكن تجاهلها. لن يحاول إنسان جائع أن يثبت أنه يلزم للإنسان أن يأكل؛ فهو يعرف أن الجميع يعرفون ذلك، وأن الأمر لا يحتاج إلى إثبات، وأنه يستحيل تفنيده، بل هو ببساطة موجود.

يحدث ذلك نتيجة أن الإنسان البسيط الذي يسمونه «جاهلًا» الذي ظل طوال حياته يعمل أعمالا بدنية، لم يُفسِد عقله، وأبقاه طاهرًا وعفيًا تمامًا.

أما الإنسان الذي استغرق حياته كلها في التفكير في أمور ليست تافهة وفارغة وحسب، بل من غير الملائم للإنسان حتى أن يفكر فيها، أفسد عقله، ولم يعد عقله حرًّا. صار عقله مشغولًا بما لا يلائمه، حيث تعمَّق في احتياجات الشخصية وتطويرها وزيادتها، واختراع وسائل جديدة لإشباعها.

يقول المدعوون مثقفين، الذين نشأوا على التعليم الدنيوي: «لكني أشعر بمتطلبات شخصيتي، ولذلك هي مشروعة».

يستحيل ألا يشعروا بمتطلبات الشخصية. إن حياة أولئك الناس برمتها موجَّهة إلى زيادة متوهمة لخير الشخصية. يتمثل لهم خير الشخصية في إشباع الاحتياجات. يُطلقون «احتياجات الشخصية» على كافة شروط وجود الشخصية التي وجَّهوا إليها عقولهم، وتتوسع حدود هذه الاحتياجات إلى ما لا نهاية نتيجة هذا الوعي.

هكذا نجد أن ما يدعونه علمًا اجتماعيًا يضع التعليم الخاص باحتياجات الإنسان أساسًا لأبحاثه، متناسيًا الظرف غير الملائم لهذا التعليم؛ ألا وهو أن أحدهم قد لا تكون لديه أي احتياجات أبدًا مثلما هو الحال مع إنسان

ينتحر، أو يترك نفسه يموت جوعًا، أو شخص آخر لديه حقًّا عدد لا نهائي من الاحتياجات.

تتعدد احتياجات وجود الإنسان الحيواني بتعدد جوانبها، والجوانب كثيرة كثرة أنصاف أقطار الدائرة. ثمة احتياجات الطعام والشراب والهواء، وتدريب العضلات والأعصاب، واحتياجات العمل، والراحة والتسلية، والحياة الأسرية، والعلم والفن والدين، والأنواع المختلفة من كل ذلك. ثمة احتياجات أيضًا تتعلق بكل هذه العلاقات: الطفل ـ الشاب ـ الزوج ـ الشيخ ـ البنات ـ النساء ـ العجائز، وهناك احتياجات الصيني والباريسي والروسي واللندني واللابي[1]. ثمة احتياجات تتسق مع عادات الأنواع وأمراضها... إلخ.

يمكن أن تطول القائمة لأيام لا نهائية، دون أن تحيط بكافة احتياجات الوجود الشخصي للإنسان. يمكن أن تصير كافة شروط الوجود احتياجات، ولا يمكن أن نحصر هذه الشروط.

إلا أنهم لا يطلقون كلمة «احتياجات» إلا على تلك الظروف التي يدركونها. لكن ما إن تُدرَك هذه الظروف حتى تفقد أهميتها الحقيقية، وتكتسب أهمية مبالغًا فيها يمنحها إياها العقل الموجَّه إليها، مما يحجب عنا الحياة الحقيقية.

يمكننا أن نقارن ما يسمونها احتياجات، أي ظروف الوجود الحيواني للإنسان، بعدد لا نهائي من الكرات التي يمكن نفخها وتُكوِّن جسمًا ما.

---

(1) منطقة جغرافية ثقافية تقطنها قومية السامي. وهي موجودة في شمال أوروبا، مقسمة بين المناطق الشمالية لكل من النرويج، والسويد، وفنلندا، وشبه جزيرة كولا، وروسيا.

كافة هذه الكرات متكافئة الحجم، ولكلٍّ موضعه، ولا تسحق أحدها الأخرى ما دامت لم تنتفخ بعد. كذلك هو الأمر مع الاحتياجات، حيث إن جميعها متكافئة ولديها موضعها، ولا تزعج أحدها الأخرى ما دام لم يعيها صاحبها بعد. لكن ما إن يبدأ أحد في نفخ كرة حتى تشغل حيزًا أكبر من الحيز الذي تشغله بقية الكرات، وتسحق كل منها الأخرى، وتسحق نفسها أيضًا. كذلك هو الأمر مع الاحتياجات، فما إن يتوجه الوعي العقلي صوب أحدها، حتى يشغل هذا الاحتياج الحياة كلها، ويجعل صاحبه يعاني بكل كيانه.

الفصل الحادي والعشرون

ليس المطلوب أن ننكر الشخصية بل أن نُخضعها للوعي العقلي

تأكيد أن الإنسان لا يشعر بمتطلبات وعيه العقلي، بل باحتياجات شخصيته وحسب، ليس سوى تأكيد أن شهواتنا الحيوانية التي استخدمنا عقولنا لزيادة قوتها تسيطر علينا، وتحجب عنا حياتنا الإنسانية الحقيقية. عشب الرذائل الخبيثة النامية قد سحق براعم الحياة الحقيقية.

وكيف لا يكون الأمر كذلك في عالمنا عندما يكون أولئك من يُعتبرون معلمين قد اعترفوا مباشرة، ولا يزالون، بأن أسمى درجات الكمال الفردي للإنسان هو التطور الشامل للاحتياجات الدقيقة لشخصيته، وأن خير الجماهير يتمثل في أن تزداد احتياجاتهم، وأن يتمكنوا من إشباعها، وأن خير الناس يتمثل في إشباع احتياجاتهم؟

كيف يمكن لأناس قد نشأوا على هذا التعليم ألا يؤكدوا أنهم لا يشعرون بمتطلبات الوعي العقلي، بل يشعرون باحتياجات الشخصية وحسب؟ كيف يمكنهم أن يشعروا بمتطلبات العقل، بينما يكون العقل كله قد توجَّه صوب زيادة حدة شهواتهم؟ وكيف يمكنهم أن ينكروا متطلبات شهواتهم، بينما تكون هذه الشهوات قد ابتلعت حياتهم برمتها؟

يقول هؤلاء الناس عادة: «إنكار الشخصية مستحيل»، محاولين عمدًا أن يشوهوا السؤال، ويقدمونه باعتباره إنكارًا للشخصية بدلًا من حقيقته كمفهوم عن خضوع الشخصية لقانون العقل.

يقولون: «هذا أمر يناقض الطبيعة ولذلك لا يمكن تحقيقه». لم يتحدث أحد عن إنكار الشخصية. الشخصية بالنسبة للإنسان العاقل بمثابة النفَس أو الدورة الدموية للشخصية الحيوانية. كيف يمكن أن تنكر الشخصية الحيوانية دورتها الدموية؟ الحديث عن ذلك مستحيل. كذلك أيضًا يستحيل أن نقول لإنسان عاقل أن ينكر الشخصية. الشخصية بالنسبة للإنسان العاقل هي شرط ضروري لحياته، مثلما أن الدورة الدموية شرط لوجود شخصيته الحيوانية.

لا يمكن للشخصية الحيوانية أن تطرح أي متطلبات، وهي لا تفعل ذلك. العقل الموجَّه بطريقة زائفة هو من يطرح هذه المتطلبات، وهو عقل ليس موجهًا إلى إرشاد الحياة ولا إلى تنويرها، بل إلى نفخ كرة شهوات الشخصية.

يمكن تلبية متطلبات الشخصية الحيوانية دائمًا. لا يمكن للإنسان أن يقول: ماذا سآكل أو ماذا سأرتدي؟ تُلبَّى كافة هذه الاحتياجات للإنسان كما تُلبَّى للطائر والزهرة، إذا عاش حياة عقلانية[1]. في حقيقة الأمر من

(1) راجع متى (6: 26 ـ 29): «اُنْظُرُوا إِلَى طُيُورِ السَّمَاءِ: إِنَّهَا لا تَزْرَعُ وَلا تَحْصُدُ وَلا تَجْمَعُ إِلَى مَخَازِنَ، وَأَبُوكُمُ السَّمَاوِيُّ يَقُوتُهَا. أَلَسْتُمْ أَنْتُمْ بِالْحَرِيِّ أَفْضَلَ مِنْهَا؟ وَمَنْ مِنْكُمْ إِذَا اهْتَمَّ يَقْدِرُ أَنْ يَزِيدَ عَلَى قَامَتِهِ ذِرَاعًا وَاحِدَةً؟ وَلِمَاذَا تَهْتَمُّونَ بِاللِّبَاسِ؟ تَأَمَّلُوا زَنَابِقَ الْحَقْلِ كَيْفَ تَنْمُو! لا تَتْعَبُ وَلا تَغْزِلُ. وَلكِنْ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُ وَلاَ سُلَيْمَانُ فِي كُلِّ مَجْدِهِ كَانَ يَلْبَسُ كَوَاحِدَةٍ مِنْهَا».

هو الإنسان المفكر فعلًا الذي يمكن أن يؤمن بأن بوسعه تقليل بلية وجوده بتأمين شخصيته؟

لا تنبع بلية وجود الإنسان من أنه شخصية، بل من اعترافه بأن وجود شخصيته هو حياته وخيره. حينما يحدث ذلك يظهر التناقض والانقسام والمعاناة في حياة الإنسان.

لا تبدأ معاناة الإنسان إلا عندما يوجِّه قوة عقله إلى دعم وتوسيع حدود متطلبات شخصيته بلا نهاية، ليخفي عن نفسه متطلبات العقل.

إنكار الشخصية مستحيل، وهو أمر غير ضروري، كما هو الأمر مع كافة الشروط التي تكتنف وجود الإنسان، ولكن ما هو ممكن بل وضروري هو ألا يعترف بأن هذه الشروط هي الحياة ذاتها. يمكن، بل ويجب استغلال هذه الشروط الحياتية، ولكن يستحيل، ولا يجب النظر إلى هذه الشروط كهدف للحياة. لا تُنكِر الشخصية بل انكر خير الشخصية، وتوقف عن الاعتراف بالشخصية كحياة! هذا ما يجب أن يفعله الإنسان ليعود إلى الوحدة ويحقق الخير الملائم له الذي تتألف منه حياته.

منذ أقدم الأزمنة والمعلمون العظماء للبشرية يعظون بتعليم مفاده أن الاعتراف بأن الحياة تتمثل في الشخصية هو تدمير للحياة، وأن إنكار خير الشخصية هو الطريق الوحيد للوصول إلى الحياة.

«أليست هذه هي البوذية إذن؟»، هكذا يقول معاصرونا عادة. «إنها النيرفانا. هذا وقوف فوق عمود[1]!». عندما قالوا ذلك بدا لمعاصرينا أنهم

(1) انتشرت في الأوساط الشرقية النسكية حكايات عن نساك كانوا يُسمون بالعموديين، حيث كانوا يقضون حياتهم كلها فوق عمود.

نجحوا في دحض ما يعرفه الجميع جيدًا وما يستحيل إخفاؤه؛ ألا وهو أن ليس هناك أي مغزى لبلية الحياة الشخصية.

يقولون «هذه هي البوذية... إنها النيرفانا»، ويبدو لهم أنهم بهذه الكلمات قد فنَّدوا كل ما اعترفت به ـ ولا تزال ـ مليارات الناس، وما يعرفه كل واحد منا في قرارة قلبه جيدًا؛ ألا وهو تحديدًا أن الحياة من أجل الأهداف الشخصية قاتلة وعبثية، وأنه إذا كان هناك مخرج من هذا الوضع القاتل والعبثي، فلا شك أن الطريق إليه هو إنكار خير الشخصية.

لا يشغلهم بتاتًا أنه هكذا فهم الحياة ـ ولا يزال ـ الجزء الغالب من الإنسانية وأعظم العقول، وأنهم توصلوا إلى استحالة فهم الحياة بشكل آخر. إنهم متيقنون تمامًا من أن كافة أسئلة الحياة إذا لم يتم حلها بطريقة تبعث أكبر قدر من الرضا، يمكن حينها التخلص منها بالهواتف والأوبريتات وعلم الجراثيم ونور الكهرباء وما إلى ذلك، حتى إن فكرة إنكار خير الحياة الشخصية لا تبدو لهم سوى بقايا بربرية قديمة.

في الوقت ذاته لا يرتاب فيه البؤساء في أن أكثر الهنود فظاظة، الواقف على ساق واحدة عامًا بعد عام باسم إنكار خير الشخصية من أجل الوصول إلى النيرفانا، أكثر حيوية دون أدنى شك من متوحشي مجتمعنا الأوروبي المعاصر، الذين يطوفون العالم كله على السكك الحديدية، ويظهرون في ضوء المصابيح الكهربائية، ويذيعون حالتهم البهيمية في العالم كله عبر الهواتف والبرقيات. لقد أدرك هذا الهندي وجود تناقض بين حياة الشخصية والحياة العقلية، وحاول حل الإشكالية بقدر ما استطاع. أما أبناء عالمنا المثقف فلم يقتصر الأمر على عدم فهمهم لهذا التناقض، بل إنهم حتى لم يصدقوا أنه موجود. بالنسبة للإنسان، لا الحيوان، لم تعد

فرضية أن الحياة الإنسانية ليست وجود شخصية الإنسان التي تم التوصل إليها عبر آلاف الأعمال الروحية للإنسانية كلها كما كانت وحسب، بل إنها صارت حقيقة غير قابلة للشك أو النقد بدرجة أكبر كثيرًا من دوران الأرض وقوانين الجاذبية. كل إنسان مفكر، عالم أو جاهل، شيخ أو طفل، يفهم ويعرف ذلك جيدًا، وقد أُخفي ذلك فقط عن أكثر الناس همجية في أفريقيا وأستراليا، والأثرياء المتوحشين القاطنين في المدن والعواصم الأوروبية. صارت هذه الحقيقة ملكًا للبشرية، وإذا لم تتراجع البشرية في معارفها الفرعية الميكانيكية والرياضية والفلكية، لا يمكنها أن تتراجع في مجال معرفتها الرئيسة والأساسية المتعلقة بمفهوم حياتها. يستحيل أن تنسى البشرية أو تزيل من وعيها ما استمدته من حياتها على مدار آلاف السنين، كفهم غرور وعبثية وبلية الحياة الشخصية. إن محاولات استعادة النظرة العتيقة البالية للحياة المتمثلة في أن الحياة هي الوجود الشخصي التي انشغل بها ما يسمونه «العلم» في عالمنا الأوروبي، تكشف بمزيد من الوضوح عن نمو الوعي العقلي للإنسانية، وتكشف بجلاء عن أن ثوب الإنسانية الطفولي الضيق لم يعد ملائمًا لها. تُظهر النظريات الفلسفية عن تدمير الذات وارتفاع معدلات الانتحار بدرجة رهيبة، عدم إمكانية عودة الإنسانية إلى درجة الوعي القديمة.

الحياة بوصفها وجودًا شخصيًّا قد انقضت بالنسبة للإنسانية، والعودة إليها مستحيلة، ونسيان أن الوجود الشخصي للإنسان ليس له أي مغزى أمر غير ممكن. مهما كتبنا وتحدثنا واكتشفنا، ومهما زيَّنا حياتنا الشخصية، يظل إنكار إمكانية الخير الشخصي حقيقة راسخة لكل إنسان عاقل في زماننا.

«ولكنها تدور[1]». الأمر لا يتعلق بتفنيد رأي جاليليو وكوبرنيكوس واختراع دوائر بطلمية جديدة، حيث إن ذلك مستحيل، ولكن الأمر هو ضرورة التقدم واستخلاص المزيد من النتائج من هذا الموقف، بحيث تدخل فعلًا إلى الوعي العام للإنسانية. الأمر كذلك مع استحالة خير الحياة الشخصية؛ الأمر الذي أعلنه البراهمانية والبوذية والطاوية وسليمان الحكيم والرواقيون وكافة مفكري الإنسانية الحقيقيين. لا بد من عدم إخفاء هذا الموقف عن النفس أو الالتفاف حوله بكافة الطرق، بل الاعتراف به بشجاعة ووضوح واستخراج النتائج اللازمة منه.

(1) عبارة تنسب إلى عالم الرياضيات الإيطالي، الفيزيائي والفيلسوف: غاليليو غاليلي، في عام 1633 بعد أن أجبر على التراجع عن ادعاءاته بأن الأرض تتحرك حول الشمس وليس العكس، خلال محاكمته من الكنيسة في روما.

الفصل الثاني والعشرون

شعور الحب هو تجلي نشاط الشخصية الخاضعة للوعي العقلي

يستحيل على الكائن العاقل أن يعيش من أجل أهداف الشخصية، وتعود هذه الاستحالة إلى أن كافة الطرق التي تلوح أمامه، وكافة الأهداف التي تدفعه إليها شخصيته الحيوانية، لا يمكن بلوغها. يشير الوعي العقلي إلى أهداف أخرى، والأمر لا يقتصر على إمكانية بلوغ هذه الأهداف، بل إنها تمنح إشباعًا كاملًا للوعي العقلي للإنسان. مع ذلك يبدو في البداية لهذا الشخص الواقع تحت تأثير التعليم الزائف للعالم أن هذه الأهداف تُناقض شخصيته.

مهما بذل الإنسان الذي نشأ في عالمنا المعاصر جهدًا في ظل شهوات شخصية متطورة ومبالغ فيها ليعترف بأناه العاقلة، لا يشعر في هذه الأنا بمساغ صوب الحياة التي يشعر بها في شخصيته الحيوانية. يبدو الأمر كما لو أن الأنا العاقلة تتأمل الحياة، لكنها لا تعيش بنفسها، ولا تشعر بميل صوب الحياة. لا تشعر الأنا العاقلة بمساغٍ صوب الحياة، بل يلزم أن تعاني الأنا الحيوانية، ولذلك لا يتبقى سوى التخلص من هذه الحياة.

بهذا التوجه عديم الضمير يحل فلاسفة الإنكار المعاصرون (شوبنهاور ـ هارتمان) الإشكالية، حيث ينكرون الحياة، ويَبقون فيها بالرغم من ذلك، بدلًا من أن يستغلوا إمكانية مفارقتها الموجودة بين أيديهم. لذلك فإن التوجه الضميري في هذه المسألة هو الانتحار؛ الخروج من الحياة حيث إنها لا تمثل للإنسان شيئًا من هذا المنطلق سوى الشر.

يمثل الانتحار لهم المخرج الوحيد من مأزق عدم عقلانية الحياة الإنسانية المعاصرة.

تتمثل مجادلات الفلسفة التشاؤمية والعدد الأكبر من المنتحرين في الآتي: هناك أنا حيوانية، تتسم بميل إلى الحياة. لا يمكن لهذه الأنا بكافة مساعيها أن يتم إرضاؤها. ثمة أنا أخرى عقلانية، لا تتسم بأي ميل إلى الحياة، تتأمل بصورة نقدية وحسب كافة مباهج الحياة وشهوة الأنا الحيوانية وتنكرها برمتها.

«إذا سلَّمت للأنا الأولى فسأعيش حياة جنونية، وأمضي إلى البلايا، وسأنغمر فيها أعمق فأعمق. إذا سلَّمت للأنا الثانية (العقلانية) لن تبقى في داخلي أي ميول اتجاه الحياة. سأرى حينها أن الشيء الوحيد الذي أود أن أعيش من أجله؛ أي السعادة الشخصية، أمر أحمق وغير ممكن. يمكن حينها للمرء أن يعيش من أجل الوعي العقلي، لكن لا حاجة له ولا رغبة فيه. أتقول أن أخدم الجوهر الذي نَبعتُ منه: الله؟ لماذا أفعل ذلك؟ إذا كان اللّٰه موجودًا فعلًا فسيجد بالطبع من يخدمه دون حاجة لي. لماذا أخدمه إذن؟ يمكنني أن أقتصر على مراقبة لعبة الحياة هذه كلها إلى أن أَملَّ منها، ويمكنني أن أخرج من هذه الحياة؛ أن أقتل نفسي. هذا ما سأفعله».

هذا هو التصور المتناقض للحياة الذي وصلت إليه البشرية قبل سليمان وبوذا، والذي يريد المعلمون الكذبة لعصرنا أن يعيدونا إليه.

لقد دُفِعت متطلبات الشخصية إلى أقصى حدود الجنون. يرفضها العقل الذي استيقظ من سباته، لكنها كانت قد ازدهرت بصورة أدت إلى تشويش وعي الإنسان، حتى إنه ظن أن العقل ينكر الحياة كلها. يبدو له أنه إذا نظف وعيه من كل ما ينكره العقل فلن يتبقى شيء. إنه لا يرى ما سيتبقى. تبدو له تلك البقية التي فيها الحياة فعلًا لا شيء.

ولكن النور يضيء في الظلمة، والظلمة لم تدركه[1].

يدرك تعليم الحقيقة هذه المعضلة: إما وجود جنوني أو إنكار للوجود وهدمه.

أشار تعليم الحقيقة الذي سُمِّي دائمًا «تعليم الخير» للناس إلى أنه بدلًا من الخير الخادع الذي يبحثون عنه لصالح الشخصية الحيوانية، يمكنهم أن يجدوا الخير الحقيقي الملائم لهم الآن وهنا بدلًا من شيء يمكن أن يجدوه في زمن ومكان ما.

ليس هذا الخير شيئًا يُستمد من الفكر وحسب، أو شيئًا يجب البحث عنه بعيدًا، وليس خيرًا أُسدي وعد بتقديمه في مكان أو زمان ما، بل هو أكثر خير يعرفه الإنسان وتنجذب إليه على الفور كل روح إنسانية لم تفسد بعد.

منذ أولى لحظات الطفولة المبكرة يعرف الناس جميعًا أنه بالإضافة إلى خير الشخصية الحيوانية، ثمة خير أفضل للحياة، لا يقتصر أمره على

(1) إشارة إلى يوحنا (1: 5).

أنه لا يعتمد على إشباع شهوات الشخصية الحيوانية، بل على النقيض؛ كلما أنكر المرء خير الشخصية الحيوانية ازداد قدره.

يعرف الناس جميعًا هذا الشعور الذي يحل كافة تناقضات الحياة الإنسانية، ويُقدِّم أكبر قدر من الخير للإنسان. هذا الشعور هو الحب.

الحياة هي نشاط الشخصية الحيوانية الخاضع لقانون العقل. العقل هو القانون الذي يجب أن تخضع له الشخصية الحيوانية لتحقيق خيرها. الحب هو النشاط العقلي الوحيد للإنسان.

تنجذب الشخصية الحيوانية صوب خيرها، ويكشف العقل للإنسان عن زيف هذا الخير الشخصي، ولا يتبقى سوى طريق واحد. النشاط الذي تمكن ممارسته في هذا الطريق هو الحب.

تطلب الشخصية الحيوانية للإنسان خيرها، ويكشف الوعي العقلي للإنسان عن بلية كافة هذه الكائنات المتصارعة، كما يكشف له أن خير شخصيته الحيوانية أمر يتعذر تحقيقه، وأن الخير الوحيد الممكن له هو الذي يمكن أن يتحقق حينما يتوقف الصراع مع بقية الكائنات، ولا يحدث معه انقطاع للرخاء والشبع، ولا يعود المرء يتوقع هلع الموت.

يجد الإنسان في نفسه شعورًا كمفتاحٍ صُنِع خصيصًا لهذا القفل، ويمنحه هذا الشعور الخير الوحيد الممكن له، والذي يشير إليه العقل. لا يقتصر الأمر على أن هذا الشعور يحل تناقض الحياة السالف ذكره، بل يبدو كما لو أنه يجد في هذا التناقض إمكانية لتجليه.

تريد الشخصيات الحيوانية أن تستغل شخصية الإنسان لصالح أهدافها الخاصة، بينما يدفعها شعور الحب إلى أن تُكرِّس وجودها لمنفعة الآخرين.

تعاني الشخصية الحيوانية. الموضوع الرئيس لنشاط الحب هو صنوف المعاناة السالفة وكيفية علاجها. بينما تسعى الشخصية الحيوانية إلى خيرها، تجد نفسها مع كل نَفَس يصدر عنها تقترب من أعظم شر؛ ألا وهو الموت الذي تُشكِّل رؤيته خرقًا لكل أنواع خير الشخصية. لا يقتصر الأمر مع شعور الحب على أنه يزيل هذا الخوف، بل إنه يجذب الإنسان إلى أقصى تضحية بوجوده الجسدي لخير الآخرين.

الفصل الثالث والعشرون

لا يمكن أن يتجلى شعور الحب في الناس الذين لا يفهمون مغزى حياتهم

يعرف كل إنسان أن هناك شيئًا خاصًا في شعور الحب يعمل على حل كافة تناقضات الحياة، ويُقدِّم للإنسان خيرًا كاملًا، تتمثل حياته في السعي إليه. «لكن هذا الشعور الذي لا يأتينا إلا في بعض الأحيان لا يستمر طويلًا، وتكون عاقبته أسوأ صنوف المعاناة». هذا ما يقوله الناس الذين لا يعقلون الحياة.

لا يتمثل الحب بالنسبة لهؤلاء الناس بوصفه التجلي الوحيد المشروع للحياة كما يتمثل للوعي العقلي، بل كواحد من آلاف المصادفات المختلفة التي تحدث في الحياة، وكواحد من آلاف الحالات المزاجية المختلفة التي يمر بها الإنسان أثناء حياته؛ أحيانًا يجد المرء نفسه في حالة تباهٍ وأحيانًا يجد نفسه منجذبًا إلى العلم أو الفن، وفي أحيان أخرى ينجذب إلى العمل المهني والطموح والربح، وأحيانًا يشعر بأنه يحب شخصًا آخر. لا تتمثل حالة الحب للناس الذين لا يعقلون الحياة كجوهر الحياة الإنسانية، بل كحالة مزاجية عابرة مستقلة تمامًا عن إرادتهم مثل كافة الحالات الأخرى التي يتعرض لها الإنسان على مر حياته. يمكن أيضًا أن نقرأ ونسمع كثيرًا

بعض أحكام الناس عن أن الحب حالة مزاجية مؤلمة تكون خاطئة أحيانًا، وتُعطِّل مسار الحياة السليم، وهو شيء يشبه ما يمكن أن تشعر به البومة عند شروق الشمس.

الحقيقة أنه حتى هؤلاء الناس يشعرون بأن ثمة ما هو خاص في حالة الحب وأهم من بقية الحالات النفسية الأخرى، ولكن لكونهم لا يفهمون الحياة لا يستطيعون أن يفهموا الحب، وتتمثل حالة الحب بالنسبة لهم كبلية وحالة مخادعة مثل بقية الحالات.

أأحب؟ ولكن مَن؟

لا شيء يستحق العناء من أجل استمراره لبرهة وحسب

والحب الأبدي غير ممكن[1]

تُعبِّر هذه الكلمات تحديدًا عن مدى اضطراب وعي الناس حيال أن الحب هو الخلاص من بلايا الحياة، وأنه الشيء الوحيد الذي يمكن أن يكون الخير الحقيقي، وفي الآن ذاته ثمة اعتراف بأن الحب لا يمكن أن يكون درع الخلاص لمن لا يفهمون الحياة. لا يوجد من يمكن أن تحبه، كما أن كل حب ينقضي. لذا لا يمكن أن يكون الحب خيرًا إلا إذا كان هناك من يمكن أن تحبه، وإذا أمكن أيضًا أن يستمر الحب إلى الأبد. ونظرًا لأن هذا غير موجود، ولا خلاص في الحب، علينا أن نعترف إذن بأنه خداع ومعاناة كبقية الحالات.

هذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكن بها للناس الذين تَعلَّموا ويُعلِّمون أن الحياة ليست سوى وجود حيواني، أن يفهموا بها الحب.

---

(1) الأبيات للشاعر الروسي الكبير ليرمونتوف.

بالنسبة لهؤلاء الناس لا يتسق الحب مع المفهوم الذي ننسبه جميعًا تلقائيًا إلى الكلمة. إنه ليس نشاطًا طيبًا بالنسبة لهم يمنح المحب والمحبوب خيرًا. الحب في تصور هؤلاء الناس الذين يعترفون بأن الحياة هي الشخصية الحيوانية، هو الشعور الذي تنتزع بسببه الأم اللبن من أم طفل جائع لتعطيه لطفلها لتضمن له خيره، وهو الشعور الذي يُعذِّب الأب نفسه بسببه حينما ينتزع آخر كسرة خبز من الجائعين ليضمنها لأطفاله. الحب في نظرهم هو الشعور الذي يعاني بسببه عاشق لامرأة، ويجبرها على أن تعاني هي أيضًا، حينما يغويها أو يحطمها بدافع الغيرة. إنه الشعور الذي يمكن بسببه أن يغتصب الرجل امرأة، وهو الشعور الذي يجعل مجموعة من الرفاق يضرون بغيرهم ليحققوا الخير لجماعتهم. هو أيضًا الشعور الذي يجعل الإنسان يُعذِّب نفسه بنفسه بانشغاله بمن يحبهم؛ الانشغال الذي يجلب حزنًا ومعاناة لمن حوله. الحب هو الشعور الذي لا يمكن بموجبه للناس أن يقبلوا إهانة الوطن المحبوب، ويملأون بسببه الحقول بالقتلى والجرحى من معسكرهم ومن معسكر الآخرين على السواء.

لكن علاوة على ذلك يتمثل نشاط الحب بالنسبة لمن يعترفون بالحياة، في خير الشخصية الحيوانية، في صورة مآزق، ولا يقتصر الأمر على أن تصير تجلياته مؤلمة، بل تبدو كثيرًا غير ممكنة نهائيًا. يقول الناس عادة ممن لا يفهمون معنى الحياة: «علينا ألا نفكر في الحب، بل ننغمس في الشعور الفوري الذي يجعلنا نختبر تفضيلًا وانجذابًا لأناس أكثر من غيرهم، حيث إن هذا هو الحب الحقيقي».

إنهم محقون في قولهم إننا لا يجب أن نفكر في الحب، وإن كل تفكير في الحب يدمره. لكن الحقيقة هي أن من استخدموا قوة عقولهم في فهم

الحياة، وتخلوا عن خير الحياة الشخصية، هم من بإمكانهم ألا يفكروا في الحب، أما من لم يفهموا الحياة ورأوا أن وجودهم ينحصر في خير الشخصية الحيوانية، ليس بوسعهم ألا يفكروا فيه. من الضروري لهم أن يفكروا فيه ليستثيروا بداخلهم هذا الشعور الذي يسمونه حبًّا. كل تجلٍّ لهذا الشعور غير ممكن لهم دون تفكير ودون حل هذه الإشكاليات غير القابلة للحل.

في واقع الأمر يفضل الواحد منهم رضيعه وأصدقاءه وزوجته وأطفاله ووطنه على بقية الأطفال والزوجات والأصدقاء والأوطان، وهذا ما يسمونه «الحب».

أن تحب بشكل عام يعني أن ترغب في فعل الخير. هكذا نفهم الحب، وليس بوسعنا أن نفهمه بصورة أخرى. وهكذا عندما أقول إني أحب طفلي وزوجتي ووطني، أعني أني أريد الخير لطفلي وزوجتي ووطني أكثر مما أريده لبقية الأطفال والزوجات والأوطان. لا يحدث أبدًا، ولا يمكن أن يحدث أن أحب طفلي أو زوجتي أو وطني فقط. كل إنسان يحب طفله وزوجته ووطنه وأطفاله والناس بشكل عام. في الوقت نفسه فإن شروط الخير التي يرغب فيها بحكم حبه لمخلوقات كثيرة مرتبطة بعضها ببعض، حتى إن الأمر لا يقتصر على أن كل نشاط حب يُوجِّهه كائن لكائن آخر يَحول دون أن يكون هناك نشاط حب لبقية الكائنات، بل إنه يؤذيه بشدة.

وهنا تتبادر الأسئلة: باسم أي حب يجب أن نسلك؟ ما الحب الذي يجب أن نضحي به من أجل حب آخر؟ ومن الذي يجب أن نحبه أكثر؟ ومن الذي يجب أن نسدي له قدرًا أكبر من الخير؛ الزوجة أم الأطفال، الزوجة والأطفال أم الأصدقاء؟ كيف يمكننا أن نخدم وطننا المحبوب دون

أن يقف ذلك عقبة في طريق حبنا للزوجة أو الأطفال أو الأصدقاء؟ كيف يمكننا في نهاية الأمر أن نحل الإشكاليات المتعلقة بالقدر الذي يمكننا أن نضحي به بشخصيتنا اللازمة لخدمة الآخرين؟ إلى أي حد يمكنني أن أعتني بنفسي بحيث أستطيع أن أخدم الآخرين من منطلق حبي لهم؟ تبدو كافة هذه الأسئلة بسيطة للناس الذين لم يحاولوا أن يقدموا تقريرًا لأنفسهم عن الشعور الذي يسمونه «الحب»، لكن بالإضافة إلى أن هذه الأسئلة غير بسيطة، الإجابة عنها مستحيلة أيضًا.

لم يسأل الناموسي[1] المسيح إذن عبثًا: «من هو القريب؟». لا تبدو الإجابة عن هذه الأسئلة شديدة السهولة إلا لمن ينسون الظروف الحقيقية للحياة الإنسانية.

لو كان الناس آلهة كما نتخيلهم، لاستطاعوا في تلك الحالة فقط أن يحبوا باختيارهم، وحينها فقط كان من الممكن أن يتمثل الحب الحقيقي في تفضيل البعض على الآخرين. لكن الناس ليسوا آلهة، بل يعيشون في ظروف الوجود ذاتها التي تعيش فيها كافة الكائنات الحية، يلتهمون بعضهم بعضًا، بالمعنى المباشر لا المجازي. لا بد على الإنسان بوصفه كائنًا عاقلًا أن يعرف ويرى ذلك. يجب أن يعرف أن كل خير جسدي يناله كائن يكون على حساب كائن آخر.

مهما وَثق الناس في الخرافات الدينية والعلمية عن هذا المستقبل

---

(1) الكلمة التي ذكرها تولستوي بمعنى رجل القانون، لكنه يشير إلى كلمة تُرجمت وردت في الترجمة العربية للإنجيل: «الناموسي». الناموسيون هم المتضلعون في ناموس موسى، المختصون بتفسيره وتعليمه في المدارس والمجامع، وكانوا يشبهون رجال القانون عندنا الذين يتولون درس القانون ثم شرحه وتفسيره.

الألفي[1] السعيد الذي سيشعر فيه الجميع بالرضا، يرى الإنسان العاقل ويعرف أن قانون وجوده الزماني والمكاني هو صراع بين الكل والفرد، وبين الفرد والكل.

لا يمكن للإنسان في ظل هذا الضغط وذلك الصراع بين مصالح الكائنات الحية اللذين يشكلان حياة العالم، أن يحب من يختارهم كما يتصور من لا يفهمون الحياة. إذا اقتصر حب الإنسان على من يختارهم، فلن يحب المرء أحدًا أبدًا. كل إنسان يحب أمه وزوجته وطفله وأصدقاءه ووطنه، بل وكل الناس. الحب ليس مجرد كلمة، وهذا أمر يتفق عليه الجميع، لكنه نشاط مُوجَّه إلى خير الآخرين. لا يجري هذا النشاط وفقًا لنظام معين بحيث تظهر له أولًا مطالب حبه الأقوى، ثم الأقل درجة... إلخ. تظهر مطالب الحب معًا باستمرار دون أي نظام. وصل الآن شيخ جائع أحبه قليلًا، وهو يطلب طعامًا كنت أنوي إبقاءه لأطفالي المحبوبين. كيف يمكنني أن أوازن بين متطلبات الحب الأقل قوة الآن ومتطلبات الحب الأقوى في المستقبل؟

هذه هي الأسئلة ذاتها التي سألها الناموسي للمسيح حينما قال: «ومن هو قريبي؟». في الحقيقة كيف يمكن أن نعرف من يجب أن نخدمه وبأي

---

(1) الألفية هي معتقد إيماني ظهر بين مسيحيين من أصول عبرية حافظوا من دياناتهم القديمة على ما يسمى بالماشيحية الزمنية، وعلى التأويل الحرفي لنصوص الكتاب المقدس، خاصة ما ورد في سفر رؤيا يوحنا (20: 3 ـ 6). يعتقدون أن المسيح سيعود إلى عالمنا هذا مع ملائكته والقديسين ليحكم الأرض كملك مدة ألف عام، ومن هنا جاءت تسمية الألفية. انتقلت هذه الرؤيا بصورة أو بأخرى إلى بعض المؤمنين بالعلم كخلاص للبشرية، حيث سادت اعتقادات متفائلة جدًا بشأن أن العلم سيجعل حياة البشر سعيدة تمامًا.

قدر: الناس أم الوطن؟ الوطن أم الرفاق؟ رفاقنا أم زوجاتنا؟ الزوجة أم الوالد؟ الوالد أم الأبناء؟ الأبناء أم أنفسنا؟ إننا في حاجة إلى معرفة ذلك لنكون قادرين على خدمة الآخرين عند حاجتهم.

الأمر أن ثمة ارتباطًا وثيقًا بين كافة متطلبات الحب، حتى إن تلبية بعضها يَحرم الإنسان من إمكانية تلبية الأخرى. إذا وافقتُ على ألا يرتدي طفل يشعر بالبرد ثوبًا لأن أطفالي يحتاجون في وقت ما إلى هذا الثوب الذي يطلبه مني الطفل، فإني هنا قادر على عدم الالتفات لمتطلبات الحب المتعلقة بالآخرين باسم الأخرى المستقبلية الخاصة بأطفالي.

كذلك هو الأمر فيما يتعلق بحب الوطن وأعمالي المفضلة وحب الناس كلها. إذا كان بوسع الإنسان أن يرفض متطلبات أقل درجات الحب الحاضر، من أجل متطلبات أكبر درجات الحب في المستقبل، ألا يتضح حينها أنه إذا رغب هذا الإنسان في ذلك بكل قوته، لن يكون بوسعه أبدًا أن يحسب إلى أي قدر يمكنه أن يرفض متطلبات الحب الحاضر من أجل المستقبلي، ومن ثَم لن يكون بوسعه أن يحسم هذه المسألة وسيختار دائمًا الحب الذي سيبدو مقبولًا له، أي أنه لن يسلك باسم الحب بل باسم شخصيته؟ إذا قرر إنسان أن من الأفضل له أن يمتنع عن تلبية متطلبات أقل درجات الحب في الحاضر، من أجل أقوى درجات الحب في المستقبل، فإما أنه يخدع نفسه أو يخدع الآخرين، ولا يحب أحدًا سوى نفسه.

لا معنى لمفهوم الحب في المستقبل. الحب نشاط لا يجري إلا في الحاضر. من لا يُظهر حبًّا في الحاضر لا يتسم بالحب.

الأمر ذاته مع فكرة حياة الناس الذين لا يتسمون بالحياة. لو كان الناس

حيوانات، ليس لديهم عقل، لصاروا كالحيوانات من حيث عدم تفكيرهم في الحياة، ولكان وجودهم الحيواني مشروعًا وسعيدًا. ينطبق الأمر ذاته على الحب، فلو كان الناس حيوانات بلا عقل، لأحبوا من يحبونهم: جراءهم وقطعانهم، ولما عرفوا أنهم يحبون جراءهم وقطعانهم، ولما عرفوا أن بقية الذئاب تحب جراءها وبقية القطعان تحب رفاقها في القطيع أيضًا، ولكان حبهم هو ذلك الحب وتلك الحياة الممكنان في ظل درجة الوعي التي وصلوا إليها.

لكن البشر بوصفهم كائنات عاقلة لا يسعهم ألا يروا أن الكائنات الأخرى تتسم بالحب ذاته تجاه ذويهم، ومن ثَم فإن هذه المشاعر لا بد أن تتصادم ولا ينتج عنها أي خير، بل تنتج ما يناقض مفهوم الحب تمامًا.

إذا استخدم الناس عقولهم لتبرير ودعم هذا الشعور الحيواني السيِّئ الذي يسمونه حبًّا ويضفي على الحب أبعادًا مشوهة، فلن يقتصر الأمر على أن هذا الشعور لن ينتج خيرًا، بل إنه سيجعل من الإنسان أكثر المخلوقات شرًّا وشناعة، وهي حقيقة معروفة منذ زمن طويل. يحدث ما ذكرته الأناجيل: «فَإِنْ كَانَ النُّورُ الَّذِي فِيكَ ظَلاَمًا فَالظَّلاَمُ كَمْ يَكُونُ![1]». إذا لم يكن في الإنسان شيء سوى حبه لنفسه ولأطفاله، لما كان وجود لـ0.99 من هذا الشر الموجود الآن بين الناس. يحدث 0.99 من الشر الموجود بين الناس الآن بسبب هذا الشعور الزائف الذي يمتدحونه ويسمونه حبًّا، والذي لا يشبه الحب بقدر أكبر من الشبه الموجود بين حياة الحيوان وحياة الإنسان.

---

(1) متى (6: 23).

ما يسميه من لا يفهمون الحياة حبًّا ليس سوى تفضيلات لبعض شروط الخير الشخصية على خير الآخرين. عندما يقول إنسان لا يفهم الحياة إنه يحب زوجته أو طفله أو صديقه، فهو لا يقول في الحقيقة سوى أن حضور زوجته أو طفله أو صديقه في حياته يزيد خير حياته الشخصية.

تتعلق هذه التفضيلات بالحب كما يتعلق الوجود بالحياة. وكما أن الناس الذين لا يفهمون الحياة يسمون الوجود حياة، كذلك يطلقون على تفضيل بعض شروط الوجود الشخصي على وجود الآخرين حبًّا.

هذه المشاعر المتمثلة في تفضيل كائنات محددة مثل أن يُفضِّل المرء أبناءه، أو حتى أعماله المفضلة مثل العلم أو الفن، نسميها حبًّا أيضًا. لكن مشاعر التفضيل السالفة متنوعة بلا حدود، وهذا ما يُشكِّل تعقيد الحياة الحيوانية المرئية والملموسة للناس، ولا يمكن أن تُسمَّى هذه المشاعر حبًّا لأنها لا تتسم بسمة الحب الرئيسة؛ أي أنه نشاط يهدف إلى الخير.

لا يكشف الشغف في إظهار هذه التفضيلات شيئًا سوى طاقة الشخصية الحيوانية. هذا الشغف الذي يسمونه حبًّا عن خطأ، ليس سوى نبتة برية صغيرة يمكن تلقيحها بالحب الحقيقي لتؤتي ثماره. لكن كما أن هذه النبتة البرية الصغيرة ليست شجرة تفاح ولا تؤتي ثمارًا، أو تؤتي ثمارًا مُرة بدلًا من حلوة، كذلك الميل ليس حبًّا، ولا يسدي خيرًا للناس، بل إنه يتسبب في شر أكبر. لذلك فإن هذا الحب الممتدح للنساء والأطفال والأصدقاء يجلب أعظم شر للعالم، ناهيكم عن حب العلم والفن والوطن الذي هو في حقيقة الأمر ليس سوى تفضيل في الوقت الحاضر لظروف معينة من الحياة الحيوانية عن غيرها.

الفصل الرابع والعشرون

الحب الحقيقي هو نتاج إنكار خير الشخصية

لا يصير الحب الحقيقي ممكنًا إلا بإنكار خير الشخصية الحيوانية.

لا تبدأ إمكانية الحب الحقيقي إلا عندما يدرك الإنسان أنه ليس هناك خير لشخصيته الحيوانية. حينها فقط تتحول كافة عصارات الحياة إلى ساق واحدة عظيمة من الحب الحقيقي، نمت بكل قوتها من جذع النبتة البرية الصغيرة للشخصية الحيوانية. إن تعليم المسيح هو بمثابة عملية التلقيح بهذا الحب كما قال بنفسه. لقد قال إنه وحبه كرمة واحدة يمكنها أن تؤتي ثمرًا، وإن كل غصن لا يؤتي ثمرًا يُقطع[1].

من عرف، بل وأدرك في حياته أن «مَنْ أَرَادَ أَنْ يُخَلِّصَ نَفْسَهُ يُهْلِكُهَا، وَمَنْ يُهْلِكُ نَفْسَهُ مِنْ أَجْلِي يَجِدُهَا». ومن فهم أن «منْ يُحِبُّ نَفْسَهُ يُهْلِكُهَا، وَمَنْ يُبْغِضُ نَفْسَهُ فِي هذَا الْعَالَمِ يَحْفَظُهَا إِلَى حَيَاةٍ أَبَدِيَّةٍ» هو وحده من يعرف الحب الحقيقي.

«مَنْ أَحَبَّ أَبًا أَوْ أُمًّا أَكْثَرَ مِنِّي فَلا يَسْتَحِقُّنِي، وَمَنْ أَحَبَّ ابْنًا أَوِ ابْنَةً أَكْثَرَ مِنِّي فَلا يَسْتَحِقُّنِي... أَحِبُّوا أَعْدَاءَكُمْ. بَارِكُوا لاعِنِيكُمْ»[2].

(1) «أَنَا الْكَرْمَةُ الْحَقِيقِيَّةُ وَأَبِي الْكَرَّامُ. كُلُّ غُصْنٍ فِيَّ لا يَأْتِي بِثَمَرٍ يَنْزِعُهُ، وَكُلُّ مَا يَأْتِي بِثَمَرٍ يُنَقِّيهِ لِيَأْتِيَ بِثَمَرٍ أَكْثَرَ». يوحنا (15: 1 ـ 2).

(2) متى (10: 37) ـ متى (5 ـ 44).

لا ينكر الناس الشخصية إثر محبتهم للأب أو الابن أو الزوجة أو الأصدقاء أو الطيبين من الناس كما يظنون عادة، بل يحدث ذلك نتيجة أمر واحد؛ الوعي بخيلاء الوجود الشخصي وعدم إمكانية تحقيق خيره، ومن ثَم يدرك الإنسان الحب الحقيقي إثر إنكاره لحياة الشخصية، ويمكنه حينها أن يحب الأب أو الابن أو الزوجة أو الأطفال والأصدقاء فعلًا.

الحب هو تفضيل الآخرين على نفسي وشخصيتي الحيوانية.

نسيان مصالح الشخصية القريبة من أجل تحقيق أهداف بعيدة للشخصية ذاتها، كما هو الأمر مع ذلك الشعور الذي يدعونه حبًّا، والذي لم يصل إلى حد إنكار الذات ليس سوى تفضيل لبعض الكائنات على غيرها من أجل الخير الشخصي. قبل أن يصير الحب الحقيقي شعورًا نشطًا لا بد أن يكون حالة محددة. الاندفاعات الشعورية لا تشكل جوهر الحب وجذره، ولا العقل المشوش كما يظنون عادة، لكنها حالة أكثر عقلانية وإشراقًا، ومن ثَم هدوءًا وبهجة؛ الحالة التي نجدها في الأطفال والعاقلين من الناس.

هذه الحالة هي الرغبة في الخير للناس جميعًا، وهي حالة حاضرة في الأطفال، لكنها لا تظهر في الإنسان البالغ إلا عندما ينكر خير شخصيته، ويزداد قوة إثر ذلك. نسمع كثيرًا كلمات من قبيل: «الأمور سيان بالنسبة لي. لست في حاجة إلى شيء». ونرى مع هذه الكلمات علاقة غير مُحبّة مع الناس. ولكن دع كل إنسان يحاول ولو لمرة واحدة فقط، في إحدى لحظات شعوره بالضغينة صوب الناس، أن يقول لنفسه بكل إخلاص: «الأمور سيان بالنسبة لي. لست في حاجة إلى شيء»، ولا يريد شيئًا لنفسه لبرهة من الوقت، وسيدرك بهذه التجربة الداخلية البسيطة، في حالة إخلاصه في إنكاره لذاته، كيف ستزول كل ضغينة من قلبه، وكيف سيصب

جدول الخير مياهه في قلبه الذي كان مغلقًا حتى ذلك الحين في وجه الناس جميعًا.

في الحقيقة الحب هو تفضيل الجميع على النفس. هكذا نفهمه، ولا يمكننا أن نفهمه بطريقة أخرى. عظمة الحب هي عظمة كسر عشري يتمثل بسطه في ميولي وتعاطفي مع الآخرين، وهو أمر خارج نطاق تحكمي، ومقامه هو حبي لنفسي، ويمكن زيادته أو تقليله إلى ما لا نهاية بحسب الأهمية التي أوليها لشخصيتي الحيوانية. أحكام عالمنا عن الحب ودرجاته هي أحكام عن عظمة الكسر بالنظر إلى البسط وحسب، دون تصور لقيمة المقام.

يتأسس الحب الحقيقي دائمًا على إنكار خير الشخصية، وما ينتج عن ذلك من رغبة في إسداء الخير للناس جميعًا. في ظل هذه الرغبة وحدها يمكن أن ينمو الحب الحقيقي في داخلنا تجاه مجموعة من الناس، سواء كانوا من ذوينا أم غرباء عنا. وحده هذا الحب يهب خير الحياة الحقيقي ويحل التناقض البادي بين الوعي الإنساني والحيواني.

الحب الذي لا يتأسس على إنكار الشخصية، وما ينتج عن ذلك من رغبة في إسداء الخير للناس جميعًا، ليس سوى حياة حيوانية مُعرَّضة للقدر ذاته من البلايا الموجودة في الحياة بدون هذا الحب المتوهم، بل وأكبر منها بقدر لا يمكن تصوره. لا يقتصر الأمر على أن شعور الولع أو الميل الذي يدعونه حبًّا لا يزيل الصراع المندلع بين الكائنات، ولا يُحرِّر الشخصية من اللهاث خلف المتع، ولا يُخلِّص من الموت، بل إنه يزيد الحياة ضبابًا، والصراع قسوة، كما يُزوِّد حدة التعطش إلى المتع للنفس وللآخرين، كما يزيد شعور الهلع من موت النفس والآخرين.

لا يمكن للإنسان الذي يفترض حياته في وجود الشخصية الحيوانية أن يحب، لأن الحب يجب أن يتمثل له في صورة نشاط يناقض حياته بدرجة مباشرة. إن حياة هذا الإنسان منحصرة في خير الوجود الحيواني، بينما يتطلب الحب قبل أي شيء آخر التضحية بهذا الخير. حتى إذا أراد إنسان لا يفهم الحياة أن يُسلِّم نفسه بصدق لنشاط الحب، فلن يجد نفسه في حالة تسمح له بذلك حتى يفهم الحياة ويُبدِّل علاقته بها تمامًا. يستمر الإنسان الذي يفترض حياته في خير الشخصية الحيوانية طوال الوقت في زيادة وسائل الخير الحيواني، مثل اكتساب الثروة والحفاظ عليها، ويُجبر الآخرين على خدمة خيره الحيواني، ويُوزِّع هذه الخيرات على من هو في أمس الحاجة إليها لضمان خيره الشخصي. كيف يمكنه إذن أن يضحي بحياته بينما حياته ليست قائمة عليه بل على الآخرين؟ الأصعب بالنسبة له هو أن يختار شخصًا من المفضلين لديه لينقل إليه خيراته التي كوَّمها ويخدمه.

إذا أراد إنسان أن يجد نفسه في حالة تسمح له بالتضحية بحياته، عليه قبل أي شيء آخر أن يرد ما أفرط في جمعه من الناس لخير حياتهم، ثم يفعل أمرًا آخر غير ممكن؛ يقرر من سيخدمه بحياته من وسط هؤلاء الناس. قبل أن يصير في حالة حب؛ أي حالة تضحية بالنفس وفعل الخير للآخرين، عليه أن يتوقف عن الكراهية؛ أي عن فعل الشر، وعليه أن يتوقف أيضًا عن تفضيل مجموعة من الناس عن غيرهم بحسب خيره الشخصي.

وحده الإنسان الذي لا يعترف بخير حياته في الحياة الشخصية، ومن ثَم لا يهتم بهذا الخير الزائف، مما يسمح له بتحرير نياته الطيبة المتأصلة بداخله تجاه الناس، يشعر بالرضا من نشاط الحب. إن خير هذا الإنسان

في الحب، كما أن خير النبات في الشمس، ومن ثَم كما لا يمكن لأي نبات مكشوف أن يسأل، وهو لا يسأل فعلًا، في أي اتجاه يجب أن ينمو، وما إذا كان الضوء نافعًا له أم لا، وما إذا كان يجدر به أن ينتظر ضوءًا آخر أفضل، بل يمتص هذا الضوء الوحيد الموجود في العالم ويميل له، كذلك هو الأمر مع الإنسان الذي ينكر خير الشخصية، فهو لا يفكر فيما يجب أن يعيده مما أخذه من الآخرين وإلى من منهم، وما إذا كان هناك نوع حب أفضل من ذلك الذي يُفصح عن مطالبه الآن، بل يهب نفسه ووجوده برمته لهذا الحب الملائم له والبادي لعينيه. وحده مثل هذا الحب يشبع الطبيعة العقلية للإنسان.



الفصل الخامس والعشرون

الحب هو النشاط الوحيد والكامل للحياة الحقيقية

ليس هناك حب أعظم من أن يضحي أحد بنفسه من أجل صديقه[1]. لا يكون الحب حقيقيًّا إلا عندما ينطوي على تضحية بالنفس. لا يكون الحب حقيقيًّا إلا عندما يعطي صاحبه شخصًا آخر وقته وقواه، ليس ذلك وحسب، بل عندما يبذل جسده من أجل محبوبه، ويعطيه حياته كلها. جميعنا يدرك أن ذلك وحده هو الحب، ولا نجد خيرنا إلا في هذا الحب، والعالم ليس موجودًا إلا بسبب هذا الحب. الأم التي ترضع وليدها تبذل نفسها مباشرة حيث تُقدِّم جسدها طعامًا لوليدها، ولا حياة لهما دون ذلك. هذا هو الحب؛ أن تبذل نفسك وتُقدِّم جسدك طعامًا لآخر، مثل أن يضني كل عامل جسده في العمل من أجل تحقيق الخير للآخرين، ويقترب من الموت. هذا الحب غير ممكن إلا للإنسان الذي لا يجد شيئًا يقف عائقًا أمام اختياره أن يضحي بنفسه من أجل أحبائه. الأم التي تعطي ابنها لمرضعة لا يمكنها أن تحبه، والشخص الذي يكسب المال ويُكوِّمه لا يستطيع أن يحب.

«مَنْ قَالَ: إِنَّهُ فِي النُّورِ وَهُوَ يُبْغِضُ أَخَاهُ، فَهُوَ إِلَى الآنَ فِي الظُّلْمَةِ. مَنْ

(1) إشارة إلى: لَيْسَ لأَحَدٍ حُبٌّ أَعْظَمُ مِنْ هذَا: أَنْ يَضَعَ أَحَدٌ نَفْسَهُ لأَجْلِ أَحِبَّائِهِ. يوحنا (13:15)

يُحِبُّ أَخَاهُ يَثْبُتُ فِي النُّورِ وَلَيْسَ فِيهِ عَثْرَةٌ. وَأَمَّا مَنْ يُبْغِضُ أَخَاهُ فَهُوَ فِي الظُّلْمَةِ، وَفِي الظُّلْمَةِ يَسْلُكُ، وَلا يَعْلَمُ أَيْنَ يَمْضِي، لأَنَّ الظُّلْمَةَ أَعْمَتْ عَيْنَيْهِ. يَا أَوْلادِي، لا نُحِب بِالْكَلامِ وَلا بِاللِّسَانِ، بَلْ بِالْعَمَلِ وَالْحَقِّ! وَبِهذَا نَعْرِفُ أَنَّنَا مِنَ الْحَقِّ وَنُسَكِّنُ قُلُوبَنَا قُدَّامَهُ. بِهذَا تَكَمَّلَتِ المحَبَّةُ فِينَا: أَنْ يَكُونَ لَنَا ثِقَةٌ فِي يَوْمِ الدِّينِ، لأَنَّهُ كَمَا هُوَ فِي هذَا الْعَالَمِ، هكَذَا نَحْنُ أَيْضًا. لا خَوْفَ فِي المحَبَّةِ، بَلِ المحَبَّةُ الْكَامِلَةُ تَطْرَحُ الْخَوْفَ إِلَى خَارِجٍ لأَنَّ الْخَوْفَ لَهُ عَذَابٌ. وَأَمَّا مَنْ خَافَ فَلَمْ يَتَكَمَّلْ فِي المحَبَّةِ»[1].

وحده هذا الحب يعطي حياة حقيقية للناس.

«تُحِبُّ الرَّبَّ إِلهَكَ مِنْ كُلِّ قَلْبِكَ، وَمِنْ كُلِّ نَفْسِكَ، وَمِنْ كُلِّ فِكْرِكَ. هذِهِ هِيَ الْوَصِيَّةُ الأُولَى وَالْعُظْمَى. وَالثَّانِيَةُ مِثْلُهَا: تُحِبُّ قَرِيبَكَ كَنَفْسِكَ»[2]. هكذا أجاب المسيحُ الناموسي. قال المسيح عن ذلك أيضًا: «بِالصَّوَابِ أَجَبْتَ. اِفْعَلْ هذَا فَتَحْيَا»[3].

الحب الحقيقي هو الحياة. يقول تلميذ المسيح: «نَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّنَا قَدِ انْتَقَلْنَا مِنَ الموْتِ إِلَى الْحَيَاةِ، لأَنَّنَا نُحِبُّ الإِخْوَةَ. مَنْ لا يُحِبَّ أَخَاهُ يَبْقَ فِي الموتِ»[4]. وحده من يحب يعيش هكذا.

الحب وفقًا لتعليم المسيح هو الحياة ذاتها، لكنه ليس حياة غير عقلانية مؤلمة ومهلكة، بل حياة مباركة لا نهائية. جميعنا يعرف ذلك. الحب ليس استنتاجًا عقليًّا، لكنه نتيجة لنشاط محدد، وهو نشاط يبعث أكبر قدر من

---

(1) مقاطع من إصحاحات (2، 3، 4) من رسالة يوحنا الأولى.
(2) متى (22: 37ـ 39).
(3) لوقا (10: 28).
(4) يوحنا الأولى (3: 14).

البهجة ويكتنفنا من كل جانب، ونعرفه جميعًا في أنفسنا منذ أولى لحظات الطفولة، ويظل كذلك ما دام لم تعترضه التعاليم الزائفة في نفوسنا، ولم تحرمنا بعد من إمكانية اختباره.

ليس الحب ميلًا إلى ما يزيد الخير الزمني لشخصية الإنسان مثلما هو الحال مع حبنا لشخصيات أو أشياء مختارة، بل هو سعي لخير الآخرين يبقى في الإنسان بعدما ينكر خير الشخصية الحيوانية.

ومن منا لم يختبر ذلك الشعور المبارك، ولو لمرة واحدة؟ وغالبًا ما يكون ذلك قد حدث في أقدم فترات الطفولة حينما لم يكن كل ذلك الكذب قد ملأ أنفسنا؛ ذلك الكذب الذي يخنق الحياة فينا. إنه ذلك الشعور الرقيق المبارك الذي يجعلنا نود أن نحب الجميع؛ الأقرباء والأب والأم والإخوة والأشرار والأعداء والكلب والجواد والعشب... إنه يجعلنا نريد شيئًا واحدًا؛ أن يكون الجميع بخير وسعداء، كما يجعلنا نريد أن نسلك بحيث نحقق للجميع هذه السعادة، ونبذل أنفسنا وحياتنا كلها ليكون الجميع بخير وسرور. هذا الشعور موجود، وهو وحده الحب، وفيه وحده حياة الإنسان.

في مثل هذا الحب وحده تكمن الحياة، وتتجلى في روح الإنسان كنبتة بارزة لطيفة وسط أعشاب أخرى خبيثة خشنة؛ ألا وهي شهوات الإنسان المتنوعة. في البداية يبدو للناس والإنسان ذاته أن هذه النبتة التي يجب أن تنمو وتصير هي تحديدًا شجرة تسكنها الطيور تشبه النبتات الأخرى. بل إن الناس يفضلون في البداية نبتات الأعشاب الخبيثة التي تنمو أسرع، ومن ثَم يتوقف نمو نبتة الحياة الوحيدة وتموت. لكن الأسوأ من ذلك، وهو ما يحدث عادة، هو أن نجد الناس قد سمعوا أن

من بين هذه النبتات ثمة نبتة واحدة حقيقية حيوية تسمى «الحب»، وبدلًا من حمايتها يطأونها ويُربُّون نبتة أخرى سامة يسمونها «الحب». لكن هناك ما هو أسوأ أيضًا: يمسك الناس بالنبتة بأياديهم الخشنة صارخين: «لقد وجدناها... نحن الآن نعرفها وسنتميها. الحب! الحب! إنه أسمى شعور... ها هو!». ويبدأ الناس في زرعها والإمساك بها وسحقها حتى تموت قبل أن تتفتح، ويقول هؤلاء الناس أو غيرهم: «كل هذا هراء وتفاهات وعاطفية فجة». عندما تظهر نبتة الحب بلطف لا تحتمل اللمسات الخشنة، ولا تكتسب قوة إلا عندما تنمو. كل ما يفعله الناس لها يزيد حالها سوءًا. إنها ليست في حاجة إلا لشيء واحد؛ ألَّا يحجب أحد عنها شمس العقل القادرة وحدها على أن تجعلها تنمو.

الفصل السادس والعشرون

تَوجُّه جهود الناس صوب التحسين غير الممكن لوجودهم الشخصي يحرمهم من الحياة الوحيدة الحقيقية

لا يمكن للمرء أن ينال خيره إلا بإدراك وهم وخداع الوجود الحيواني، وتحرير الحياة الحقيقية الوحيدة التي هي الحب. وما الذي يفعله الناس لتحقيق ذلك الخير؟ يحاول الناس الذي يتألف وجودهم من الزوال التدريجي للشخصية، والاقتراب الحتمي من موت هذه الشخصية، والذين لا يمكنهم إدراك ذلك، أن يؤكدوا بكل الطرق هذه الشخصية الهالكة طوال حياتهم، بل إن هذا هو الأمر الوحيد الذي يشغلهم، ويحاولون إرضاء شهوات هذه الشخصية؛ الأمر الذي يحرمهم من إمكانية نيل الخير الحقيقي الوحيد للحياة؛ الحب.

إن نشاط من لا يفهمون الحياة طوال فترة وجودهم مُوجَّه إلى الصراع من أجل البقاء، ونيل المتع، وتخليص النفس من صنوف المعاناة وإبعاد الموت الحتمي عن أنفسهم.

لكن زيادة المتع تزيد حدة الصراع وحساسية المعاناة وتزيد الموت

اقترابًا. ثمة وسيلة واحدة نخفي بها عن أنفسنا اقتراب الموت؛ أن نزيد مجددًا المتع، لكن زيادة المتع تصل إلى حد لا يمكن بعده زيادتها، ثم تتحول إلى معاناة، ولا يتبقى لنا سوى حساسية المعاناة والهلع من الاقتراب المتزايد للموت. يبدو لنا الأمر كدائرة زائفة يصير فيها شيء سببًا لشيء آخر ويقويه. مصدر الهلع الرئيس في حياة الناس الذين لا يفهمون الحياة هو أنهم يعتبرون كافة متع حياة الثراء متعًا حقيقية، وبذلك لا يستطيعون أن يوزعوها بالتساوي بين الناس جميعًا، ويتوجب أن تُنتزع هذه المتع من الآخرين وتُكتسب بالعنف والشر وتدمير فرصة معاملة الآخرين بصلاح، وهو الأمر الذي ينمو الحب في كنفه. لذلك تظل المتع دائمًا في حالة تناقض مع الحب، وكلما ازدادت قوة ازداد التناقض بينهما. من ثَم كلما ازدادت حدة وقوة النشاط الساعي إلى نيل المتع ازدادت عدم إمكانية تحقق الخير الوحيد الملائم للإنسان؛ الحب.

لا تُفهم الحياة بالصورة التي يدركها بها الوعي العقلي بوصفها غير مرئية، لكنها تتضمن خضوعًا لا شك فيه في كل لحظة من قِبل الشخصية الحيوانية لقانون العقل الذي يحرر الخير في الإنسان تجاه جميع الناس، ونشاط الحب الذي ينتج عنه، بل تُفهم كوجود حيواني وحسب، يستمر لمهلة معينة من الوقت في ظروف نرتبها ونحددها من شأنها أن تستبعد أي إمكانية لصنع الخير لجميع الناس.

بالنسبة للناس الذين تشرَّبوا التعليم الدنيوي ووجَّهوا عقولهم إلى ترتيب ظروف معينة للوجود، تبدو زيادة خير الحياة مرهونة بتوفر أفضل ظرف مادي لوجودهم. كلما ازداد تحسن الظرف المادي الذي يكتنف وجودهم، والذي يعتمد على مزيد من العنف تجاه الناس، ازداد حجم

التناقض بينه وبين الحب. من ثَم كلما تحسنت ظروفهم قلَّت إمكانية الحب والحياة لديهم.

لم يستخدم الناس عقولهم ليفهموا أن خير الوجود الحيواني لا يساوي شيئًا للجميع كصفر، بل اعترفوا بأن هذا الصفر يُشكِّل قيمة عظيمة يمكنها أن تقل أو تزيد، ويستخدمون كامل عقولهم التي ظلت بلا عمل من أجل الزيادة المتوهمة لقيمة هذا الصفر.

الناس لا يرون أن اللاشيء أو الصفر، مهما تضاعفت قيمته، يظل كما هو بالنسبة للجميع؛ يظل صفرًا، ولا يرون أن وجود الشخصية الحيوانية لكل إنسان يُشكِّل البلية ذاتها، وأنه لا يمكن لأي ظرف مادي أن يجعل الناس سعداء. الناس لا يريدون إدراك أنه لا يمكن أن تجلب أحد أشكال الوجود الجسدي سعادة أكثر من غيرها، وأن ذلك هو القانون ذاته الذي بموجبه يستحيل أن ترتفع بعض المياه فوق مستوى معين لسطح البحيرة. لا يرى من شوَّهوا عقولهم ذلك، ويستخدمون عقلهم المشوَّه من أجل تحقيق ما لا يمكن تحقيقه، مثل رفع المياه في بعض بقاع البحيرة فوق مستوى سطح المياه العام بها. إن وجود البشر برمته يمر بصورة أشبه بما يفعله الأطفال حينما يغتسلون في المياه ويسمون ما يفعلونه «طهو الجعة».

يبدو لهم أن وجود الناس يمكن أن يكون أفضل أو أسوأ، أسعد أو أتعس. يقولون إن وجود عامل فقير أو إنسان مريض أسوأ وأتعس، وإن وجود ثري أو معافى البدن أفضل وأسعد، وهم يُوجِّهون كافة قوى عقولهم صوب تجنب الوجود السيِّئ والتعيس والفقير والمريض، رغبة في أن ينعموا بوجود جيد وثري معافى وسعيد.

تتطور أجيال وأجيال على أساس تنظيم ودعم هذه الأنواع الحياتية المختلفة الأسعد، وعلى أساس برامج تحقيق هذه الحيوات المتخيلة الأفضل، كما يسمون الوجود الحيواني، وتم توريث هذه الأساليب للأجيال التي تلتها. يتنافس الناس فيما بينهم على تقديم أفضل دعم ممكن لهذه الحياة السعيدة التي ورثوها عن الوالدين، أو يتنافسون على صنع حياة أخرى لأنفسهم أسعد. يبدو للناس أن أفضل ما يفعلونه هو دعم هذا النظام المتوارث للوجود، أو صنع واحد آخر جديد أفضل بحسب هذه التصورات.

يُدعِّم الناس بعضهم بعضًا في هذا الخداع، ومن ثَم يحدث كثيرًا أن يقتنعوا بإخلاص بأن الحياة تتمثل في هذا التضارب الجنوني للمياه، وهو جنون يبدو واضحًا لهم أنفسهم. يصيرون على قناعة قوية جدًّا بذلك، حتى إنهم يتنحون بازدراء عن الدعوة إلى الحياة الحقيقية التي لا يتوقفون عن سماع نداءاتها، سواء في تعليم الحقيقة أو في النماذج الحية التي يرونها في بشر أمامهم، أو في قلوبهم الصماء التي لا يمكن لصوت العقل والحب أن يزول كاملًا منها.

يحدث أمر مدهش حقًّا! نجد أن الناس أو عددًا كبيرًا منهم لديه إمكانية تحقيق حياة عقلانية مُحبِّة، ويجدون أنفسهم في وضع كباش يخرجونها من منزل شب به حريق، وقد تصوروا أن من ينقذونهم يودون أن يلقوا بهم في النيران؛ فيستغلون كل ما لديهم من قوة لمصارعة من يريدون إنقاذهم.

لا يريد الناس أن يفارقوا هذا المنزل المشتعل من فرط هلعهم من الموت والمعاناة؛ فيُعذِّبون أنفسهم بأنفسهم، ويحرمون أنفسهم من الفرصة الوحيدة لتحقيق خيرهم وحياتهم.

الفصل السابع والعشرون

الخوف من الموت ليس سوى وعي بتناقض الحياة الذي لا يمكن حله

يقول صوت الحقيقة للناس: «ليس هناك موت». «أَنَا هُوَ الْقِيَامَةُ وَالْحَيَاةُ. مَنْ آمَنَ بِي وَلَوْ مَاتَ فَسَيَحْيَا، وَكُلُّ مَنْ كَانَ حَيًّا وَآمَنَ بِي فَلَنْ يَمُوتَ إِلَى الأَبَدِ. أَتُؤْمِنِينَ بِهذَا؟»[1].

«ليس هناك موت» هذا ما قاله معلمو البشرية العظماء، ويشهد به أيضًا ملايين الأشخاص بحياتهم من الذين فهموا معنى الحياة. هذا ما يشعر به أيضًا كل إنسان حي في روحه في لحظة تجلي الوعي. لكن ليس بوسع من لا يفهمون الحياة ألا يخشوا الموت. إنهم يرونه ويؤمنون به.

يصرخ هؤلاء الناس بغضب واستياء: «كيف تقولون إنه ليس هناك موت؟ هذا تصوف! الموت قابع أمام أعيننا، وقد حصد حياة الملايين وسيحصد حياتنا نحن أيضًا. مهما قلتم إنه غير موجود فسيظل موجودًا. ها هو!». وهم يرون ما يتحدثون عنه كما يرى المريض النفسي شبحًا يجعله يشعر بالهلع. ليس بوسعه أن يلمس هذا الشبح، ولم يسبق له أن فعل ذلك.

---

(1) يوحنا (11: 25، 26).

إنه لا يعرف شيئًا عن نياته، لكنه يشعر بالخوف والمعاناة من هذا الشبح المتوهم الذي يحرمه من إمكانية الحياة. هكذا هو الأمر أيضًا مع الموت. لا يعرف الإنسان الموت، ولم يسبق له قطّ أن عرفه، ولم يحدث أن لمسه قَطُّ، وهو لا يعرف شيئًا عن نيته تجاهه. لماذا يخشاه إذن؟

يقول من لا يفهمون الحياة: «لم يستولِ عليَّ قَطُّ، لكني أعرف أنه سوف يفعل... سوف يستولي عليَّ ويدمرني. هذا أمر مريع».

لو كان بوسع أناس ذوي تصور زائف عن الحياة أن يفكروا بهدوء وتمعن، وبصورة صحيحة في أساس تصورهم عن الحياة، لوصلوا حتمًا إلى استنتاج مفاده أنه ليس هناك أي شيء سيِّئ أو رهيب في حقيقة حدوث تغيير في الوجود الجسدي لكافة الكائنات يُسمَّى موتًا.

سوف أموت... حسنًا ما المريع في ذلك؟ كم من تغييرات مختلفة قد حدثت ولا تزال تحدث في وجودي الجسدي ولم أخشَها؟ لماذا أخاف إذن من هذا التغيير الذي لم يحل بعد، والذي لا يقتصر أمره على أنه لا يتضمن أي شيء ينفر عقلي منه، بل إنه أيضًا مفهوم ومعروف وطبيعي بالنسبة لي، حتى إنني ظللت على مدار حياتي أصنع تصورات ـ وما زلتُ ـ قَبلتُ فيها موت البشر والحيوانات كشرط ضروري ومقبول من شروط الحياة. ما المريع في ذلك؟

ليست هناك سوى نظرتين منطقيتين متماسكتين للحياة: واحدة زائفة تُفهَم فيها الحياة باعتبارها ظواهر مرئية تحدث في جسدي منذ الولادة وحتى الموت، والأخرى حقيقية تُفهم فيها الحياة كوعي غير مرئي أجده في نفسي. إحدى النظرتين زائفة، والأخرى حقيقية، لكن كلتيهما

منطقيتان، ويمكن للناس أن يحوزوا هذه أو تلك، ولكن من غير الممكن أن يخشى المرء الموت في ظل كلتيهما.

النظرة الأولى الزائفة التي ترى الحياة بوصفها ظواهر مرئية في الجسد تظهر بين الولادة والموت قديمة قدم العالم ذاته. إنها لم تتطور كما يظن الكثيرون على يد العلم الطبيعي والفلسفة المعاصرَين. كل ما حدث هو أن العلم الطبيعي والفلسفة المعاصرَين قد وصلا بهذه النظرة إلى حدودها القصوى، حيث صار أوضح لنا من ذي قبل عدم الاتساق بين هذه النظرة وبين متطلبات الطبيعة الإنسانية الأساسية، لكنها نظرة قديمة طوَّرها أناس في أدنى درجات التطور، وقد تم التعبير عنها عند الصينيين والبوذيين واليهود، وفي سفر أيوب وفي الحكمة القائلة: «لأَنَّكَ تُرَابٌ، وَإِلَى تُرَابٍ تَعُودُ»[1].

يمكن التعبير عن هذه النظرة في شكلها الحالي كالآتي: الحياة هي ألعاب عرضية للقوى الفاعلة في المادة، تتجلى في المكان والزمان. ما نسميه وعينا ليس هو الحياة بل خداع الحواس الذي يبدو لنا بفضله أن الحياة كامنة في هذا الوعي. الوعي شرارة تومض في المادة في حالة محددة. تومض هذه الشرارة وتتقد، ثم تخبو ثانية، وفي النهاية تنطفئ تمامًا. هذه الشرارة (أي الوعي) التي نختبرها بالمادة بين أبديتين، ليست في حقيقة الأمر شيئًا. بغض النظر عن أن الوعي يرى نفسه في صورة عالم لا نهائي، ويحكم على نفسه وعلى العالم اللانهائي، ويرى كل هذه اللعبة العرضية لهذا العالم، والأهم من ذلك يرى شيئًا نقيضًا غير عرضي،

(1) تكوين (3: 19).

ويصف هذه اللعبة بأنها عرضية، إلا أن هذا الوعي في حد ذاته هو نتاج للمادة الميتة... هو شبح يظهر ويتلاشى دون أن يترك له أثرًا أو مغزى. كل ما هو نتاج المادة يتغير باستمرار، وما يسمونها حياة ليست سوى حالة معينة من حالات المادة الميتة.

هذه نظرة إلى الحياة، وهي منطقية تمامًا. الوعي العقلي بالنسبة لهذه النظرة هو محض صدفة تتسق مع حالة محددة من حالات المادة، ولذلك ما نسميها حياة في وعينا ليست سوى طيف. ليس هناك سوى الموت. ما نسميها حياة هي لعبة الموت. في ظل هذه النظرة إلى الحياة لا يجب أن يكون الموت مريعًا بل الحياة بوصفها شيئًا غير متسق وغير منطقي، كما هو الأمر لدى البوذيين والمتشائمين الجدد، شونبهاور وهارتمان.

أما النظرة الأخرى إلى الحياة فهي كالآتي: الحياة ليست سوى ما أعيه في داخلي. أنا أعي حياتي دائمًا لا في صورة أني كنت وأني سأكون، كما أفكر فيها، بل أعي حياتي بوصفها موجودة، لم تبدأ في لحظة ومكان محددين، ولن تنتهي في مكان أو لحظة ما. ليس هناك ارتباك بين مفهومَي الزمان والمكان من جانب ووعيي من جانب آخر. تتجلى حياتي في الزمان والمكان، لكن هذا مجرد تجلٍّ لها. أما الحياة ذاتها فإني أعيها خارج نطاق الزمان والمكان. في ظل هذه النظرة إذن يصل الإنسان إلى نقيض ما وصل إليه من النظرة السابقة: الوعي بالحياة ليس وهمًا، بل كل ما هو مكاني وزماني هو وهم. لذلك لا يتضمن التوقف الزماني والمكاني للوجود الجسدي في ظل هذه النظرة شيئًا واقعيًا، ولا يمكنه أن يوقف حياتي الحقيقية، ليس ذلك وحسب، بل لا يمكنه حتى أن يعطلها. ليس هناك وجود للموت إذن في ظل هذه النظرة.

في ظل النظرتين المختلفتين إلى الحياة إذن لا يمكن أن يكون هناك خوف من الموت، إذا تمسك الناس حقًّا بهذه النظرة أو تلك.

لا يمكن للإنسان أن يخشى الموت لا ككائن حيواني ولا ككائن عقلاني. ليس لدى الكائن الحيواني وعي بالحياة، ومن ثَم لا يرى الموت، ونظرًا لأن الكائن الحيواني لديه وعي بالحياة، لا يمكنه أن يرى في موت الكائن الحيواني سوى حركة طبيعية لا تتوقف أبدًا للمادة. إذا خاف الإنسان، فالخوف لا يكون من الموت الذي لا يعرفه، بل من الحياة التي هي الأمر الوحيد الذي يعرفه الكائن الحيواني والعقلاني. هذا الشعور الذي يتمثل في حياة الناس في صورة خوف من الموت ليس سوى وعي بتناقض الحياة الداخلي، تمامًا مثلما أن الخوف من الأشباح ليس سوى وعي بحالة نفسية مَرَضية.

يقول صوت للإنسان: «سأتوقف عن الوجود... سأموت ويموت كل ما أفترض أنه حياتي». ويقول له صوت آخر: «لا أستطيع ولا يجب أن أموت. لا يجب أن أموت لكني سأموت». لا يعود سبب الهلع إذن إلى الموت، بل إلى الوعي بهذا التناقض الذي يكتنف الإنسان عند التفكير في الموت الجسدي. لا يتمثل الخوف من الموت في أن الإنسان يخشى توقف وجوده الحيواني، ولكن في تصوره لموت ما لا يمكن وما لا يجب أن يموت. التفكير في الموت المستقبلي ليس سوى انتقال بفكرة الموت الذي يتم في الحاضر إلى المستقبل. إن ظهور شبح الموت الجسدي المستقبلي لا يمثل يقظة لفكرة عن الموت بل على النقيض؛ إنه يقظة فكرة عن الحياة التي يجب أن يتسم بها الإنسان بينما هو لا يتسم بها. إنه شعور مشابه لما يجب أن يختبره إنسان يستيقظ إلى الحياة فيجد نفسه في تابوت تحت الأرض.

ثمة حياة، لكني في حالة موت، وها هو الموت! يبدو للإنسان إذن أن ما هو كائن وما يجب أن يكون يحيق به الدمار. يجن العقل الإنساني. أفضل دليل على أن الخوف من الموت ليس خوفًا من الموت، بل من الحياة الزائفة، هو أنه يحدث كثيرًا أن يقتل الناس أنفسهم من فرط خوفهم من الموت.

لا يشعر الناس بالهلع من التفكير في الموت الجسدي بسبب تفكيرهم في أن حياتهم ستنتهي، ولكن بسبب أن الموت الجسدي يكشف لهم بوضوح ضرورة عيش حياة حقيقية؛ الأمر الغائب عنهم. لذلك لا يحب من لا يفهمون الحياة أن يتذكروا الموت. إن تذكر الموت بالنسبة لهم يماثل الاعتراف بأنهم لا يعيشون بما يتسق مع وعيهم العقلي.

من يخشون الموت يخشونه لأنه يبدو لهم خواءً وضبابًا، لكنهم يرونه بهذه الصورة لأنهم لا يرون الحياة.

الفصل الثامن والعشرون

يمحو الموت الجسدي الجسد المكاني والوعِي الزماني، لكنه لا يستطيع أن يمحو ما يُشكل أساس الحياة؛ العلاقة الخاصة بين كل كيان والعالم

إذا اقترب من لا يرون الحياة من هذا الشبح الذي يخيفهم وجسُّوه لأدركوا أنه مجرد شبح وليس حقيقة.

يصيب الخوف من الموت الناس لهلعهم من فقدان الأنا الخاصة بهم مع الموت الجسدي؛ الأنا التي يشعرون أنها تؤلِّف حياتهم. سوف أموت ويتحلل جسدي وتزول أناي... أناي التي عاشت في جسدي طوال هذه الأعوام.

يُثمِّن الناس أناهم، مفترضين اتساقها مع الحياة الجسدية، ويستنتجون أنها لا بد أن تزول بزوال الحياة الجسدية.

هذا الاستنتاج شائع للغاية، ونادرًا ما تُساور الشكوك أحد بشأن صحته بالرغم من أنه اعتباطي تمامًا. تعوَّد من يعتبرون أنفسهم كائنات مادية، ومن يعتبرون أنفسهم كائنات روحية، على أن أناهم هي الوعي بجسدهم الذي عاش عددًا من الأعوام، إلى درجة أنه لم يعد يخطر ببالهم أن يفحصوا مدى صحة هذا التأكيد.

عشتُ 59 عامًا، وطوال هذه المدة وعيت نفسي داخل جسدي، ويبدو لي أن هذا الوعي في حد ذاته هو حياتي. لكن هذا ما يبدو لي وحسب. أنا لم أعِش 59 عامًا، ولا 5900 عام، ولا 59 ثانية... لا يمكن لوجود جسدي أو مدة وجودي أن يحددا حياة أناي. إذا سألت نفسي في كل لحظة من لحظات الحياة داخل نطاق وعيي: «من أنا؟». سأجيب: «كيان ما يفكر ويشعر»، أي أنه يتصل بالعالم بطريقة خاصة جدًّا. أنا وحدي من يدرك أناي. أما بالنسبة لمتى وأين ولدت، ومتى وأين بدأت أشعر وأفكر كما أشعر وأفكر الآن، فليست لديَّ أدنى فكرة عن ذلك. لا يقول لي وعيي سوى: أنا موجود... أنا موجود وتربطني هذه العلاقة بالعالم الذي أجد نفسي فيه الآن. بالنسبة لميلادي وطفولتي وفترات عديدة من شبابي، وأعوام منتصف العمر، واللحظات القريبة جدًّا، يحدث كثيرًا ألا أتذكر شيئًا عنها. إذا تذكرت شيئًا ما، أو ذكَّروني بشيء ما من ماضيَّ فإني أتذكره كما لو أنهم يحكون لي عن شخص آخر. على أي أساس إذن أؤكد أنه أثناء وجودي كنت أنا واحدة وحسب؟ جسدي ليس واحدًا ولم يحدث قَطُّ أن كان كذلك، فقد كان طوال الوقت ـ وما زال ـ مادة متدفقة باستمرار عبر شيء غير مادي وغير مرئي، يعي ما يتدفق عبره باعتباره جسدي. لقد تغيَّر جسدي عشرات المرات، ولم يظل شيء فيه على حاله؛ العضلات والأمعاء والعظام والمخ... كل شيء تغير.

إن جسدي ليس واحدًا إلا لأن شيئًا غير مادي يعترف به جسدًا واحدًا مع كافة هذه التغييرات التي تطرأ عليه. هذا الشيء غير المادي هو ما نسميه وعيًا، وهو وحده ما يحفظ وحدة جسدي ويعترف به جسدًا واحدًا له. في غياب هذا الوعي بذاتي منفصلًا عن كل شيء آخر، لم أكن لأعرف شيئًا

عن حياتي ولا عن أي حياة أخرى. لذلك عند التفكير لأول وهلة يبدو أن أساس كل شيء؛ أي الوعي، يجب أن يكون مستمرًّا. لكن هذا أيضًا غير صحيح، والوعي ليس مستمرًّا. على امتداد الحياة كلها والآن أيضًا تتكرر ظاهرة النوم التي تبدو لنا شديدة البساطة لأننا ننام كل يوم، لكنها بالتأكيد غير مفهومة إذا اعترفنا بما يستحيل ألا نعترف به؛ ألا وهو أن الوعي يتوقف أحيانًا تمامًا أثناء النوم.

كل يوم أثناء الانخراط في النوم ينقطع الوعي تمامًا ثم يُستأنف مجددًا. هذا الوعي هو الأساس الوحيد الذي يضم الجسد كله في وحدة واحدة ويَعترف به ملكًا لصاحبه. قد يبدو أنه لا بد أن ينهار الجسد أثناء توقف الوعي ويفقد سمة انفصاله عن غيره، لكن هذا لا يحدث لا في نوم طبيعي ولا في نوم مصطنع.

لكن علاوة على أن الوعي الذي يضم كافة شتات الجسد معًا في وحدة واحدة، يتوقف لفترات دون أن ينهار الجسد، فإنه هو ذاته يتغير كالجسد. كما أنه ليس هناك أي شيء مشترك بين مادة جسدي الآن ومادة جسدي منذ عشرة أعوام مضت، ومن ثَم ليس هناك جسد واحد، كذلك هو الأمر مع الوعي، حيث إنه لا وجود لوعي واحد. يختلف وعيي كطفل في الثالثة تمامًا عن وعيي الآن كاختلاف مادة جسدي الآن عن مادة جسدي منذ ثلاثين عامًا. الوعي ليس واحدًا، بل هناك مجموعة متعاقبة لا متناهية من صنوف الوعي.

يتضح إذن أن الوعي الذي يربط الجسد كله معًا ويعترف به ملكًا له، ليس واحدًا، بل ينقطع ويتغير. الوعي، أو وعي المرء بذاته، ليس واحدًا في الإنسان كما نتصور مثلما هو الحال مع الجسد. ليس هناك جسد

واحد للإنسان، ولا يوجد شيء واحد يفصل هذا الجسد عن كل ما عداه، ولا وعي واحد مستمر طوال حياة الإنسان، بل هناك مجموعة متعاقبة من صنوف الوعي مرتبطة فيما بينها، وبالرغم من ذلك يظل الإنسان يشعر بنفسه.

جسدنا ليس واحدًا، وما يعترف بأن هذا الجسد المتغير واحد ولنا، لا يحافظ على تواصله زمنيًّا، بل هناك مجموعة متغيرة من صنوف الوعي، ويحدث كثيرًا أن نفقد جسدنا، وهذه الأنواع من الوعي؛ نفقد جسدنا باستمرار ونفقد وعينا كل يوم عندما ننام، وفي كل يوم وكل ساعة نشعر في أنفسنا بتغيرات هذا الوعي، ولا نخشى حدوث ذلك. يتضح إذن أنه إذا كان هناك ما يمكن أن يدعوه المرء أناه والتي نخشى فقدانها بالموت، فلا بد أنها غير موجودة في هذا الجسد الذي نسميه جسدنا، ولا في هذا الوعي الذي نسميه وعينا في فترة زمنية معينة، بل في شيء آخر يُوحِّد كافة صنوف الوعي المتعاقبة.

ما هو إذن هذا الشيء الذي يربط كل ما هو متعاقب زمنيًّا في وحدة واحدة؟ ما طبيعة إذن تلك الأنا الأكثر جذرية التي لا تتألف من وجود جسدي وصنوف الوعي الجارية فيه، بل الأنا الأساسية التي تبدو كالمحور، حيث تنتظم عليها الخيوط واحدًا تلو الآخر في فترة الوعي؟ يبدو السؤال عميقًا وحكيمًا جدًّا، وفي الوقت ذاته ليس هناك طفل إلا ويعرف إجابة عنه ويكرِّرها عشرين مرة يوميًّا. «أنا أحب هذا ولا أحب ذاك». هذه كلمات بسيطة تمامًا، وبالرغم من ذلك تكشف إجابة السؤال عن جوهر هذه الأنا التي تربط كافة صنوف الوعي المختلفة. هذه هي الأنا التي تحب هذا ولا تحب ذاك. لا أحد يعرف لماذا يحب المرء هذا ولا يحب ذاك، وفيما يتعلق

بذلك، هذا هو تحديدًا ما يُشكِّل أساس حياة كل إنسان، وما يربط كافة حالات الوعي المختلفة زمنيًّا لكل فرد فيما بينها. يُؤثِّر العالم الخارجي على الناس جميعًا بالطريقة ذاته، لكن انطباعات الناس ـ حتى في ظروف متطابقة تمامًا ـ تختلف اختلافًا لا نهائي، سواء من حيث عدد الانطباعات التي ينالها المرء والتي يمكن أن تتجزأ إلى ما لا نهاية، أو من حيث قوتها. تتألف هذه الانطباعات من مجموعة متتالية من صنوف الوعي لدى كل فرد. لا ترتبط صنوف الوعي المختلفة السالفة إلا بسبب أن بعض هذه الانطباعات تؤثر على الوعي في الحاضر، والبعض الآخر لا يؤثر عليه في الحاضر. يتحدد تأثير هذه الانطباعات من عدمه على الإنسان بحسب حبه لهذا وعدم حبه لذاك بدرجة أو بأخرى.

وحدها درجة حبه التي قد تزيد أو تنقص هي التي تُطوِّر مجموعة من صنوف الوعي داخل الإنسان. لذلك فإن سمة أن يحب المرء شيئًا ولا يحب آخر بدرجة أو بأخرى، هي السمة الأساسية للأنا الإنسانية التي تتوحد فيها كافة صنوف الوعي المختلفة والمتقطعة. بالرغم من أن هذه السمة تتطور في حياتنا، فإننا نأتي بها إلى الحياة جاهزة من ماضٍ غير مرئي وغير معروف لنا.

تُسمى عادة هذه السمة الخاصة في الإنسان التي تجعله يحب شيئًا ولا يحب شيئًا آخر بدرجة أو بأخرى «الشخصية». يُقصد عادة بهذه الكلمة مجموعة خاصة من السمات في كل فرد تنتج عن ظروف مكانية وزمانية محددة. لكن هذا غير صحيح. السمة الأساسية في الإنسان التي بموجبها يحب هذا ولا يحب ذاك بدرجة أو بأخرى لا تنتج عن ظروف مكانية وزمانية، بل على النقيض؛ يتحدد تأثير الظروف المكانية والزمانية على

الإنسان أو عدم تأثيرها عليه بحسب هذه السمة المحددة في الإنسان التي يأتي بها إلى العالم، وبموجبها يحب هذا ولا يحب ذاك بدرجة أو بأخرى. يؤدي ذلك وحده إلى أن يولد الناس وينشأوا في ظروف مكانية وزمانية متطابقة تمامًا، وبالرغم من ذلك تظهر أقصى درجة تباين ممكنة بين الأنا الداخلية لكل منهم.

ما يُوحِّد كافة صنوف الوعي المختلفة ويربطها في سلسلة واحدة في جسدنا، هو شيء محدد تمامًا، بالرغم من أنه مستقل تمامًا عن ظروف المكان والزمان؛ إنه الشيء الذي يتمثل في علاقتي المحددة والاستثنائية بالعالم، وهو أناي الحقيقية والفاعلة. إني أعقل ذاتي كسمة رئيسة، وإذا كنت أعرف الآخرين فإني أراهم في صورة علاقات محددة بالعالم. عندما أدخل في تواصل روحي حقيقي مع الناس لا أحد منا يسترشد بالعلامات الخارجية، بل يحاول كل منا أن يخترقها ليصل إلى الجوهر؛ أي أن يدرك علاقة الآخرين بالعالم، وما يحبونه وما لا يحبونه وبأي درجة.

في حالة كل حيوان منفصل مثل جواد أو كلب أو بقرة، إذا كنت أعرفه وتربطني به علاقة روحية حقيقية، لا تتحدد هذه العلاقة بحسب العلامات الخارجية، بل بحسب العلاقة الخاصة التي تربط كل حيوان بالعالم، وإلى أي درجة يحب كل حيوان شيئًا أو لا يحبه. إذا وعيت اختلافات محددة بين أنواع الحيوانات، فإني بالمعنى الدقيق للكلمة، أعيها بحسب العلامات الخارجية بقدر ما أعيها بحسب العلاقة العامة التي تربط كل منها: الأسد ـ السمكة ـ العنكبوت، بالعالم. الأسود كلها بوجه عام تحب شيئًا واحدًا، بينما تحب الأسماك كلها شيئًا آخر، والعناكب شيئًا ثالثًا، ولهذا السبب تحديدًا تختلف هذه الحيوانات في تصوري وتبدو لي كائنات حية مختلفة.

حقيقة أني لا أميز في كل منها علاقة خاصة بالعالم لا تثبت غياب هذه العلاقة، بل تعني أن العلاقة الخاصة التي تربط حياة عنكبوت واحد بالعالم بعيدة عن مجال العلاقة التي تربطني بالعالم، ولذلك لم أفهم هذا العنكبوت بقدر ما فهم سيلفيو بيليكو[1] عنكبوته الخاص.

العلاقة الخاصة التي تربطني بالعالم هي أساس كل ما أعرفه عن نفسي وعن العالم برمته، وبسببها أرى الكائنات الأخرى التي تربطها علاقة خاصة أخرى بالعالم. لم تتأسس علاقتي الخاصة بالعالم في هذه الحياة، ولم تبدأ مع ظهور جسدي، ولا مقترنة بمجموعة متعاقبة من صنوف الوعي.

لذلك يمكن أن يزول جسدي المترابط بفعل وعيي الزمني، ويمكن أن يزول وعيي الزمني ذاته، ولكن لا يمكن أن تزول علاقتي الخاصة بالعالم التي تؤلف أناي الخاصة، والتي نشأ عنها كل ما هو موجود. لا يمكن أن تزول هذه العلاقة لأنها موجودة وحسب. لو لم يكن لها وجود لما عرفتُ هذه المجموعة المتعاقبة من صنوف الوعي، ولما عرفتُ جسدي ولا حياتي أو أي حياة أخرى. لذلك لا يمكن لزوال الجسد أو الوعي أن يكون دلالة على زوال علاقتي الخاصة بالعالم التي لم تبدأ ولم تظهر في هذه الحياة.

---

(1) كاتب وشاعر إيطالي.

الفصل التاسع والعشرون

يظهر الخوف من الموت بسبب أن الناس قد اعتبروا جزءًا صغيرًا من الحياة هو الحياة برمتها طبقًا لتصورهم الزائف

نخشى فقدان الأنا الخاصة بنا التي تربط الجسد وصنوف الوعي المختلفة معًا بالموت الجسدي، بالرغم من أن أناي لم تبدأ بولادتي، ومن ثَم لا يمكن لتوقف وعي زمني محدد أن يزيل ما يربط كافة صنوف الوعي الزمنية معًا.

يزيل الموت الجسدي حقًّا ما يحافظ على تماسك الجسد؛ أي الوعي بالحياة الزمنية. لكن هذا يحدث معنا كل يوم باستمرار عندما ننام. السؤال هو عما إذا كان بوسع الموت الجسدي أن يزيل ما يُوحِّد صنوف الوعي المتعاقبة معًا؛ أي علاقتي بالعالم أم لا. يتطلب تأكيد ذلك أن نؤكد أولًا أن هذه العلاقة الخاصة بالعالم، والتي تُوحِّد كافة صنوف الوعي المتعاقبة، قد ولدت مع وجودي الجسدي، ومن ثَم تموت معه. لكن الأمر ليس كذلك.

عندما أفكر في أساس الوعي أرى أن ما يُوحِّد صنوف وعيي المختلفة، ويزرع بداخلي قابلية معينة لشيء وبرودة تجاه شيء آخر، ومن ثَم يبقى شيء ما في داخلي بينما يختفي شيء آخر، وما يُحدِّد درجة حبي للخير

وكراهيتي للشر، هو علاقتي بالعالم، وهو تحديدًا الذي يؤلفني ويؤلف أناي الخاصة، وهو ليس نتاجًا لأي سبب خارجي، بل هو السبب الرئيس لكافة الظواهر الأخرى في حياتي.

إذا فكرت في الأمر على أساس الملاحظة، فسيبدو لي في البداية أن أسباب فرادة أناي تتمثل في سمات والديَّ، والظروف المؤثرة عليَّ وعليهما. لكن عندما أتقدم في التفكير في هذا الاتجاه لا يعود بإمكاني ألا أرى أنه إذا كانت أناي الخاصة كامنة في سمات والديَّ، والظروف المؤثرة عليهما، فلا بد أنها كامنة أيضًا في سمات كافة أسلافي وفي ظروف وجودهم، وهكذا يمضي الأمر إلى ما لا نهاية؛ أي أنه يمضي خارج نطاق الزمان والمكان. يعني ذلك أن أناي الخاصة قد ظهرت خارج نطاق المكان والزمان، وهي تحديدًا الأنا التي أعيها.

تستند علاقتي بالعالم إلى هذا الأساس اللازماني واللامكاني وحده، وهو ما يُوحِّد كافة صنوف الوعي التي أتذكرها، وصنوف الوعي التي تسبق حياتي ـ على حد تعبير أفلاطون، وهو الأمر الذي نشعر به جميعًا في أنفسنا ـ وعلى هذا الأساس وحده؛ أي على أساس علاقتي الخاصة بالعالم، تظهر أناي الخاصة التي نخشى زوالها بزوال الجسد.

لكن يلزم أن نفهم أن ما يربط كافة صنوف الوعي معًا، ويُشكِّل الأنا الخاصة بكل فرد موجود خارج نطاق الزمان، وكان موجودًا دائمًا وما زال موجودًا، وأن ما يمكن أن ينقطع، هو فقط مجموعة من صنوف الوعي الخاصة بفترة محددة. إذا فهمنا ذلك، فسيتضح لنا أن زوال آخر وعي زمني مع زوال الجسد، لا يستطيع أن يزيل الأنا الإنسانية الحقيقية مثلما هو الأمر مع النوم اليومي. لا يوجد إنسان واحد يخشى النوم، بالرغم من أنه يحدث

في النوم شيء شبيه بما يحدث في الموت؛ يحدث تحديدًا أن يتوقف الوعي لبرهة. لا يخشى الإنسان النوم بالرغم من أن زوال الوعي يحدث فيه تمامًا كما يحدث في الموت، وليس السبب في ذلك هو الجدال بأنه نام واستيقظ، ومن ثَم سوف يستيقظ مجددًا، حيث إن هذه الحجة غير سليمة لأنه يمكن أن ينام ويستيقظ ألف مرة، وفي المرة الأولى بعد الألف ينام ولا يستيقظ. لم يستخدم أحد قَطُّ هذه الحجة، ولا يمكن لمثل هذه الحجة أن تُطمئن صاحبها، لكن الإنسان يعرف أن أناه الحقيقية تعيش خارج نطاق الزمن، ومن ثَم لا يمكن لزوال وعيه الذي يحدث لبرهة أن يخرق حياته.

إذا نام إنسان لألف عام ـ كما يحدث في الحكايات الخرافية ـ فسينام بالهدوء ذاته الذي ينام به لساعتين. بالنسبة للوعي بالحياة الحقيقية، لا الزمنية، يتماثل مليون عام وثماني ساعات لأنه ليس هناك زمن بالنسبة لحياة كهذه.

زوال الجسد يزيل الوعي الحالي فقط...

حان الوقت ليتعود الإنسان على تغيير جسده، وعلى استبدال صنوف وعي أخرى بصنوف وعي مؤقتة[1]. بدأتْ مثل هذه التغييرات منذ أن بدأ الإنسان يعي نفسه ولم تتوقف. لا يخشى الإنسان التغييرات التي تطرأ على جسده، ولا يتوقف الأمر على أنها لا تصيبه بالهلع، بل إنه كثيرًا ما يرغب في الإسراع من وتيرة هذه التغييرات والنمو والنضج والاستشفاء. كان الإنسان كقطعة لحم حمراء، بوعي منحصر في متطلبات معدته. ها هو الآن رجل عاقل بلحية، أو امرأة تحب أطفالها البالغين. لا شيء متشابه إذن في

(1) الباء تُلحق بالمتروك: صنوف وعي مؤقتة.

الجسد أو الوعي بين الحالتين، وبالرغم من ذلك لم يُصب المرء بالهلع من هذه التغييرات التي أدت به إلى وضعه الراهن، بل تعوَّد عليها وحسب. ما المخيف إذن في التغيير القادم؟ أهو الزوال؟ ولكن ما يقف خلف كافة هذه التغييرات؛ خاصة العلاقة بالعالم، وما يؤلِّف الحياة الحقيقية لم يبدأ بولادة الجسد، بل خارج نطاق الجسد والزمان؛ فكيف يمكن إذن لتغيير مكاني أو زماني أن يزيل ما هو خارج نطاقه؟ يتفرس الإنسان في جزء صغير دقيق من حياته، ولا يريد أن يراها برمتها، ويرتجف من فكرة أن يُبعد عن عينيه هذا الجزء الصغير الأثير لديه. يُذكِّرنا ذلك بهذه القصة الفكاهية عن مجنون تخيل أنه لوح زجاج، وعندما أسقطوه أصدر صوتًا يشبه صوت تحطم الزجاج، ومات. إذا أراد الإنسان أن يحيا، فعليه أن يأخذ الحياة برمتها، وليس جزءًا صغيرًا منها يتجلى له داخل إطار المكان والزمان. من يأخذ الحياة برمتها سوف يُضاف له المزيد منها، ومن يأخذ جزءًا منها وحسب سوف ينتزع منه ما لديه[1].

---

(1) الإشارة إلى متى (25: 29) «أَنَّ كُلَّ مَنْ لَهُ يُعْطَى فَيَزْدَادُ، وَمَنْ لَيْسَ لَهُ فَالَّذِي عِنْدَهُ يُؤْخَذُ مِنْهُ».

الفصل الثلاثون

الحياة هي علاقة بالعالم. حركة الحياة هي تأسيس علاقة جديدة أسمى، ومن ثم الموت هو الدخول إلى مجال علاقة جديدة

لا يمكننا أن نفهم الحياة إلا كعلاقة محددة تربطنا بالعالم، وهكذا نفهمها في داخلنا وفي كافة الكائنات الأخرى.

لكننا لا نفهمها في داخلنا كعلاقة قائمة بالعالم وحسب، ولكن أيضًا كتأسيس علاقة جديدة بالعالم عبر إخضاع الشخصية الحيوانية المتزايد للعقل، وتجلي المزيد من الحب. يكشف لنا هذا الزوال الحتمي للوجود الجسدي الذي نراه في داخلنا عن أن العلاقة التي تربطنا بالعالم ليست مستمرة، لكننا مضطرون إلى تأسيس علاقة أخرى. يزيل تأسيس هذه العلاقة الجديدة؛ أي حركة الحياة، مفهوم الموت. لا يتمثل الموت إلا لإنسان لم يعترف بحياته في تأسيس علاقة عقلية تربطه بالعالم وفي تجلي المزيد من الحب، وبقي في ظل علاقته القديمة؛ أي بقي في درجة الحب ذاتها التي تدفعه إلى حب شخص وكراهية شخص آخر، وهي الدرجة التي أتى بها إلى الوجود.

الحياة حركة لا تتوقف، أما الإنسان الذي يظل على علاقته القديمة

بالعالم، ودرجة الحب ذاتها التي أتى بها إلى الحياة، يشعر بأن الحياة تتوقف، ويتمثل له الموت.

الموت مرئي ومريع لمثل هذا الإنسان وحسب. وجود هذا الإنسان ليس سوى موت مستمر. الموت مرئي ومريع له ليس في المستقبل وحسب، بل في الحاضر أيضًا، مع كل نقص يحدث في مجال الحياة الحيوانية، بداية من الصبا وحتى الشيخوخة، وذلك لأن حركة الوجود من الطفولة حتى البلوغ تبدو كأنها زيادة وقتية في قدر القوى، لكن في الواقع لا يتوقف تَصلُّب الأعضاء وتقليل درجة المرونة والحيوية منذ لحظة الولادة حتى الموت. يرى مثل هذا الإنسان الموت أمامه باستمرار، ولا يمكن لأحد أن ينقذه منه. بمرور كل يوم وكل ساعة يصير موقف هذا الإنسان أسوأ فأسوأ، ولا يمكن لأحد أن يُحسِّنه. علاقته الخاصة بالعالم، وحبه لشخص، وكراهيته لآخر، تبدو له شرطًا من شروط حياته، بينما يبدو له العمل الوحيد في الحياة؛ أي تأسيس علاقة جديدة بالعالم وزيادة الحب، عملًا غير مهم. تمر منه حياته برمتها بلا جدوى، فيما يتعلق بمحاولة التقليل من نقص الحياة الحتمي وتصلبها وضعفها وشيخوختها وصولًا إلى الموت.

لكن الأمر ليس كذلك لمن يفهم الحياة. يعرف مثل هذا الإنسان أن حياته الآنية تتضمن علاقته الخاصة بالعالم وحبه لأحدهم وكراهيته لآخر، وقد جلب ذلك من ماضٍ مخفي عنه. إنه يعرف أن هذا الحب لواحد والكراهية لآخر اللذين جلبهما معه، هما جوهر حياته، وليسا مجرد سمة عرضية لحياته، بل إنهما تحديدًا ما يُعبِّران عن حركة الحياة. وهو يفترض أن حياته تتمثل في هذه الحركة، وفي زيادة الحب.

عندما ينظر إلى ماضيه في هذه الحياة يرى من خلال صنوف الوعي

التي يتذكرها أن علاقته بالعالم قد تغيرت، وازداد خضوعه لقانون العقل، وازداد مجال وقوة الحب بلا توقف، ومنحه ذلك خيرًا مستقلًا أكثر فأكثر، وأحيانًا كان ذلك يتناسب مباشرة مع تقليل وجود الشخصية.

لا يقتصر الأمر على شعور مثل هذا الإنسان بالهدوء بعد أن يقبل حياته من الماضي غير المعروف له، مدركًا نموه المستمر، بل يشعر أيضًا بالسرور، وينقل ذلك الإحساس إلى المستقبل غير المرئي بعد له.

يُقال: المرض والعجز والشيخوخة والعودة إلى طفولة أخرى، هو زوال الوعي وحياة الإنسان. لكن على مَن مِن الناس ينطبق ذلك؟ أتصور يوحنا اللاهوتي بحسب التقليد الذي وصل إلينا وقد صار شيخًا وعادت إليه طفولة جديدة. بحسب التقليد كان لا يقول شيئًا سوى: «أيها الأخوة، أحبوا بعضكم بعضًا!». رجل يبلغ من العمر مائة عام، يغمغم والدموع في عينيه بالكلمات الثلاث ذاتها: «أحبوا بعضكم بعضًا». يُلتَهم الوجود الحيواني الواهن في هذا الإنسان كاملًا من قِبل علاقة جديدة بالعالم، وكائن حي جديد لم يعد يجد له مكانًا في الوجود الجسدي.

بالنسبة لإنسان يفهم الحياة على حقيقتها، يبدو الحديث عن انتقاص الأمراض والشيخوخة من حياته، والتأسف على ذلك، كإنسان يأسف على الانتقاص المستمر من ظله بقدر اقترابه من النور. الإيمان في زوال حياته بسبب زوال الجسد، يماثل بالنسبة له أن يؤمن بأن زوال ظل الشيء بعد تَعرُّضه لنور قوي هو علامة حقيقية على زوال الشيء ذاته. لا يمكن لإنسان أن يُدلي بهذه الملاحظات إلا إذا ظل ينظر طويلًا إلى الظل، إلى درجة أنْ تَصوَّر أن الظل هو الشيء ذاته.

بالنسبة لإنسان لا يعرف نفسه بحسب انعكاس الوجود داخل نطاق

المكان والزمان، بل بحسب زيادة قدر علاقة الحب بالعالم، يبدو زوال ظل الشروط المكانية والزمانية دلالة على زيادة درجة النور. بالنسبة لإنسان يفهم حياته كعلاقة خاصة بالعالم الذي جاء إليه ونمت فيه حياته بزيادة قدر الحب، يبدو الإيمان بزواله كإنسان يعرف قوانين العالم المادية المرئية، يؤمن بأن أمه وَجَدَته تحت أوراق الملفوف (الكرنب)، وبأن جسده قد طار فجأة إلى مكان مجهول ولم يبقَ منه شيء.

الفصل الحادي والثلاثون

لا تتوقف حياة الناس بموتهم في هذا العالم

لكن يمكن أن تتضح خرافة الموت بمزيد من الوضوح، ولن أقول من زاوية أخرى، ولكن طبقًا لجوهر الحياة الذي نعرفه فعلًا. عاش صديقي أو أخي كما عشت، وقد توقف الآن عن العيش. تمثلت حياته في وعيه، وقد جرت بحسب شروط وجوده الجسدي. يعني ذلك أن وعيه لا يحتاج إلى مكان أو زمان ليتجلى، وكذلك هو الأمر بالنسبة لي. عاش أخي، وتعاملت معه، وهو الآن لم يعد موجودًا، ولن أعرف أبدًا أين هو.

«لقد تمزقت كل رابطة بينه وبيننا. لم يعد موجودًا بالنسبة لنا، ولن نعود نحن أيضًا موجودين لمن يبقى بعدنا. ما ذلك إذن إذا لم يكن موتًا؟»، هكذا يتحدث من لا يفهمون الحياة، وهم يرون في توقف التواصل المادي دليلًا لا غبار عليه على حقيقة الموت، ومع ذلك ليس هناك ما هو أوضح وأجلى من توقف الوجود الجسدي للأقرباء ليبدد وهمية فكرة الموت. مات أخي. ماذا حدث إذن؟ ما حدث هو أن تجلي علاقته بالعالم التي يمكنني أن ألاحظها داخل نطاق المكان والزمان قد اختفى من أمام عيني، ولم يتبقَّ شيء.

«لم يتبقَّ شيء»... هذا ما كانت ستقوله الخادرة أو الشرنقة التي لم تصِر

فراشة بعدُ إثر رؤيتها للشرنقة المجاورة لها فارغة. لكن كان بإمكان الشرنقة أن تقول ذلك إذا استطاعت أن تفكر وتتكلم، لأنها بعد فقدان جارتها لم يعد بوسعها أن تشعر بها بأي طريقة. الأمر ليس كذلك مع الإنسان. مات أخي، وظلت شرنقته حقًّا فارغة، ولم أعد أراه في شكله القديم الذي تعودت على رؤيته فيه، لكن زواله من أمام عينيَّ لم يُزِل علاقتي به. ظلت لديَّ ذكرى عنه كما نقول عادة.

لم تبقَ لديَّ ذكرى عن يده أو وجهه أو عينه بل عن إطاره الروحي.

ما طبيعة تلك الذكرى؟ يا لها من كلمة بسيطة وكم تبدو مفهومة! تزول أشكال الكريستال والحيوانات، ولا تبقى لديها ذكريات. لديَّ ذكرى فعلًا عن صديقي وأخي، وتزداد هذه الذكرى حيوية بقدر اتساق حياة صديقي وأخي مع قوانين العقل، وبقدر تجلي حياة كل منهما في مجال الحب. ليست هذه الذكرى تصورًا وحسب، بل هي شيء يؤثر عليَّ بالطريقة ذاتها التي أثَّرت عليَّ بها حياة صديقي وأخي أثناء وجودهما الأرضي. هذه الذكرى هي أكثر الأطر اتسامًا باللامرئية واللامادية، أحاطت بحياته وأثَّرت عليَّ وعلى الآخرين أثناء وجوده الجسدي، كما تؤثِّر عليَّ بعد موته. تتطلب هذه الذكرى مني بعد موته ما كان يطلبه مني تحديدًا أثناء حياته. علاوة على ذلك تصير هذه الذكرى بالنسبة لي مُلزمة بدرجة أكبر من إلزامه لي أثناء حياته. لا يقتصر الأمر على عدم زوال أو نقص قوة الحياة التي كانت في أخي، ولم تبقَ حتى كما هي، بل ازدادت واكتسبت مزيدًا من القوة في تأثيرها عليَّ.

تؤثر قوة حياته بعد موته الجسدي بالقوة ذاتها، أو بدرجة أقوى منها قبل موته، وتبدو في تأثيرها ككيان حي حقيقي. على أي أساس يمكنني

أن أؤكد أن أخي لم تعد له حياة بموته، إذا كنت أشعر بقوة حياته بنفسي بالدرجة ذاتها التي كنت أشعر بها أثناء وجوده جسديًا؛ أي أشعر بعلاقته بالعالم التي شرحت لي علاقتي بالعالم؟ كل ما بوسعي أن أقوله هو أنه خرج من إطار هذه العلاقة الدنيا بالعالم الذي كان فيها كالحيوان، والتي لا أزال فيها. بوسعي أن أقول إني لا أرى مركز علاقته الجديدة بالعالم، لكن ليس بوسعي أن أنكر حياته، وذلك لأني أشعر بقوتها. نظرت إلى المرآة ورأيت كم أثّر عليَّ، ثم غبشت المرآة. لا أرى المزيد من كيفية تأثيره عليَّ، لكنني أشعر بكل كياني بأنه يؤثر عليَّ، ومن ثَم هو موجود.

لكن علاوة على ذلك لا يقتصر الأمر على أن حياة أخي الراحل غير المرئية لي تؤثر عليَّ، لكنها تدخل إلى ثنايا كياني. لقد صارت أناه الحية الخاصة به، وعلاقته بالعالم هما علاقتي بالعالم. يبدو الأمر كما لو أنه بتأسيس علاقته بالعالم يرفعني إلى تلك الدرجة التي يقف عليها، وتصير أناي الحية الخاصة أوضح على هذه الدرجة التالية التي صعد إليها. صحيح أنه غائب عن عيني، لكنه يجذبني إليه. هكذا فإنني أدرك بنفسي حياة أخي الذي انخرط في نوم الموت الجسدي، ولذلك لا يمكنني أن أشك، لكني في ملاحظتي لتأثير هذه الحياة التي صارت غائبة عن عيني على العالم أصير على قناعة كاملة بتأثيرها. مات إنسان، لكن علاقته بالعالم تواصل التأثير على الناس، ولا تقتصر أفعاله على ما يحدث منها أثناء حياته، بل إن تأثيرها يزداد قوة بنسبة كبيرة جدًّا، وكلما ازداد اتساقها مع العقلانية والحب زاد مقدارها ونمت كما هو الأمر مع كل حي، حيث لا يتوقف أبدًا، ولا يعرف الراحة.

مات المسيح منذ زمن بعيد، وامتد وجوده الجسدي لفترة قصيرة،

وليس لدينا تصور واضح عن شخصيته الجسدية، لكن قوة حياته القائمة على العقلانية والحب، وعلاقته بالعالم، لا تزالان تؤثران بقوة لا مثيل لها على ملايين الناس الذين يستقبلون في داخلهم علاقته بالعالم ويعيشون بما يتسق معها. ما العنصر الفاعل في ذلك التأثير؟ ما طبيعة ذلك العنصر الذي ارتبط سابقًا بوجود المسيح الجسدي الذي يُمثِّل استمرارًا ونموًّا لحياته؟ نقول إن الفاعل ليست حياة المسيح بل نتائجها. بقولنا لهذه الكلمات التي ليس لها أي معنى يبدو لنا كأننا قلنا أمرًا أكثر وضوحًا وتحددًا من قول إن هذا العنصر هو قوة المسيح الحي ذاتها. هذا ما يمكن للنمل الذي ظل يحفر حول جوزة بلوط نمت وصارت شجرة بلوط أن يقوله. نمت الجوزة وصارت شجرة بلوط، وها هي تشق الأرض بجذورها وتمد أغصانها وأوراقها وتثمر جوزات جديدة، وتحجب الضوء والمطر، وتُغيِّر طبيعة كل ما عاش حولها. يقول النمل: «هذه ليست حياة الجوزة، بل نتائج حياتها التي انتهت عندما أخذناها وطرحناها بعيدًا في حفرة».

مات أخي بالأمس أو منذ ألف عام مضت، وتُواصل قوة حياته التي كان لها تأثيرها أثناء وجوده الجسدي التأثير عليَّ وعلى مئات الآلاف وملايين الناس بدرجة أقوى، بغض النظر عن أن مركز هذه القوة الذي كان مرئيًّا لي أثناء وجوده الجسدي الزمني قد تلاشى من أمام عيني. ماذا يعني ذلك؟ رأيت النور المنبعث من العشب الذي يحترق أمامي. احترق العشب، لكن النور ازداد قوة. لا أعرف سببًا لهذا النور، ولا أعرف ما الذي يشتعل تحديدًا، لكن بوسعي أن أستنتج أن هذه النيران التي أحرقت العشب تحرق الغابة الآن، أو شيئًا آخر لا يسعني أن أراه. يعني ذلك أن الأمر لا يقتصر على أني أرى النور الآن، بل إنه قد صار المرشد الوحيد

لي، وهو ما يمنحني الحياة: إني أعيش بفضل هذا النور. كيف يمكنني أن أنكره؟ يمكنني أن أعتقد أن قوة هذه الحياة قد صار لها الآن مركز آخر غير مرئي لي. لكنني لا أستطيع أن أنكرها، وذلك لأنني أشعر بها، وأتحرك وأعيش بها. لا يمكنني أن أعرف طبيعة هذا المركز أو طبيعة هذه الحياة في حد ذاتها، لكن بوسعي أن أخمِّن، إذا كنت أحب ذلك ولا أخشى أن آتيه. لكن إذا كنت أبحث عن فهم عقلي للحياة سأُرضي نفسي بما هو واضح ولا شك فيه، ولن أود أن أفسد ما هو واضح ولا شك فيه بأن أضم إليه تكهنات غامضة اعتباطية. يكفيني أن أعرف أنه إذا كان كل ما أعيش به قد تألف من حياة أناس عاشوا قبلي وماتوا منذ زمن بعيد، ومن ثم فإن كل إنسان يُنفِّذ قانون حياته، ويُخضِع شخصيته الحيوانية للعقل وقوة الحب المتجلية فيه، يكون قد عاش ـ وما زال ـ بعد زوال وجوده الجسدي في الآخرين... يكفيني أن أعرف ذلك حتى لا تعود خرافة الموت السخيفة والمروعة تُعذِّبني ثانية.

بمراقبة القوة التي يتركها بعض الناس بعد موتهم وتواصل تأثيرها على الآخرين، يمكننا أن نلاحظ السبب الذي جعل هؤلاء الناس يُخضِعون شخصيتهم للعقل، ويُسلِّمون حياتهم للحب، ولم يستطيعوا أن يشكُّوا أبدًا في عدم إمكانية زوال الحياة.

يمكننا أن نستنتج من حياة أولئك الناس أن قاعدة إيمانهم تتمثل في فكرة استمرارية الحياة، ومن ثَم نغوص إلى أعماق حياتنا لنجد فيها هذه القواعد. قال المسيح إنه سوف يعيش حتى بعد زوال طيف حياته[1]. لقد

(1) الإشارة إلى متى (28: 20) «هَا أَنَا مَعَكُمْ كُلَّ الأَيَّامِ إِلَى انْقِضَاءِ الدَّهْرِ».

قال ذلك بسبب أنه ولج أثناء وجوده الجسدي إلى حقيقة الحياة التي مفادها أن الحياة لا يمكن أن تتوقف. لقد عاش فعلًا أثناء وجوده الجسدي في أنوار مركز الحياة الذي كان ماضيًا إليه، ورأى أثناء حياته كيف أنارت هذه الأنوار للناس من حوله. هذا ما يراه كل إنسان ينكر الشخصية ويعيش حياة عقلانية مُحبّة.

بغض النظر عن مدى ضيق دائرة النشاط البشري، وسواء تعلق الأمر بالمسيح أو سقراط أو إنسان صالح مجهول أو شيخ مُنكِر لذاته أو شاب أو امرأة، إذا عاش مُنكِرًا لشخصيته من أجل خير الآخرين، فسوف ينضم ـ وهو لا يزال في هذه الحياة ـ إلى مجال علاقة جديدة تربطه بالعالم لا موت فيها. إن تأسيس مثل هذه العلاقة هو عمل الحياة بالنسبة لهؤلاء الناس.

يرى الإنسان الذي يجعل حياته تتمثل في الخضوع لقانون العقل وتجلي الحب في هذه الحياة أشعة نور المركز الجديد الذي هو ماضٍ إليه من ناحية، والتأثير الذي يتركه هذا النور الذي يمر من خلاله على من حوله من ناحية أخرى. يَهبه ذلك إيمانًا لا شك فيه في رسوخ وأبدية الحياة، وزيادة قوتها المستمرة. يستحيل أن يدفعنا أحد إلى الإيمان بالخلود، كما يستحيل أن يقنع المرء ذاته بذلك الإيمان. يتطلب الإيمان بالخلود أن يكون هناك خلود، ويتطلب وجود خلود أن يفهم المرء حياته من خلال الجانب الخالد فيها. لا يمكن لأحد أن يؤمن بحياة أخرى إلا من أدى عمل حياته؛ أي أسس في هذه الحياة علاقة جديدة تربطه بالعالم بعد أن كانت علاقة قديمة لم تعد ملائمة له تربطه بالعالم.



الفصل الثاني والثلاثون

تنشأ خرافة الموت من الخلط الذي يُحدثه الإنسان بين العلاقات المختلفة بالعالَم

إذا نظرنا حقًّا إلى الحياة بمعناها الحقيقي، فسيكون من الصعب أن نفهم حتى الأساس الذي تستند إليه خرافة الموت.

لذلك عندما تتبين حقيقة الشبح الذي كان يخيفك في الظلام، لا تعود تشعر بهذا الخوف منه مجددًا.

لا يحدث الخوف من فقدان ما هو موجود، إلا عندما لا تتمثل الحياة للإنسان في العلاقة التي تربط بين وعيه العقلي والعالم، حتى إذا كانت غير مرئية له، بل عندما تتمثل له في علاقتين مرئيتين لكن مجهولتان له: علاقة وعيه الحيواني وجسده بالعالم. كل ما هو موجود يتمثل للإنسان في الآتي:

1 ـ علاقة وعيه العقلي بالعالم.

2 ـ علاقة وعيه الحيواني بالعالم.

3 ـ علاقة جسده بالعالم.

عندما لا يدرك الإنسان أن علاقة وعيه العقلي بالعالم هي حياته الوحيدة، يتصور أن حياته تتمثل أيضًا في العلاقة المرئية التي تربط الوعي

الحيواني والمادة بالعالم، ويخشى أن يفقد علاقة وعيه العقلي الخاصة بالعالم عندما تُنتهك في شخصيته علاقة وعيه الحيواني والمادي اللذين شكلاه بالعالم.

يبدو لمثل هذا الإنسان أنه ينبع هو شخصيًا من حركة المادة التي تتحول إلى درجة وعي حيواني شخصي. يبدو له أن هذا الوعي الحيواني يتحول إلى وعي عقلي، وأن ذلك الوعي العقلي يضعف بعد ذلك، ويتراجع مجددًا إلى درجة وعي حيواني، وقرابة النهاية يضعف الوعي الحيواني ويتحول إلى المادة الميتة التي نشأ عنها في البداية. في ظل هذه النظرة تتمثل له علاقة الوعي العقلي بالعالم أمرًا عرضيًا لا ضرورة له ومهلكًا. يتبين له في ظل هذه النظرة أن علاقة وعيه الحيواني بالعالم لا يمكن أن تزول، وأن الحيوان يستمر عبر سلالته، كما يبدو له أن علاقة المادة بالعالم أبدية لا يمكن أن تزول أبدًا، وأن أثمن شيء؛ أي وعيه العقلي، ليس أبديًا، بل ووميض شيء ما فائض عن الحاجة.

يشعر الإنسان بعدم إمكانية ذلك. في ذلك تحديدًا يتمثل خوفه من الموت. يود البعض رغبة في التخلص من هذا الخوف أن يؤكدوا لأنفسهم أن الوعي الحيواني هو وعيهم العقلي، وأن خلود الجانب الحيواني في الإنسان؛ أي استمراره عبر ذريته ونسله يُحقِّق خلود الوعي العقلي الموجود في داخلهم. يود آخرون أن يؤكدوا لأنفسهم أن الحياة لم تكن موجودة قبلًا، ثم ظهرت فجأة في صورة مادية وتلاشت فيه، ثم عاودت الظهور في هذه الصورة مجددًا، وسوف تستمر. لكن الإيمان بهذه الفكرة أو تلك غير ممكن لمن لا يعترفون بالحياة في علاقة الوعي العقلي بالعالم. يبدو واضحًا لهم أن استمرار الجنس البشري لا يُرضي متطلبات أبدية الأنا

الخاصة بالإنسان التي تعلن عن نفسها في داخله، وأن مفهوم بدء الحياة مجددًا يتضمن في داخله مفهومًا عن توقف الحياة، وأنه إذا كانت الحياة غير موجودة سابقًا، فلن تستمر لاحقًا.

بالنسبة لهؤلاء وأولئك الحياة موجة. تبرز الشخصية من المادة الميتة، ومن الشخصية يبرز الوعي العقلي الذي هو قمة الموجة. بوصول الموجة إلى قمتها يهبط الوعي العقلي والشخصية إلى القاعدة التي أتيا منها، ويزولان. الحياة الإنسانية بالنسبة لهؤلاء وأولئك هي الحياة المرئية. نما الإنسان ونضج ومات، وبعد الموت لا يمكن أن يوجد شيء مجددًا بالنسبة له، وما يتبقى منه بعد موته أو ذريته أو حتى أفعاله لا يمكنه أن يرضيه. إنه يأسف على نفسه، ويخشى أن تتوقف حياته. إنه لا يستطيع أن يؤمن أن حياته التي بدأت هنا على الأرض في جسده وانتهت بالطريقة ذاتها يمكنها أن تُبعث مجددًا.

يعلم الإنسان أنه إذا لم يكن له وجود سابقًا، وظهر من لا شيء ثم مات، فلا بد أن نفسه الخاصة لن تستمر في الوجود، ولا يمكن لها أن تستمر. لن يدرك الإنسان أنه لن يموت إلا عندما يدرك أنه لم يولد قَطُّ، وكان موجودًا دائمًا، وهو موجود الآن، وسيظل موجودًا. لن يثق الإنسان في خلوده إلا عندما يدرك أن حياته ليست موجة، بل حركة أبدية تتجلى في صورة موجة في هذه الحياة وحسب.

يبدو لي أني سأموت، وأن حياتي ستنتهي، وهذه الفكرة تعذبني وتخيفني، لأني آسف على نفسي، ولكن ما الذي سوف يموت؟ ما الذي يجعلني أشعر بالأسف؟ ما طبيعة نفسي من أكثر منظور عادي؟ أنا جسد قبل أي شيء آخر. أخشى فقدانه. هل هذا ما يُشعرني بالأسف؟ يبدو أن

الأمر ليس كذلك؛ فالجسد والمادة لا يمكن أن يضيع منهما ولو جزء صغير أبدًا. يتبين إذن أن هذا الجزء مضمون، ولا يوجد داعٍ للخوف بشأنه. كل شيء سيظل كاملًا. ولكن لا... يُقال إن هذا ليس هو مبعث الأسف... إني أشعر بالأسف على نفسي؛ على ليف نيكولايفيتش أو إيفان سيميونيتش... لكن هذا الكيان ليس هو الذي كان موجودًا منذ عشرين عامًا مضت، وفي كل يوم يتغير. على ماذا أشعر بالأسف إذن؟ لا... يُقال إن الشعور بالأسف ليس على هذا وليس على ذاك، بل إني أشعر بالأسف على الوعي بنفسي؛ على أناي.

لكن وعيك لم يكن واحدًا قَطُّ، بل متنوعًا. كان لديك وعي ما منذ عام، وآخر منذ عشرة أعوام، وثالث مختلف تمامًا قبل ذلك. بقدر ما تتذكر ستجد أنه ظل عرضة للتغيير. ما الذي يعجبك إذن في وعيك الحالي حتى إنك تخشى فقدانه؟ لو كان وعيك ثابتًا طوال الوقت، لفهمنا سبب أسفك، لكن هذا الوعي لا يفعل شيئًا سوى التغيُّر باستمرار. أنت لا ترى بدايته، ولا يمكنك أن تجده. تود لو لا تكون نهاية له، وأن يستمر هذا الوعي الموجود الآن في داخلك إلى الأبد. لم تتوقف عن التغير منذ اللحظة التي وعيت فيها نفسك. جئتَ إلى هذه الحياة، دون أن تعرف كيف، لكنك تعرف أنك جئت بهذه الأنا وحسب، الموجودة فيك الآن، ثم تقدمت وتقدمت حتى وصلت إلى المنتصف، وفجأة توقفت دون شعور بالخوف أو الفرح، ولم تعد تود أن تفارق مكانك وتكمل تقدمك لأنك لا ترى ما الموجود هناك. لكنك لم ترَ أيضًا المكان الذي جئت منه، وها قد وصلت إلى هنا، كأنك دخلت من المدخل، ولا تود أن تخرج من المخرج.

كانت حياتك برمتها بمثابة موكب يسير عبر الوجود الجسدي. لقد

سرت وأسرعت، وفجأة شعرت بالأسف من الاستمرار في فعل شيء لم تتوقف عن فعله سابقًا. تشعر بالهلع من حجم التغيير الكبير الذي سيلحق بك مع الموت الجسدي. لكن مثل هذا التغيير الكبير قد حدث لك سابقًا عندما ولدت، ولم ينتج ما هو سيِّئ عن ذلك، بل على النقيض؛ نتج ما هو جيد إلى درجة أنك لا تود أن تفارقه.

ما الذي يمكن أن يخيفك؟ تقول إنك تشعر بالأسف على نفسك بمشاعرها الحالية وأفكارها ونظرتها إلى العالم وعلاقتها به.

تخشى أن تفقد علاقتك بالعالم! وما طبيعة هذه العلاقة؟ مم تتألف؟

إذا كانت تتألف من أنك تأكل وتشرب وتنجب وتُشيِّد منزلًا وترتدي ثيابًا، وتتصل بطريقة أو بأخرى ببشر وحيوانات، فهذه هي علاقة كل إنسان بالحياة بوصفه حيوانًا مفكرًا، ولا يمكن أن تزول هذه العلاقة بأي طريقة، فقد كانت موجودة، وهي موجودة الآن، وستظل موجودة ممثلة في ملايين البشر، ومن المحتمل أن تستمر ذريتهم كما يبقى كل جزء من المادة. الرغبة في الحفاظ على النسل موجودة في كافة الحيوانات بقوة شديدة، إلى درجة أنه ليس هناك ما يجعلك تخشى عليها. إذا كنتَ حيوانًا فلن تخشى شيئًا، وإذا كنتَ مادة لضمنت أبديتك بدرجة أكبر.

إذا كنت تخشى فقدان ما هو ليس حيوانيًّا، فأنت تخشى إذن فقدان علاقتك العقلية الخاصة بالعالم التي لحقت بك منذ أن جئت إلى الوجود. لكنك تعرف أنها لم تظهر بولادتك، بل هي موجودة بمعزل عن ولادتك الحيوانية، ومن ثَم لا يمكنها أن تعتمد على موتك.

الفصل الثالث والثلاثون

حياتك المرئية جزء من حركة الحياة اللانهائية

تتمثل لي حياتي الأرضية وحياة الناس جميعًا في الصورة التالية:

أنا وكل إنسان حي نجد أنفسنا في هذا العالم وثمة علاقة خاصة محددة تربطنا به، كما نجد لدينا درجة معينة من الحب. في البداية يبدو لنا الأمر وكأن حياتنا تبدأ بهذه العلاقة التي تربطنا بالعالم، ثم تكشف لنا ملاحظاتنا عن أنفسنا وعن الآخرين أن علاقتنا بالعالم ودرجة الحب الموجودة داخل كل واحد منا لم يبدآ مع هذه الحياة، بل جلبناهما إلى الحياة من ماضٍ تحجبه ولادتنا الجسدية عنا. علاوة على ذلك نرى أن مجمل تيار حياتنا هنا ليس سوى زيادة مستمرة وتقوية حبنا الذي لا يتوقف أبدًا، بل يُحجب أحيانًا عن أعيننا بالموت الجسدي.

تتمثل حياتنا المرئية لي كجزء من مخروط، قمته وقاعدته محجوبتان عن نظرنا العقلي. أضيق جزء من المخروط هو علاقتي بالعالم التي وعيت نفسي بها في البداية. أوسع جزء فيه هو أسمى علاقة تربطني بالعالم والتي قد وصلت إليها لتوِّي. بداية هذا المخروط؛ أي قمته، محجوبة عني زمنيًّا بفضل ولادتي، وبقية المخروط محجوبة عني بمستقبل محجوب

عني بوجودي وموتي الجسديين على السواء. لا أرى قمة المخروط ولا قاعدته، ولكنني أعرف دون أدنى شك سمات الجزء الذي تمضي فيه حياتي المرئية التي يمكنني أن أتذكرها. في البداية يبدو لي أن هذا الجزء من المخروط هو حياتي، ولكن بقدر حركة حياتي الحقيقية أرى من جانبٍ ما أن ما يُشكِّل قاعدة حياتي موجود خلفها؛ خارج نطاق حدودها، وعلى مدار حياتي أشعر بدرجة أوضح وأكثر حيوية بالرابط الذي يربطني بماضيَّ غير المرئي لي. من ناحية أخرى أرى أن هذه القاعدة تستند إلى مستقبلي غير المرئي لي، ويزداد شعوري وضوحًا وحيوية بالرابطة التي تربطني بالمستقبل. لذلك أستنتج أن حياتي المرئية؛ حياتي الأرضية ليست سوى جزء صغير من حياتي كلها التي تمتد لا محالة خارج إطار هذين الطرفين: قبل الولادة وبعد الموت، ولا شك في وجودها، لكنها محجوبة عن معرفتي الآنية. لذلك فإن توقف الحياة المرئية إثر الموت الجسدي لا يمكنه أن يحرمني من المعرفة المؤكدة بوجود حياة قبل الولادة الجسدية، وحياة أخرى بعد الموت. أدخل إلى الحياة بسمات حب معروف ومحدد للعالم الموجود خارج نفسي. ينقضي وجودي الجسدي، سواء كان قصيرًا أم طويلًا في زيادة هذا الحب الذي جلبته إلى الحياة، ومن ثَم أستنتج بصورة يقينية أني عشت قبل هذه الولادة، وأني سوف أستمر في العيش بعد هذه اللحظة الحاضرة التي أوجد وأفكر فيها الآن، ومن ثَم سأعيش أيضًا بعد أي لحظة زمنية قبل أو بعد موتي الجسدي. بالنظر خارج نفسي إلى البدايات الجسدية ونهاية وجود أناس آخرين أو كائنات بوجه عام، أرى أن ثمة حياة تبدو كما لو أنها أطول من غيرها، وحياة تبدو أقصر من غيرها؛ ثمة حياة تبدأ قبل غيرها، وتظل مرئية لي لفترة أطول من غيرها، وأخرى

تظهر بعد غيرها وسرعان ما تُحجب عني مجددًا، لكني أرى في جميعها تجليًا لقانون واحد في كل حياة حقيقية؛ ألا وهو زيادة الحب، وكأنه امتداد لأشعة الحياة. آجلًا أم عاجلًا سيُسدل الستار ويُحجب عني التيار المؤقت لحياة الناس، حيث إن حياة كافة الناس واحدة، وجميعها ليس لها بداية أو نهاية. لا يمكن لحقيقة أن شخصًا عاش لفترة أطول أو أقصر من غيره في ظروف مرئية لي أن تُحدِث أي اختلاف في حياته الحقيقية. لا يمكن أبدًا لحقيقة أن أحدهم مر عبر مجال الرؤية لفترة أطول من غيره، أو أن غيره مر بصورة أسرع منه، أن تدفعني إلى أن أعزو قدرًا أكبر من الفاعلية لحياة الأول، وقدرًا أقل لحياة الثاني. أعرف دون أدنى شك أني إذا رأيت إنسانًا مارًّا بنافذتي، سواء بسرعة أو ببطء، فإن هذا يعني أنه كان موجودًا دون أدنى شك قبل أن أراه من النافذة، وأنه سيكون موجودًا بعد أن يختفي من أمام عيني.

ولكن ما الهدف من مرور أحدهم بسرعة وآخر ببطء؟ لماذا يحدث أن عجوزًا ذاويًا متحجرًا أخلاقيًّا غير قادر ـ بحسب ظننا ـ أن ينفذ قانون الحياة الذي هو زيادة الحب، يعيش بينما يموت طفل أو شاب أو فتاة أو إنسان في تمام قوته الروحية، ويخرج من إطار الحياة الجسدية بينما نظن أنه قد بدأ لتوِّه في تأسيس علاقة سليمة بالحياة في نفسه؟

يمكننا أن نفهم موت باسكال أو جوجول، ولكن ماذا عن شينيه[1] وليرمنتوف[2] وآلاف غيرهم، يبدو لنا أنهم ماتوا قبل أن يُتموا عملهم الداخلي الذي بدأوه لتوِّهم وكان جيدًا وواعدًا؟

(1) شاعر وصحفي فرنسي.
(2) شاعر وأديب روسي شهير.

لكن هذا ما يبدو لنا وحسب. لا أحد منا يعرف شيئًا عن أسس الحياة التي جلبها الآخرون إلى الحياة، ولا عن حركة الحياة السالفة التي حدثت في داخلهم، أو تلك العوائق الموجودة في وجه حركة الحياة الموجودة في داخل هذه الكائنات. الأهم من كل ذلك أن أحدًا لا يعرف شيئًا عن ظروف الحياة الأخرى الممكنة لكن غير المرئية لنا التي يمكن أن يوضع فيها وجود شخص آخر.

بالنظر إلى عمل الحدَّاد تبدو لنا الحدوة جاهزة تمامًا، لا تستلزم أكثر من ضربتين، لكننا نجده يدقها مجددًا ويلقي بها في النار ثانية عالمًا أنها غير جاهزة بعد.

لا يمكننا أن نعرف ما إذا كان عمل الحياة الحقيقية يجري في الإنسان أم لا. يمكننا أن نعرف ذلك عن أنفسنا وحسب. يبدو لنا أن الإنسان يموت قبل أوانه، لكن لا يمكن للأمر أن يتم بهذه الصورة. لا يموت الإنسان إلا عندما يكون ذلك لازمًا لخيره، تمامًا مثلما لا ينمو الإنسان وينضج إلا عندما يصير ذلك لازمًا لخيره.

في حقيقة الأمر إذا أدركنا الحياة كحياة فعلًا، وليس كشيء يشبهها، وإذا كانت الحياة الحقيقية أساس كل شيء، لا يمكن أن يعتمد هذا الأساس على ما ينتجه. لا يمكن أن ينشأ السبب عن النتيجة، ولا يمكن لتغيير في تجلي الحياة الحقيقية أن يخرقها. لا يمكن أن تتوقف حركة حياة إنسان بدأت ولم تنتهِ بعد في هذا العالم بسبب خراج أو بكتيريا، أو بسبب أنهم يطلقون عليه النار من مسدس.

يموت الإنسان عندما لا يعود بإمكان خير حياته الحقيقية أن يزداد،

لكنه لا يموت من مرض الرئتين، أو من إصابته بالسرطان، أو بسبب أنهم أطلقوا عليه النار، أو فجَّروا قنبلة بالقرب منه. نتصور عادة أن عيش الحياة الجسدية هو أمر طبيعي، وأنه من غير الطبيعي أن نموت من النار أو الماء أو البرودة أو البرق أو الأمراض أو مسدس أو قنبلة. لكن يلزم أن نفكر بجدية، ناظرين إلى حياة الناس بموضوعية، وسنرى أن الأمر على النقيض؛ إن حياة الإنسان وسط هذه الظروف القاتلة، وسط هذا العدد الهائل من البكتيريا المنتشرة في كل مكان، والتي يعتبر القطاع الأكبر منها قاتلًا هو أمر غير طبيعي. الطبيعي أن يموت الإنسان. لذلك علينا أن ندرك أن الحياة الجسدية وسط هذه الظروف القاتلة هي على النقيض؛ إنها غير طبيعية إلى أقصى حد من المنظور المادي. إذا عشنا، فإن هذا لا يعود أبدًا لعنايتنا بأنفسنا، بل لأن عمل الحياة يتم فينا، مُخضِعًا له كل هذه الظروف. لسنا أحياء لأننا نعتني بأنفسنا، بل لأننا ننفذ عمل الحياة. حينما ينتهي عمل الحياة لا يمكن لشيء أن يوقف هذا الهلاك المستمر للحياة الحيوانية الإنسانية. يحدث الهلاك، ويبدو لنا أن أحد أسباب الموت الجسدي القريبة والمحيطة بالإنسان دائمًا، هو السبب الاستثنائي لهذا الهلاك.

لا أحد يعرف حياتنا الحقيقية سوانا، وبها وحدها نعرف حياتنا الحيوانية، لذلك إذا كان ما يشبه الحياة عُرضة لعمل قوانين ثابتة، فكيف لا يَخضع من يُنتج هذا الشبيه للقوانين ذاتها؟

لكن ما يربكنا هو أننا لا نرى أسباب وتأثيرات حياتنا الحقيقية بقدر ما نرى أسباب وتأثيرات الظواهر المادية. إننا لا نعرف لماذا يأتي أحدهم إلى الحياة بهذه الأنا ذات السمات المحددة، بينما يأتي الآخرون بأنا ذات سمات مختلفة. لماذا تنقطع حياة أحدهم، وتستمر حياة آخر. نسأل أنفسنا:

ما الأسباب التي سبقت وجودي وحتَّمت أن أولد بهذه الصورة التي أنا عليها الآن؟ ماذا سيحدث بعد موتي فيما يتعلق بما إذا كنت سأعيش بهذه الصورة أو بأخرى؟ نشعر بالأسف لعدم توصلنا لإجابات عن هذه الأسئلة.

لكن شعوري بالأسف لأني لا أستطيع الآن أن أعرف ماذا حدث تحديدًا قبل ولادتي، وما الذي سيحدث بالضبط بعد موتي، يماثل أن أشعر بالأسف لأني غير قادر على رؤية ما يقع خارج نطاق بصري. إذا رأيتُ ما هو موجود خارج نطاق بصري، لما رأيت ما هو داخل نطاق بصري، لكني في حاجة أكبر لرؤية ما حولي لتحقيق خير حياتي الحيوانية.

الأمر ذاته مع العقل الذي أُدرك به. لو كان بوسعي أن أرى ما هو موجود خارج نطاق عقلي، لما رأيت ما هو موجود داخل نطاقه. يتطلب خير حياتي الحقيقية أن أعرف بالأحرى ما يجب أن أُخضِع له شخصيتي الحيوانية هنا والآن. يكشف لي العقل ذلك... يكشف لي الطريق الوحيد في هذه الحياة الذي لا أرى فيه توقفًا لخيري.

إنه يكشف لي دون أدنى شك أن هذه الحياة لم تبدأ بالولادة، بل كانت موجودة دائمًا. يكشف لي أيضًا أن خير حياتي ينمو ويتزايد هنا ليصل إلى درجة لا يمكن معها إبقاؤه داخل هذه الحدود، وحينها يتجاوز كل هذه الشروط التي تُعطِّل زيادته، منتقلًا إلى شكل آخر من أشكال الوجود.

يضع العقل صاحبه على طريق الحياة الوحيد الذي يبدو كممر مخروطي الشكل تحيط به الجدران من كل جانب، ويكشف الشكل للإنسان عن الحياة اللانهائية وفوائدها الموجودة حتمًا في آخره.

الفصل الرابع والثلاثون

تَعذُّر تفسير سبب صنوف معاناة الوجود الأرضي، هو أقوى دليل يمكن أن يقنع الإنسان بأن حياته ليست حياة شخصية بدأت بالولادة وتنتهي بالموت

لكن حتى إذا استطاع إنسان ألا يخشى الموت ولا يفكر فيه، ستكون صنوف المعاناة المريعة والتي لا معنى لها ولا يمكن تبريرها ولا يمكن تجنبها، كافية وحدها للقضاء على كل فكرة عقلية تُنسب للحياة.

أنا مشغول بالخير، وهو عمل لا شك في فائدته للآخرين، وفجأة يصيبني مرض يوقف عملي وينهكني ويعذبني دون أي معنى أو مغزى. أصاب الصدأ المسمار، ويتحتم أن تستقل أُم طيبة هذه العربة في ذلك القطار حينما يخرج المسمار من مكانه، ويُسحق أطفالها أمام عينيها. يحدث زلزال في لشبونة أو فيرني[1] يدفن أحياءً تحت الأرض، ويموتون

(1) فيرني هي ألماتا، وهي أكبر مدينة في كازاخستان. الإشارة إلى زلزالين مدمرين حدثا في البلدين: لشبونة وفيرني. الأول وقع في 1 نوفمبر 1755، يوم عطلة عيد جميع القديسين، في 9:40 صباحًا، وهو من أكثر الزلازل فتكًا وتدميرًا في التاريخ، قتل بين 60.000 و100.000 إنسان. أما زلزال فيرني فربما يقصد تولستوي الزلزال الذي حدث في 1887 ودمَّر عددًا هائلًا من البنايات، وكان بقوة 7.3 ريختر.

وسط معاناة رهيبة دون أن يكونوا مذنبين في أي شيء. ما المغزى من ذلك؟ ما الهدف وما الداعي من هذه المعاناة، وآلاف غيرها من صنوف معاناة مريعة لا مغزى لها وعرضية تصعق الناس؟

التفسيرات التي تُقدَّم لشرح المغزى من ذلك لا تُفسِّر شيئًا. كافة محاولات تفسير المغزى من ذلك تتجنب دائمًا جوهر السؤال ذاته، وتكشف بمزيد من الوضوح عدم إمكانية تفسير الأمر. لقد مرضتُ بسبب بعض الميكروبات، أو سحق القطار هؤلاء الأطفال أمام عينَيْ أمهم، لأن الرطوبة فعلت فعلها في الحديد، وهذه مدينة فيرني تتهاوى بسبب هذه القوانين الجيولوجية. لكن السؤال تحديدًا هو: لماذا تعرض هؤلاء تحديدًا لهذه الصنوف المريعة من المعاناة، وكيف يمكنني أن أتجنب هذه الصنوف العرضية للمعاناة؟

ليست لدينا إجابة عن ذلك. البراهين التي تُقدَّم تؤتي مفعولًا عكسيًّا، حيث إنها تكشف لي استحالة وجود قانون يؤثر على شخص ولا يؤثر على آخر، وأن هناك عددًا لا يُحصى من الحوادث العرضية التي من هذا النوع، ومن ثَم مهما فعلت تظل حياتي مُعرَّضة في كل لحظة لصنوف مريعة لا تحصى من المعاناة.

لو كان الناس الذين يفهمون الحياة باعتبارها الوجود الشخصي وحسب قد وصلوا إلى هذه الاستنتاجات التي تنتج لا محالة عن هذه النظرة إلى العالم، لما استمروا في هذه الحياة لدقيقة واحدة. لم يكن من الممكن أن يَرضى عامل واحد أن يعمل لدى مالك يدَّعي، بعد أن يستأجر العامل، أن من حقه في كل مرة أن يشويه متى شاء على نار هادئة، أو يسلخ جلده وهو

حي، أو يشد جسده على المخلعة[1]، أو يرتكب بوجه عام أيًّا من الفظائع التي يراها تُمارس في حضوره في حق عماله دون سبب أو عذر. لو كان الناس قد فهموا الحياة حقًّا كما يقولون، لما استطاع أي شخص أن يبقى حيًّا من فرط الخوف من كافة صنوف هذه المعاناة المريعة غير القابلة للتفسير التي يراها حوله وحول الآخرين.

بالرغم من أن الناس جميعًا يعرفون وسائل متنوعة وسهلة لقتل أنفسهم ومفارقة هذه الحياة المليئة بهذه المعاناة القاسية غير المفهومة، فإنهم يعيشون ويَشْكون ويبكون من المعاناة، ويُكملون حياتهم.

القول إن المتع في هذه الحياة أكثر من صنوف المعاناة مستحيل لعدة أسباب: أولًا: لا يقتصر الأمر على الحجة البسيطة، بل يكشف لنا أيضًا البحث الفلسفي بوضوح أن كل حياة أرضية هي مجموعة من صنوف المعاناة، بعيدة كل البعد عن الملذات. ثانيًا: نعلم جميعًا عن أنفسنا وعن الآخرين أن الناس الذين في مثل هذه المواقف ولا يتصورون شيئًا سوى صنوف المعاناة التي تزداد وطأتها عليهم دون إمكانية لتحقيق الراحة حتى الموت، لا يقتلون أنفسهم أيضًا ويتمسكون بالحياة.

ثمة تفسير واحد لهذا التناقض الغريب: يعرف الناس جميعًا في قرارة أنفسهم أن كافة صنوف المعاناة ضرورية لتحقيق خير حياتهم، ولذلك وحسب يواصلون العيش متوقعين إياها أو مُعرَّضين لها فعلًا. تُغضبهم صنوف المعاناة لسبب واحد؛ إنهم في ظل النظرة الزائفة للحياة ينشدون خيرهم الشخصي وحسب، ويبدو انتهاك هذا الخير شيئًا غير مفهوم ومثيرًا للغضب.

---

(1) أداة تعذيب قديمة يُمَطُّ عليها الجسم.

يشعر الناس بالهلع أمام صنوف المعاناة، وتذهلهم كما لو أنها شيء مفاجئ وغير مفهوم. في الوقت ذاته تزداد صنوف المعاناة في حياة كل شخص، وتصير حياته بمثابة أنواع مختلفة من المعاناة، يختبرها وتفرضها عليه كائنات أخرى، ويبدو له أنه قد حان الوقت ليألف هذه المعاناة ولا يشعر بالهلع منها ولا يسأل نفسه ما الجدوى أو الهدف منها. إذا فكر كل إنسان سيجد أنه لا ينال كافة ملذاته إلا على حساب معاناة الآخرين، وأن كل صنوف معاناته ضرورية لمتعته، وأنه ليست هناك متعة دون معاناة، وأن المعاناة والمتعة حالتان متعارضتان، تستدعي كل منهما الأخرى، وكل منهما ضرورية للأخرى. ما معنى إذن سؤال مثل: «ما الجدوى من هذه المعاناة؟»؟ وهي الأسئلة التي يطرحها الإنسان العاقل على نفسه. لماذا يسأل إنسان يعلم جيدًا مدى ارتباط المتعة بالمعاناة: «ما الجدوى من المعاناة؟»، ولا يسأل نفسه: «ما الجدوى من المتع؟»؟

إن مجمل حياة الحيوان والإنسان بوصفه حيوانًا هي سلسلة مستمرة من المعاناة. إن مجمل نشاط الحيوان والإنسان بوصفه حيوانًا لا يؤدي إلا إلى المعاناة. المعاناة هي شعور مَرَضي يستثير نشاطًا يُزيل هذا الإحساس المؤلم، ويجلب حالة من المتعة. لا يقتصر الأمر على أن المعاناة لا تُحطِّم حياة الحيوان والإنسان بوصفه حيوانًا، بل إن هذه الحياة لا تتم إلا بهذه المعاناة. يتضح إذن أن صنوف المعاناة هي ما تُحرِّك الحياة، ومن ثَم ما هو موجود هو ما يجب أن يكون موجودًا. ما الذي يسأل عنه الإنسان إذن حينما يطرح سؤالًا عن الهدف والجدوى من المعاناة؟

لا يسأل الحيوان مثل هذا السؤال.

عندما يُعذِّب الفرْخ[1] سمك الرَّوْش بسبب جوعه، وعندما يُعذِّب العنكبوت الذبابة، والذئب الحمل، فإنهم جميعًا يعرفون أنهم يفعلون ما يتوجب فعله، وأن ما يحدث هو ما يجب أن يحدث، ومن ثَم عندما يتعرض سمك الرَّوْش والعنكبوت والذئب لهذه العذابات ممن هم أقوى منهم، فإنهم يدركون في هروبهم ومقاومتهم وسعيهم إلى التحرر أنهم يفعلون ما ينبغي فعله، ومن ثَم لا يساورهم أدنى شك في أن ما يحدث معهم هو ما يجب أن يكون. لكن الإنسان المشغول بعلاج قدميه المصابتين وحسب في ميدان المعركة الذي حطم فيه هو الآخر أقدام آخرين، أو المشغول فقط بتحقيق أقصى استفادة ممكنة من وقته في زنزانته الانفرادية الزرقاء، بعد أن تسبب هو بصورة مباشرة أو غير مباشرة في إرسال البعض إلى هذا السجن، أو الإنسان الذي تقتصر عنايته على مصارعة الذئاب التي تمزقه إربًا والهروب منها بعد أن مزَّق هو نفسه آلاف الكائنات الحية وأكلها... هذا الإنسان لا يمكن أن يجد أن كل ما يحدث معه هو ما يجب أن يكون. إنه غير قادر على الاعتراف بأن ما يحدث معه هو ما يجب أن يحدث، بسبب أنه عندما تعرض لصنوف المعاناة السالفة لم يكن يفعل ما كان يجب أن يفعله. بذلك يبدو له أن ما يحدث معه لا يجب أن يحدث.

لكن ما الذي يجب على الإنسان فعله علاوة على مصارعة الذئاب التي تمزقه والهروب منها؟ عليه أن يفعل ما فُطِر على فعله بوصفه كائنًا عاقلًا؛ أن يعي تلك الخطية التي جلبت له هذه المعاناة ويتوب عنها ويعترف بالحقيقة.

---

(1) نوع مفترس من الأسماك.

يعاني الحيوان في الحاضر وحسب، ومن ثَم فإن النشاط الذي تستثيره معاناته والموجَّه إليه في الحاضر كاملًا يرضيه تمامًا. لكن الإنسان لا يعاني في الحاضر وحسب، بل يعاني في الماضي والمستقبل أيضًا، ومن ثَم فإن النشاط الذي تستثيره هذه المعاناة إذا تم توجيهه صوب حاضر الإنسان الحيواني وحسب، لا يمكنه أن يرضيه. وحده النشاط الموجَّه إلى سبب ونتائج المعاناة، والموجَّه إلى الماضي والمستقبل هو ما يُرضي الإنسان الذي يعاني.

ثمة حيوان محبوس في قفصه، ثم يحطم القفص، وإما أن يصيب قدمه ويلعق مكان الإصابة، أو يمزقه حيوان آخر، ويحاول أن يهرب منه. ثمة عامل خارجي هو ما يخرق قانون حياته هنا، وهو يبذل جهده لإقرار هذا القانون، ويحدث ما يجب أن يحدث. لكن ها هو إنسان ـ أنا مثلًا أو أحد أقربائي ـ يجلس في زنزانته وقد فقد قدمه في المعركة، أو فَلْنَقُل إن الذئاب مزقتني. النشاط الموجَّه هنا إلى الهروب من السجن وعلاج قدمي ومصارعة الذئاب لا يرضيني، لأن الحبس في السجن أو إصابة القدم لا يشكلان سوى جزء صغير من معاناتي. إنني أرى أسباب معاناتي في الماضي؛ في الضلالات التي تعرضت لها أنا وآخرون، وإذا توجَّه نشاطي إلى سبب المعاناة؛ إلى الضلالة، ولم أحاول أن أتحرر منها، فإني حينها لا أفعل ما يجب أن أفعله، ومن ثَم تبدو لي هذه المعاناة شيئًا لا يجب أن يكون، كما أنها تنمو وتصل إلى أبعاد رهيبة تستبعد أي إمكانية للحياة، ليس فقط في الواقع، ولكن على مستوى خيالي أيضًا.

يرى الحيوان أن سبب المعاناة هو خرق قانون حياته، ويتجلى هذا الخرق في الوعي بالألم، ويتوجه النشاط الذي يستثيره خرق القانون

السالف إلى التخلص من الألم. بالنسبة للإنسان العاقل تعود المعاناة إلى خرق قانون حياة الوعي العقلي، ويتجلى هذا الخرق في الوعي بالضلال والخطية. يتوجه النشاط الذي يستثيره خرق القانون السالف إلى التخلص من الضلال والخطية. كما أن معاناة الحيوان تستثير نشاطًا يتوجه صوب الألم، ويُجرِّد هذا النشاط المعاناة من أثرها المُعذِّب، كذلك تستثير معاناة الكائن العاقل نشاطًا يتوجه صوب الضلالة، ويُجرِّد هذا النشاط المعاناة من أثرها المُعذِّب.

إن ظهور أسئلة من قبيل: «لماذا؟ ما الجدوى؟» في روح الإنسان عندما يختبر معاناة أو يتصورها، تكشف عن أمر واحد؛ أن هذا الإنسان لم يعِ بعد هذا النشاط الذي يجب أن تثيره هذه المعاناة، والذي يُجرِّد المعاناة من أثرها المُعذِّب. في الواقع لا يمكن لإنسان يعترف بحياته في الوجود الحيواني، أن ينعم بمثل هذا النشاط الذي يُجرِّد المعاناة، حيث إنه كلما قلَّ فهمه لحياته قلَّ مقدار هذا النشاط.

عندما يجد الإنسان الذي يعترف بحياته في الوجود الشخصي وحسب أسباب معاناته الشخصية في ضلالته الشخصية، يدرك أنه قد مرض بسبب تناوله لطعام مضر، أو أنه تعرض للضرب لأنه مضى للعراك بنفسه، أو أنه جائع وعارٍ لأنه لا يرغب في العمل، ويعرف أن معاناته تعود إلى أنه فعل ما لم يكن عليه أن يفعله، ولرغبته في عدم تكرار ذلك مجددًا لا يستاء من المعاناة، مُوجِّهًا نشاطه صوب القضاء على الضلالة، ويتحملها بيسر، بل وبسرور. لكن عندما يفهم الإنسان المعاناة التي تتجاوز الحدود المرئية للرابط بين المعاناة والضلالة، مثلما يحدث عندما يعاني بسبب عوامل كانت موجودة دائمًا خارج نطاق نشاطه الشخصي، أو عندما لا يمكن

لنتائج صنوف معاناته المختلفة أن تكون لازمة له أو لأي شخص، يبدو له حينها أن ما يحدث لا يجب أن يحدث، ويسأل نفسه: لماذا؟ ما الجدوى من ذلك؟ ونظرًا لأنه لا يجد هدفًا يُوجِّه إليه نشاطه، يغضب من صنوف المعاناة التي تصيبه، وتجلب له عذابًا مريعًا. أغلب صنوف المعاناة التي تصيب الإنسان هي التي تكون أسبابها أو نتائجها ـ أحيانًا هذه وأحيانًا تلك ـ محجوبة عن الإنسان بفعل المكان والزمان، مثل الأمراض الوراثية والحوادث المؤسفة وفشل الحصاد والحوادث والحرائق والزلازل، وما إلى ذلك مما ينتهي بالموت.

تفسيرات من قبيل أن كل هذا ضروري لنُعلِّم ذريتنا درسًا بأن نوضح لهم أنه لا يتوجب عليهم أن يفسحوا مجالًا لهذه الشهوات التي تنعكس في صورة أمراض تنتقل إلى ذريتهم، أو نعلمهم درسًا بخصوص أننا نحتاج إلى تطوير القطار، أو التعامل بمزيد من الحذر مع النار... كل هذه التفسيرات لا تُقدِّم لي أي إجابة. لا يمكنني أن أعترف بأن أهمية حياتي تتمثل في توضيح ما أهمَلَ فيه الآخرون. إن حياتي هي حياتي، بما تتضمنه من سعيي صوب الخير، وليست درسًا لحياة الآخرين. مثل هذه التفسيرات لا تصلح إلا للأحاديث، لكنها لا تُخلِّصني من الشعور بالهلع الذي ينتابني أمام صنوف المعاناة المريعة التي تهددني وتستبعد إمكانية الحياة.

لكن حتى إذا أمكن لنا أن نفهم أننا نُجبر الآخرين على المعاناة بسبب ضلالاتنا، فإني أجد نفسي أعاني بسبب نتائج ضلالات الآخرين، وإذا أمكن أيضًا أن أفهم ـ حتى لو من بعيد جدًا ـ أن كل معاناة هي إشارة إلى ضلالةٍ ما كان يجب أن يُصلحها الناس في هذه الحياة، تظل أمامنا صنوف كثيرة جدًّا من المعاناة بلا أي تفسير. هذه ذئاب تقتل إنسانًا في غابة، وذاك

إنسان غرق، وثالث تجمد أو احترق أو مرض ببساطة وحيدًا ومات، ولم يعرف أحد في أي مكان شيئًا عن كم عانى، وثمة آلاف من الحوادث المماثلة... من الذي يمكن أن يستفيد من شيء كذلك؟

بالنسبة لإنسان يفهم حياته باعتبارها وجودًا حيوانيًّا، لا يوجد ـ ولا يمكن أن يوجد ـ أي تفسير لذلك، لأن العلاقة بين المعاناة والضلالة بالنسبة لذلك الإنسان تنحصر في الظواهر المرئية وحسب، وهذه العلاقة تغيب عن نظره العقلي تمامًا حينما تبدأ سكرات الموت.

يجد الإنسان نفسه أمام اختيارين: إما أن يستمر في تحمل معظم ما يتعرض له من معاناة باعتبارها عذابات بلا أي مغزى، دون أن يعترف بوجود أي صلة بين المعاناة وحياته، أو أن يعترف بأن ضلالاته وأفعاله هي نتاج مباشر لخطاياه مهما كانت، وأن معاناته هي طريق الخلاص والتكفير عن خطاياه وخطايا الآخرين أيًّا كانت.

ثمة علاقتان ممكنتان وحسب بهذه المعاناة: تتلخص الأولى في أن المعاناة هي ما لا يجب أن يحدث لأنني لا أرى مغزاها الخارجي، وتتلخص الأخرى في أنها هي تحديدًا ما يجب أن يحدث لأنني أعرف أهميتها الداخلية لحياتي الحقيقية. تنبع الأولى من الاعتراف بأن الخير هو خير حياتي الشخصية المنفصلة، والثانية من الاعتراف بأن الخير؛ أي خير مجمل حياتي الماضية والمستقبلية، يرتبط تمامًا بخير الآخرين من البشر وبقية الكائنات. في ظل النظرة الأولى ليس هناك أي مغزى للمعاناة، ولا تثير هذه المعاناة أي نشاط آخر سوى يأس وغضب يزدادان دون توقف، ولا يمكن لشيء أن يزيلهما. في ظل النظرة الثانية تثير المعاناة ذلك النشاط الذي يُشكِّل حركة الحياة الحقيقية؛ النشاط المتمثل في الوعي بالخطية

والتحرر من الضلالات والخضوع لقانون العقل. إذا لم يكن عقل الإنسان فإن عذاب المعاناة ـ شئنا أم أبينا ـ يجبرنا على الاعتراف بأن حياة الإنسان لا تتلاءم مع شخصيته، وأن شخصيته ليست سوى الجزء المرئي من حياته، وأن العلاقة الخارجية المرئية له بين السبب والفعل في شخصيته، لا تتسق مع هذه العلاقة الداخلية بين السبب والفعل المعروفة دائمًا للإنسان بفضل وعيه العقلي.

العلاقة بين الضلالة والمعاناة المرئية للحيوان داخل إطار الشروط المكانية والزمانية وحسب، تكون واضحة دائمًا للإنسان خارج إطار هذه الشروط في وعيه. يدرك الإنسان المعاناة ـ مهما كانت ـ كنتيجة لخطيته ـ أيًا كانت ـ ويدرك التوبة عن خطيته كخلاص من هذه المعاناة وتحقيق للخير. إن حياة الإنسان برمتها منذ أول أيام طفولته لا تتألف إلا من الوعي بالخطية عبر المعاناة والتحرر من الضلالات. أعرف أني وصلت إلى هذه الحياة بمعرفة محددة عن الحقيقة، وأنه كلما ازدادت الضلالات في داخلي، ازدادت معاناتي ومعاناة الآخرين، وكلما ازداد تحرري من هذه الضلالات، قلّت معاناتي ومعاناة الآخرين وازداد تحقيقي لخيري. لذلك أعرف أنه كلما ازدادت معرفة الحقيقة التي أنالها من هذا العالم والتي تجلب لي معاناة الموت، حتى ولو كانت الأخيرة، حققتُ خيري.

لا يختبر عذابات المعاناة سوى مَن فصل نفسه عن حياة العالم ولم يرَ خطاياه التي جلبت المعاناة للعالم، واعتبر نفسه غير مذنب، ومن ثَم تملَّكه الغضب من كافة صنوف المعاناة التي يتعرض لها ثمنًا لخطايا العالم.

المدهش في الأمر هو أن الأمر الواضح للعقل تؤكده حقيقة نشاط الحياة الوحيد؛ ألا وهو الحب. يقول العقل إن الإنسان الذي يعترف

بالعلاقة بين خطاياه وصنوف المعاناة من جانب، وخطايا العالم ومعاناته من جانب آخر، يتحرر من عذاب المعاناة، وفي الحقيقة يؤكد الحب ذلك أيضًا.

تمضي نصف حياة كل إنسان في المعاناة، ولا يقتصر الأمر على أنه لا يعترف بمدى عذابها أو يلاحظه، بل إنه يعتبرها خيرًا لسبب وحيد؛ أنها قد حلَّت به نتيجة ضلالاته، كما أنها وسيلة علاج أحبابه من معاناتهم. كلما قلَّ مقدار الحب إذن ازداد تَعرُّض الإنسان لعذابات المعاناة، وكلما ازداد قدر الحب قلَّت عذابات المعاناة. يتجلى نشاط الحياة العقلانية تمامًا في الحب وحده، ويستبعد إمكانية كل معاناة. ينحصر عذاب المعاناة في الألم الذي يختبره الناس عند محاولات تمزيق سلسلة حب الأسلاف، والأحفاد، والمعاصرين، التي تربط الحياة الإنسانية بحياة العالم.



الفصل الخامس والثلاثون

صنوف المعاناة الجسدية شرط ضروري لحياة الناس وخيرهم

يتساءل الناس قائلين: «لكنْ هناك ألم... ألم جسدي. ما الجدوى منه؟». ربما يجيبنا مَن جلب لنا الألم، وجعل قدره ضئيلًا والخير الناجم عنه عظيمًا بقدر المستطاع قائلًا: «لا يقتصر الأمر على أن الألم ضروري لنا، بل إنه يستحيل علينا العيش بدون ألم». من منا لا يعرف أن أول شعور بالألم هو الوسيلة الأولى والرئيسة لحماية جسدنا ومواصلة حياتنا الحيوانية، وأنه إذا لم يكن موجودًا لاحترقنا جميعًا ونحن أطفال بينما نلهو، ولمزقنا جسدنا كله؟ يصون الألم الجسدي الشخصية الحيوانية. وما دام الألم يحمي الشخصية، كما يحدث مع الطفل، لا يمكن إذن أن يكون هذا الألم عذابًا مريعًا؛ ذلك الألم الذي نشعر به عندما نجد أنفسنا في تمام قوة الوعي العقلي ونقاوم الألم معتقدين أن ما يحدث لا يجب أن يحدث. الألم في الحيوان والطفل محدد تمامًا وضئيل القدر، لا يصل أبدًا إلى درجة العذاب الذي يصل إليها في كائن وُهِب وعيًا عقليًا. نرى الطفل يبكي من قرصة برغوث بدرجة مثيرة للشفقة أحيانًا بسبب الألم الذي يصيب أعضاءه الداخلية. لا يترك الألم الذي يشعر به كائن غير عاقل أي أثر في

الذاكرة. فليحاول كل واحد منا أن يتذكر آلام معاناته الطفولية المبكرة، وسيرى أن الأمر لا يقتصر على أنه لا يتذكرها، بل إنه لا يقدر حتى على إعادة تصورها في مخيلته. الانطباع الذي نشعر به عند رؤية معاناة الأطفال والحيوانات هو بالأحرى انطباع عن معاناتنا أكثر منه انطباع عن معاناتهم. التعبير الداخلي عن صنوف المعاناة التي تصيب الكائنات غير العاقلة أكبر بدرجة لا تُقاس من المعاناة ذاتها، ومن ثَم يثير تعاطفنا بدرجة أكبر بما لا يقاس، كما يمكننا أن نلاحظ ذلك عند الإصابة بأمراض المخ والحمى والتيفوس وجميع أنواع الآلام.

تنحصر أهمية الألم في تلك الفترات التي لا يكون الوعي العقلي قد استيقظ بعد في حماية الشخصية، ولا يكون الألم مُعذِّبًا. في تلك الفترات التي تتوفر فيها في الإنسان إمكانية لعمل الوعي العقلي، يكون الألم وسيلة لإخضاع الشخصية الحيوانية للعقل، وبقدر يقظة هذا الوعي تقل حدة الألم أكثر فأكثر.

في الواقع لا يمكننا التحدث عن المعاناة إلا عندما نكون في كنف الوعي العقلي بدرجة كاملة، لأن الحياة لا تبدأ إلا في كنف تلك الحالة التي نسميها «معاناة». في هذه الحالة الشعورية يمكن للألم أن يمتد إلى أقصى حدوده، أو يتقلص إلى أضيق قدر ممكن. في حقيقة الأمر مَن الذي لا يعرف دون دراسة علم وظائف الأعضاء أنه ما إن يصل الألم إلى حد معين حتى يتوقف الإحساس، فيحدث مثلًا فقدان وعي أو بلادة أو حمى أو يحل الموت؟ لا يمكن لزيادة الألم إذن أن تتجاوز حدودًا معينة. يمكن أن يزيد الإحساس بالألم من وعينا به إلى ما لا نهاية، ويمكن له كذلك أن يقل إلى ما لا نهاية.

نعرف جميعًا كيف يمكن للإنسان أن يخضع للألم ويعترف بأنه ضروري، ومن ثَم يصل إلى درجة عدم الشعور به، بل يمكن له أيضًا أن يشعر بالسرور لشعوره بهذا الألم. ناهيكم عن الشهداء وعن يان هوس[1] الذي غنَّى عند المحرقة، يتحمل البسطاء أكثر العمليات إيلامًا دون صراخ أو خوف بدافع الإعراب عن شجاعتهم لا أكثر.

عذابات الألم مريعة حقًّا لأولئك الذين يرون أن حياتهم هي الوجود الجسدي وحسب. وكيف لا يكون الألم مريعًا حينما تُوجَّه قوة العقل التي وُهِبت للإنسان ليتخلص من عذابات المعاناة إلى زيادة الألم وحسب؟

ثمة أسطورة لأفلاطون عن أن الله حدَّد للبشر في البداية عمرًا يُقدَّر بسبعين عامًا، لكن بعد أن رأى أن الناس صاروا في حال أسوأ بسبب ذلك، بدَّل بهذه المهلة الوضع القائم الآن؛ أي أنه جعل الناس لا يعرفون ساعة موتهم. هكذا تتبين عقلانية ما تتحدث عنه الأسطورة، حيث إن الناس خُلِقوا في البداية دون شعور بالألم، لكن وصل الأمر إلى ما هو عليه الآن لتحقيق خيرهم.

إذا كانت الآلهة قد خلقت البشر دون شعور بالألم، لنَشَدَه الناس سريعًا. في غياب الألم كانت النساء ليلدن أطفالًا في هذه الظروف التي يندر أن يبقى فيها الأطفال أحياءً، وإذا لم يكن الألم لمزق الأطفال والشباب أجسادهم، ولما عرف البالغون قَطُّ ضلالات من عاشوا قبلهم ومن يعيشون الآن، والأهم من كل ذلك لما عرفوا ضلالاتهم هم أنفسهم،

---

(1) كان لاهوتيًّا وفيلسوفًا تشيكيًّا، ترأسَ جامعة تشارلز، وصار مصلحًا كنسيًّا وشخصية رئيسة من شخصيات حركة الإصلاح. أُعدِم حرقًا.

ولما عرفوا ماذا عليهم أن يفعلوا في هذه الحياة، ولما كان لنشاطهم هدف معقول، ولما استطاعوا قَطُّ التصالح مع فكرة حتمية الموت الجسدي، ولما حظوا بالحب.

لا يقتصر الأمر على أن الألم ليس شرًّا بالنسبة للإنسان الذي يفهم أن حياته تتمثل في إخضاع شخصيته لقانون العقل، بل إنه شرط ضروري لحياته الحيوانية والعقلية على السواء. لو لم يوجد ألم لما حَظَت الشخصية الحيوانية بإشارة إلى انحرافها عن قانونها، ولو لم يختبر الوعي العقلي معاناة لما أدرك الإنسان الحقيقة ولما توصل إلى قانونه.

سيجيبون عن ذلك قائلين: «إنك تتحدث عن معاناتك الشخصية ولكن كيف يمكنك أن تنكر معاناة الآخرين؟ هذه المعاناة من أكثر أنواع المعاناة جلبًا للعذاب». لكنهم ليسوا مخلصين في قولهم. معاناة الآخرين؟! لكن معاناة الآخرين التي تسمونها معاناة لم ولن تتوقف. إن عالم البشر والحيوانات برمته يعاني، ولم يتوقف عن المعاناة. هل من المعقول أننا لم نعرف ذلك سوى اليوم؟ الجروح والإصابات والجوع والبرد والمرض وكافة أنواع البلايا؛ وبالأحرى تلك الأنواع التي لم يكن لنا أن نوجد في هذا العالم من دونها، هي شروط ضرورية للوجود. إن عمل الحياة الإنسانية ينحصر في فهم صنوف المعاناة الشخصية وأسباب ضلالات الناس والنشاط الموجَّه إلى تقليلها. أنا إنسان ولديَّ شخصية كي أفهم معاناة الآخرين، وقد حظيت بوعي عقلي لكي أرى في معاناة كل شخصية منفردة سببًا عامًّا للمعاناة؛ أي ضلالة، ولكي أتمكن أيضًا من تدميرها في داخلي وفي الآخرين. كيف يمكن لمادة العمل إذن أن تجلب المعاناة للعامل؟ الأمر يماثل أن يقول الفلاح إن أرضًا غير محروثة هي

سبب معاناته. لا يمكن أن تكون الأرض غير المحروثة سببًا للمعاناة، إلا لمن أراد أن يرى الأرض الصالحة للزراعة تُحرث، لكنه لا يعتبر الحرث هو أهم عمل في حياة الأرض.

النشاط الموجَّه نحو أي خدمة مُحبَّة مباشرة لشخص يعاني والقضاء على الأسباب المباشرة للمعاناة؛ أي القضاء على الضلالات، هو العمل الوحيد المبهج الذي يتحتم على الإنسان فعله ويمنحه خيرًا لا يمكن أن يُنتزع منه، وتتمثل فيه حياته برمتها.

ثمة معاناة واحدة فقط بالنسبة للإنسان؛ إنها تلك المعاناة التي تدفعه ـ شاء أم أبى ـ إلى التسليم لهذه الحياة التي ليس له فيها سوى خير واحد.

هذه المعاناة هي الوعي بالتناقض بين فساده وفساد العالم برمته من جانب، وليس فقط إمكانية بل وضرورة أن يحقق المرء بنفسه، وليس من قِبل أي شخص آخر، الحقيقة في حياته وحياة العالم بأسره من جانب آخر. يستحيل تقليل حدة هذه المعاناة سواء بالمشاركة في خطية العالم أو عدم رؤية المرء لخطيته. الأمر الذي لا يقل عن ذلك أيضًا هو التوقف عن الإيمان، ليس فقط بإمكانية تحقيق حقيقة حياتي برمتها وحياة العالم، بل وواجبي أنا ـ لا أي شخص آخر ـ أن أفعل ذلك. الأمر الأول لا يفعل شيئًا سوى زيادة صنوف معاناتي، بينما يحرمني الثاني من قوة الحياة. لا يتم تقليل حدة هذه المعاناة إلا بوعي ونشاط الحياة الحقيقية اللذين يقضيان على التباين بين الحياة الشخصية والهدف الذي يعيه الإنسان. شاء أم أبى يتوجب على الإنسان أن يعترف بأن حياته لا تنحصر في شخصيته الموجودة من لحظة الميلاد وحتى الموت، وأن الهدف الذي يعيه يمكن تحقيقه، وأن في السعي إليه والوعي المتنامي للمرء بخطيته، والتحقيق

المتزايد للحقيقة كاملة في حياته وحياة العالم، يتمثل وتمثَّل وسيظل يتمثل دائمًا عمل حياته غير المنفصلة عن حياة العالم. إذا لم يفعل الوعي العقلي ذلك تدفع المعاناة النابعة من الضلالة المتعلقة بمغزى الحياة الإنسانَ ـ سواء شاء أم أبى ـ نحو طريق الحياة الوحيد الحقيقي الذي لا توجد فيه عقبات ولا شرور، بل يوجد فيه شيء واحد فقط لا يمكن لشيء آخر أن يحول دون تحقيقه، وهو شيء لم يبدأ في لحظة ما، ولا يمكن أن ينتهي؛ إنه الخير المتنامي باستمرار.

خاتمة

حياة الإنسان هي سعي إلى الخير، وما يسعى إليه قد وُهب إياه فعلًا.

لا يرى الإنسان الشر المتمثل في الموت والمعاناة إلا عندما يَقبل قانون وجوده الجسدي الحيواني باعتباره قانون حياته برمتها. لا يمكن للإنسان أن يرى الموت والمعاناة إلا حينما يهبط إلى تلك الدرجة وحسب. الموت والمعاناة هما أشباح تصرخ على المرء من كافة الجهات، وتدفعه إلى الطريق الوحيد المفتوح أمامه؛ طريق الحياة الإنسانية الخاضعة لقانون العقل والتي يتم التعبير عنها بالحب. الموت والمعاناة ليسا سوى الجرائم التي يرتكبها الإنسان في حق قانون حياته. ليس ثمة موت ولا معاناة بالنسبة لمن يحيا وفقًا لقانونه.

«تَعَالَوْا إِلَيَّ يَا جَمِيعَ الْمُتْعَبِينَ وَالثَّقِيلِي الأَحْمَالِ، وَأَنَا أُرِيحُكُمْ»[1].

«احْمِلُوا نِيرِي عَلَيْكُمْ وَتَعَلَّمُوا مِنِّي، لأَنِّي وَدِيعٌ وَمُتَوَاضِعُ الْقَلْبِ، فَتَجِدُوا رَاحَةً لِنُفُوسِكُمْ. لأَنَّ نِيرِي هَيِّنٌ وَحِمْلِي خَفِيفٌ»[2].

إن حياة الإنسان هي سعي صوب الخير، وما يسعى إليه الإنسان قد وُهِب إياه فعلًا. لا يمكن أن تكون الحياة موتًا، ولا يمكن أن يكون الخير شرًّا.

---

(1) متى (11: 28).

(2) متى (11: 29 ـ 30).

ملحق 1

يُقال عادة: «إننا لا ندرس الحياة طبقًا لوعينا بحياتنا، بل بما هو خارج أنفسنا بشكل عام». لكن ذلك يماثل القول إننا لا نفحص الأشياء بأعيننا بل بما هو خارج أنفسنا.

إننا نرى الأشياء خارج أنفسنا لأننا نراها بأعيننا، كما أننا ندرك الحياة خارج أنفسنا لأننا نعرفها في داخلنا. نحن لا نرى الأشياء إذن إلا كما نراها بأعيننا، ولا نُحدِّد الحياة خارج أنفسنا إلا كما نعرفها في أنفسنا. ندرك الحياة في أنفسنا سعيًا صوب الخير. لذلك يستحيل أن نلاحظ الحياة، بل يستحيل تمامًا أن نراها في غياب تعريف الحياة بوصفها سعيًا صوب الخير.

الفعل الأول والرئيس اللازم لنعرف الكائنات الحية هو أن نُدرج أفرادًا مختلفين تحت مفهوم كائن حي واحد، وأن نُميِّز بين هذا الكائن الحي وبقية الكائنات. لا نفعل كلا الأمرين إلا على أساس تعريف الحياة الذي نعيه جميعًا بوصفها سعيًا صوب خير النفس ككيان منفصل عن بقية الكائنات.

نحن نعرف أن إنسانًا يمتطي جوادًا لا يشكلان كائنات عديدة، ولا هما كائن واحد. لا يعود إدراكنا لذلك لملاحظتنا كافة الأجزاء التي يتألف

منها الإنسان والجواد، بل لأننا لا نرى في رأس أو قدمَي الإنسان أو أقدام الجواد أو أي جزء آخر منهما، هذا السعي المنفصل صوب الخير الذي نراه في أنفسنا. نحن نعرف أن الإنسان والجواد ليسا كيانًا واحدًا بل اثنين لأننا ندرك فيهما سعيين منفصلين صوب الخير، كهذا السعي الواحد الذي ندركه في أنفسنا.

لذلك وحسب نعرف أن ثمة حياة في الفارس والجواد، وأن ثمة حياة في قطيع الخيول وحياة في الحشرات والأشجار والعشب. لو لم نكن قد عرفنا أن الجواد والإنسان يرغبان في خيرهما، وأن كل جواد وسط القطيع يرغب في الخير لنفسه، وأن الأمر هكذا أيضًا مع كل طائر وبرغوث بحر وشجرة وعشب، لما أدركنا انفصال الكائنات، ولو كان الأمر كذلك لما تمكنًا قَطُّ من فهم أي شيء حي. كان من شأن كل شيء حي كفوج من الفرسان وقطيع خيول وسرب طيور والحشرات والنباتات أن يبدو لنا كموجات بحر، ولاندمج العالم كله بالنسبة لنا في حركة واحدة لا مبالية لا يمكننا أن نجد فيها أثرًا للحياة.

إذا كان بوسعي أن أعرف أن الجواد والكلب والقرادة التي عليه كائنات حية، وأن ألاحظها، فهذا بسبب أن لدى الجواد والكلب والقرادة أهداف منفصلة، وهي أن يحقق كل منها خيره. أُدرك ذلك السعي صوب الخير الخاص لأنني أدركه في نفسي.

يتمثل أساس كل معرفة عن الحياة في هذا السعي صوب الخير. دون الاعتراف بأن هذا السعي صوب الخير الذي يشعر به الإنسان هو الحياة ودلالة على كل حياة، لا يمكن أن تُجرى أي دراسة أو ملاحظة حقيقية عن الحياة. نظرًا لأن الملاحظة تبدأ حينما تكون الحياة معروفة بالفعل،

لا يمكن إذن لأي ملاحظة لأحد تجليات الحياة أن تُعرِّف الحياة ذاتها كما يفترض العلم الزائف.

لا يعترف الناس بأن تعريف الحياة هو السعي إلى الخير الذي يجدونه في وعيهم، بل يعترفون بإمكانية معرفة هذا السعي في القرادة، وعلى أساس هذه المعرفة المفترضة للخير التي ليس لها أي أساس، يُجرون ملاحظات ويصلون إلى استنتاجات عن جوهر الحياة ذاته!

إن مجمل مفهومي عن الحياة الخارجية مؤسس على سعيي صوب الخير. لذلك كل ما عليَّ هو أن أدرك ماهية خيري وحياتي، وسأجد نفسي حينها في وضع يسمح لي بإدراك أن لبقية الكائنات حياة وخيرًا أيضًا. إذا لم أدرك حياتي وخيري لا يمكنني أن أدرك حياة الآخرين وخيرهم.

لا يقتصر الأمر على أن الانكباب على ملاحظة الكائنات الأخرى الساعية إلى أهداف مجهولة لي، تمثل ما يشبه هذا الخير الذي لا أدرك في داخلي سعيًا إليه لا يمكنه أن يُوضِّح لي شيئًا، بل إن بوسعه أن يخفي عني حتمًا معرفتي الحقيقية للحياة.

يتضح إذن أن دراسة حياة الكائنات الأخرى دون أن يكون لدينا تعريف لحياتنا، يماثل وصف ما حولنا دون أن ندرك أين هو المركز. كل ما يلزمنا هو أن نحدد نقطة واحدة ثابتة كمركز، وحينها يمكن وصف ما حولها. لكن مهما رسمنا أشكالًا فلن يكون بالإمكان وصف ما حولنا دون تحديد مركز.

ملحق 2

يُشوِّه العلم الزائف مفهوم الحياة عندما يدرس الظواهر المقترنة بالحياة، ظانًّا أنه يدرس الحياة ذاتها، لذلك كلما ازدادت دراسته للظواهر التي يطلق عليها «الحياة»، ازداد انفصالًا عن مفهوم الحياة الذي يريد دراسته.

في البداية يدرسون الثدييات، ثم يدرس آخرون الفقاريات والأسماك والنباتات والمرجانيات والحيوانات الخلوية والكائنات الميكروسكوبية، حتى يصل الأمر إلى زوال التمييز بين الكائنات الحية وغير الحية؛ بين الأشياء والكائنات العضوية، ثم تزول الحدود بين كائن حي وآخر. يصل الأمر إلى أن أهم موضوعات البحث والملاحظة تبدو غير قابلة للملاحظة. يبدو لهم أن سر الحياة وتفسير كل شيء يكمن في تلك الخطوط الفاصلة والخلايا النطفية وما يُكتشف اليوم ويُنسى غدًا. يفترضون أن تفسير كل شيء يَكمن في تلك الكائنات الكامنة داخل كائنات ميكروسكوبية، والكائنات التي تحويها تلك الكائنات الموجودة داخل كائنات ميكروسكوبية... وهكذا إلى ما لا نهاية، كما لو أن قابلية القسمة اللانهائية لما هو صغير ليست لا نهائية بالقدر ذاته الذي لما هو كبير. ينكشف السر حينما يتناول البحث لا نهائية ما هو صغير برمتها وصولًا إلى نهايتها... أي أن ذلك لن يحدث أبدًا. لا يرى الناس أن تصور إمكانية حل السؤال عندما يكون على مستوى لا متناهي الصغر هو دليل قاطع على أن السؤال مطروح بطريقة غير سليمة.

هذه هي المرحلة الأخيرة من مراحل الجنون؛ المرحلة التي تكشف بوضوح عن تبدد المغزى من أبحاثنا كاملًا... المرحلة التي يعتبرها العلم انتصارًا له، وهي أيضًا المرحلة الأخيرة من العماء والتي تبدو لأصحابها أقوى درجات البصر. وصل الناس إلى طريق مسدود، ومن ثَم تبين أمامهم بوضوح زيف هذا الطريق الذي سلكوه، لكنهم فرحون فرحة لا حدود لها. يقولون: «كل ما يلزمنا هو أن نزيد قوة الميكروسكوبات قليلًا وحينها سنفهم الانتقال مما هو غير عضوي إلى ما هو عضوي، ومما هو عضوي إلى ما هو نفسي، وسينكشف لنا سر الحياة كاملًا».

يدرس الناس الظلال بدلًا من الأشياء، وفي فعلهم لذلك نسوا تمامًا الشيء الذي يدرسون ظله، وكلما تعمقوا أكثر فأكثر في دراسة الظل، اكتنفهم الضباب وابتهجوا بمدى كثافة الظل.

ينكشف مغزى الحياة في وعي الإنسان بوصفه سعيًا صوب الخير. يُشكِّل التفسير المتزايد أكثر فأكثر لهذا المغزى الهدف الرئيس والعمل الأساسي لحياة الإنسانية كلها. نظرًا لأن هذا العمل صعب، أي أنه ليس مجرد لعبة بل عملًا حقيقيًا، يُقرِّر الناس أنه ليس بوسعهم أن يجدوا تعريف الحياة حيث هو موجود فعلًا؛ أي في الوعي العقلي للإنسان، ومن ثَم يجب البحث عنه في أي مكان عدا المكان الموجود فيه فعلًا.

يشبه ذلك ما يمكن أن يفعله إنسان أعطوه ورقة مكتوبًا عليها إشارة محددة إلى ما يحتاج إليه، ولأنه لا يستطيع قراءتها رماها، وسأل كلَّ من التقاهم عما إذا كانوا يعرفون ما هو في حاجة إليه أم لا. إن تعريف الحياة الذي هو السعي إلى الخير محفور بأحرف لا تُمحى في روح الإنسان، والناس يبحثون عنه في كل مكان عدا الوعي. هذا أمر غريب للغاية لأن

الإنسانية جمعاء مُمثَّلة في أحكم أفرادها، بداية من الحكمة اليونانية التي أعلنت «اعرف نفسك!»، قالت ـ ولا تزال ـ النقيض تمامًا. إن كافة التعاليم الدينية ليست سوى تعريف للحياة بوصفها سعيًا إلى الخير الحقيقي الملائم للإنسان.

ملحق 3

يزداد صوت العقل وضوحًا للإنسان، ويزداد استماع الإنسان إليه أكثر فأكثر، ويأتي وقت ـ وقد أتى بالفعل ـ حين يصير هذا الصوت أقوى من الصوت الداعي إلى الخير الشخصي والواجب المخادع. من ناحية يزداد وضوحًا للإنسان أن الحياة الشخصية بكل إغواءاتها لا يمكن أن تُقدِّم خيرًا للإنسان، ومن ناحية أخرى يتضح أن الالتزام بكل واجب منسوب للناس ليس سوى خداع يَحرم الإنسان من إمكانية سداد الدين الوحيد للإنسان للمبدأ العقلي والخيِّر الذي نبع منه. لقد بلي بالفعل هذا الخداع القديم الذي يدفعنا إلى الإيمان بما ليس له تفسير عقلي، وتستحيل العودة إليه.

كانوا يقولون سابقًا: «لا تفكر، بل آمن بالواجب الذي نصفه إليك. العقل يخدعك. الإيمان وحده يكشف لك خير الحياة الحقيقي». حاول الإنسان أن يؤمن، وآمن فعلًا، لكن التعامل مع الناس كشف له أن الآخرين يؤمنون بشيء مختلف تمامًا، ويؤكدون أن ما يؤمنون به يمنح الإنسان خيرًا أكبر. صار من المحتم إذن حسم السؤال المتعلق بأيٍّ من صيغ الإيمان هي الأصح، ولا يمكن لشيء أن يحسم هذه المسألة سوى العقل.

يدرك الإنسان دائمًا من خلال العقل لا الإيمان. كان بالإمكان سابقًا أن نُخدع بتأكيد أن الإدراك يتم بالإيمان لا العقل، ولكن ما إن يُدرك الإنسان

وجود صيغتين إيمانيتين مختلفتين، ويرى أناسًا يؤمنون إيمانًا آخر بالطريقة ذاتها التي يؤمن بها، حتى يجد نفسه مضطرًا لحسم المسألة بالعقل. إذا ظل البوذي على ديانته بعد أن عرف الإسلام، فهو يظل كذلك بالعقل لا بالإيمان. متى ظهر له إيمان مختلف وسؤال عما إذا كان يجب عليه أن يتخلى عن إيمانه أم لا، يتوجب عليه أن يحسم المسألة بالعقل. إذا ظل بوذيًا بعد أن عرف الإسلام يتأسس إيمانه الأعمى السابق بالبوذية على أسس عقلية.

إن المحاولات التي تُجرى في زماننا لسكب محتوى روحي داخل الإنسان عن طريق الإيمان بمعزل عن العقل؛ تشبه محاولة أن يأكل الإنسان دون استخدام فمه.

لقد كشف التواصل بين الناس لهم عن أساس المعرفة العام للجميع، ولم يعد بوسع الناس أن يعودوا إلى ضلالتهم السابقة. «تَأْتِي سَاعَةٌ وَهِيَ الآنَ، حِينَ يَسْمَعُ الأَمْوَاتُ صَوْتَ ابْنِ اللهِ، وَالسَّامِعُونَ يَحْيَوْنَ»[1].

يستحيل إخماد هذا الصوت لأنه ليس صوت شخص ما، بل هو صوت وعي الإنسانية العقلي كاملًا؛ الصوت الذي يعلن عن نفسه داخل كل إنسان وفي أفضل البشر، كما أنه يعلن عن نفسه الآن في غالبية الناس.



(1) يوحنا (5: 25).

ظهرت بذرة هذا الكتاب في مقالة نشرها تولستوي بعنوان "مقالة عن الحياة" في مجلة "الثروة الروسية، وكان أوبولينسكي صديق تولستوي قد حثه كثيرًا على كتابتها. يقول تولستوي في إحدى خطاباته إليه: ""أكتب الآن أفكارًا عن الحياة والموت وأعيد صياغة ما قرأته، ويبدو لي هذا الموضوع شديد الأهمية.."

بعد حديث دار بين تولستوي و ي.جروت أحد الأساتذة بجامعة موسكو عن مفهوم الحياة، وقراءة تقرير بعنوان "مفهوم الحياة" في الجمعية النفسية بجامعة موسكو في ١٤ مارس ١٨٨٧ خطرت على ذهن تولستوي فكرة أن يكتب كتابًا خاصًا عن الأمر: "بدأ الأمر معي بالكتابة عن الحياة والموت، لكن عندما انتهيت تبيّن لي أن عليّ أن أزيل النصف الثاني من العنوان، لأن هذه الكلمة - على الأقل بالنسبة لي - فقدت مغزاها تمامًا".

نُشر المقال أخيرًا في ١٨٨٨ في مجلة "جمعية علم النفس بموسكو" بعنوان آخر "أَسئلة الفلسفة وعلم النفس"، وناقش أساتذة جامعة موسكو وأعضاء الجمعية المقال.

كتاب "عن الحياة" هو بحث فلسفي في طبيعة الحياة، ويتميز بلغة بسيطة وواضحة رغم تطرقه لمسائل فلسفية عميقة. لم يكف تولستوي يومًا عن التفكير في مغزى حياته وحياة البشر عمومًا، وفي هذا الكتاب يلتقي القارئ بتولستوي المفكر والفيلسوف القلق الذي لا يكف عن مراجعة أفكاره وتعديلها، مثلما لم يكن يكف عن مراجعة بروفات أعماله. هذه العملية العقلية الديناميكية التي لا تتوقف هي واحدة من أهم سمات هذا العقل الجبار.


ISBN 978-9-9226437-6-2
daralrafidain
daralrafidain
daralrafidain دار الرافدين
www.daralrafidain.com
info@daralrafidain.com
Dar ALRafidain دار الرافدين